# دراسات في التاريخ والآثار

( ٨ )

مجلة جمعية المؤرخين والاثاريين
في العــراق

مطبعة الامــة - بغداد

# دراسات في التاريخ والآثار

مجلة فصلية تصدرها جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

## هيئة التحرير



المراسلات : جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق
العراق / بغداد / ص.ب (٧٥٥٣) شارع حيفا

## ترسل البحوث باسم رئيس التحرير

ص.ب : (٧٥٥٢) شارع حيفا

مجلة دراسات في التاريخ والاثار ـ جمعية المؤرخين والاثاريين
ت : ( ٥٣٨١٣٠٤ )

## الاشتراكات السنوية في مجلة دراسات في التاريخ والاثار
## الاشتراك السنوي

الجامعات والمؤسسات في العراق (٥٠) دينارا سنويا

اعضاء الجمعية (٥) دنانير سنويا

الافراد عموما (١٠) دنانير سنويا

تدفع الاشتراكات مقدما وكالاتي :

أ ـ صكوك لامر الجمعية

ب ـ نقداً لامر الجمعية

# في هذا العـــدد

# أصالة الحضارة العراقية القديمة وتأثيراتها

رضا جواد الهاشمي
استاذ بقسم الآثار
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

**تقـــديم :**

لاجل الحديث عن الحضارة العراقية القديمة ودورها في رفد البناء الحضاري الانسانية ، يتوجب علينا مناقشة ثلاث نقاط أساسية هي :ـ

أولا ـ التأكيد على الاولوية والتقدم في قيـام الحضارة في العـراق القـديم ٠

ثانيا ـ متابعة الطرق والاساليب والوسائل التي عبرت من خلالها أو بواسطتها عناصر الحضارة العراقية القديمة الى خارج مركزها الرئيسي

ثالثا ـ اكتشاف عناصر حضارية في مواطن مختلفة من أقطار الشرق الادنى القديم ودراستها وتحليلها بغية البرهنة على أصولها العراقية ٠

يبدو واضحا من مطالعة هذه النقاط وترابطها مع بعضها أن كل فقرة منها لا تقل أهمية في سياق البحث عن غيرها ٠ فالبرهنة على القدم والاولوية تعد ضرورة لمدخل الحديث عن أثر أية حضارة على الاخريات ، فليس من المنطق أن نتحدث عن أثر حضارة اليونان في الحضارة المصرية أو حضارة بلاد وادي الرافدين مع ثبوت كون الحضارتين المصرية والعراقية القديمتين تسبقان مولد الحضارة اليونانية بعشـرات القـرون ٠ فالاثر ينتقل من

# كلمة العدد

يصدر العدد الثالث من المجلة وسط حالة استعداد وترقب لاصدار العدد التاسع الذي سوف يشهد تطبيق الخطة الجديدة للمجلة مضموناً واخراجاً وشكلا وتقاليد بحث، ووسط نشاط واسع لحركة البحث التاريخي لعبت هيئة كتابة التاريخ دورا رائدا في اذكائه ودفعه للتطور والابداع، مع شعور بالحاجة الى المزيد من العمل في حقل الدراسات التاريخية .
ومع ان قائمة محتويات العدد تشير الى استمرار نمطية العمل السابق في اصدار المجلة الا ان المراقب الدقيق يستطيع ملاحظة جملة اشياء بدأت تتغير نحو الاحسن وتبشر بامكانية تعبئة طموح الجمعية في تطوير مجلتها لتسهم في تطوير الدراسات التاريخية .

يصدر هذا العدد وسط حالة استبشار عربي توج بصمود العراق في وجه المؤامرة الامبريالية الصهيونية وافشاله سياسة التطويق والعزل، وصمود انتفاضة شعبنا العربي الفلسطيني في وجه القمع الصهيوني والصمت والتغاضي العنصري ، وتحقيق لحدة اليمن الشقيق التي هيأت له ارضية صلدة لدور قومي وطني مبشر . لقد توجت حالة الاستبشار بانعقاد المؤتمر الشعبي العربي لمناصرة العراق وانعقاد مؤتمر القمة العربي الاستثنائي في بغداد وسط ضغوط دولية واسعة ومحاولات لئيمة لوضع العصى في عجلة الدفاع عن الامن القومي العربي ، ان الاستبشار مالم يتواصل ويتحول ارادياً الى ممارسة فعلية للمسؤولية التاريخية يبقى مجرد حالة طارئة غير ان التحول المنشود هو الاخر بدأ يفصح عن نفسه فالموقف الارادي العربي الواعي المتحمس والمتحمس لاداء مسؤوليته التاريخية هو الاخر بدأ يفصح عن نفسه في شكل تعاظم وعي وتعزيز صمود فلا بد اذن ان يقود الى النتيجة الطبيعية وهي الانتصار لمستقبل عربي يبتداه العرب بشعار القائد العظيم صدام حسين

« التقدم التقني والعلمي عنوان الوطنية الجديد » .

رئيس التحرير

الاجداد والآباء الى الابناء ، ومن الاقدم زمنا الى الاحدث وليس العكس ٠ لذلك يكون ضروريا الحديث عن البدايات الاولى لفجر الحضارة الانسانية باعتبارها الخطوة الاولى على طريق البنـاء والتقدم الحضاري ٠ ومهمـا اقترنت الخطوة الاولى بالعثرات والصعوبات لكنها تمثل دون شك الاساس الذي شهد بعدئذ تشييد الصرح الشامخ لحضارة بني الانسان ٠

ويكون ضروريا أيضا عند الحديث عن أثر حضارة ما في الحضارات الاخرى أن تكتشف الطـريق الذي سلكته ، والوسائل والسـبل التي توسلت بها العناصر المختلفة في طريق انتقالها من هذا المركز أو ذاك الى غيرهما من المراكز الحضارية ٠

فقـد كان لزاما على عـالم الآثار النرويجي « هيريدال » أن يثبت امكانية الانتقال بحرا من مصر الى سواحل امريكا على مقربة من البيرو ، ليعزز بذلك فرضيته التي ترى بأن قدامى المصريين كانوا وراء نقل خبرة بناء الاهرامات الى مراكز حضارتي المـايا والانكا في القارة الامريكية ٠ ويتذكر الكثيرون ، وبخاصة من الاثاريين ، رحلة رع الاولى ورع الثانية في الستينات من هذا القرن ٠ لزورقين بناهما هيريدال على غرار الزوارق الفرعونية المعمولة من البردي ، وسار بهما مع شواطىء البحـر المتوسط ونفذ من أعمدة هيرقل ( مضيق جبل طارق ) وعانق مياه المحيط الاطلسي في رحلة مجازفة خطيرة فشلت الاولى من تحقيق مهمتها ، بينمـا تناقلت الاخبار نجاح الثانية تقريبا ٠

ومع اقرارنا بأن وجـود أسباب للاتصال بين شـعبين أو مركزين حضاريين لا تفيد بالضرورة تأكيد أنتقال عناصر حضارة من مكان لآخر ، لان ذلك يجب اقترانه بفصـل النقـاط الثلاث التي اثيرت في فاتحة هـذا

البحث ، ولكن الطريق يبقى بالضرورة أحد الاسباب المهمة في هذا السياق ·

فلو أردنا الحديث عن أثر حضارة العراق القديم في بلاد ايران مثلا ، فان طرق الاتصال لا تقف حائلا دون تحقق ذلك ان لم تكن قد زادت فعلا من فرص التبادل والاتصال والانتقال الحضاري ·

ومع تحقق الشرطين الاول والثاني ، يبقى الحديث عن العناصر الحضارية المنتقلة أو المتأثرة بمراكز أخرى بحاجة الى دراسة وتحليل واثبات · وتبرز أحيانا في دراسة التأثيرات الحضارية أو انتقالها بعض العناصر التي تكشف عن أصولها دونما حاجة الى طول أناة أو براهين ودلائل كثيرة ، فطقوس عبادة الآلهة عشتار وكهنتها والقصص الدينية التي تدور حول شخصها وما الى ذلك ، نجدها كاملة مع استمرار اسم الآلهة عشتار بصيغه العراقية القديمة في سوريا ، وبخاصة عند الفينيقيين(١) كما يبدو واضحا جليا نقل الاخمينيين لرمز الاله آشور واعتماده ، بعد اجراء تحوير بسيط عليه ، رمزا لآلههم اورامزاد ، وبالتالي رمزا لدولتهم(٢) ·

وأخيرا فأن الكتابة المسمارية كعنصر حضاري عراقي قديم يكشف بوضوح ، لا عن انتقاله الى هذا المركز أو ذاك فحسب ، وانما يكشف أيضا عن المديات الواسعة لتأثير الحضارة العراقية القديمة ، فقد كتب العيلاميون والحثيون والخوريون بكتابات اشتقت من الخط المسماري كما كتب المصريون الفراعنة جانبا من صلاتهم السياسية الخارجية بالخط المسماري ، حيث وصلتنا منهم مجموعة من الرسائل الدبلوماسية تعرف برسائل تل العمارنة نسبة الى اسم الموقع الذي اكتشفت فيه ، وكلها

مدونة بالخط المسماري واللغة البابلية ، ووضع الفينيقيون أبجديتهم بقلم اقتبسوه عن الخط المسماري(٣) ٠

من الطبيعي أن تدخل الشعوب على العناصر والمقومات الحضارية التي تقيسها بعض التعديلات التي تجعل من العنصر الحضاري المستورد مع مجموعة الخصائص في البيئة الجديدة ، سواء كانت في الفكر او العادات والتقاليد أم في البيئة الجغرافية والطبيعية ، ومع مرور الزمن والتطور والتغير الذي يصيب عناصر الحضارة ، تأخذ العناصر المقتبسه بالابتعاد كثيرا او قليلا عن منابعها الاصلية ، لذلك تحتاج عملية فرز مثل هذه المقومات والعناصر الى التحليل والدراسة الدقيقة والمقارنة ، وهي مهمة انبرى لها أكثر من باحث وافردت لها فصول وكتب ، أجد في الاشارة الى بعضها(٤) عذرا عن عرضها أو متابعتها في بحثي هذا ، وسأقتصر حديثي عن الفقرتين الاولى والثانية ٠

**الحضـارة :**

من الموضوعات التي يحتدم حولها النقاش لفظة الحضارة ، في معناها ومداولها وتحديد الخصائص والمميزات التي تنضوي في أطارها ، كما يكثر الخلاف في الفرق بينها وبين لفظتي ثقافة ومدنية ٠ ويرتبط هذا الموضوع بالضرورة بالحديث عن بدايات الحضارة أي نشوئها ، فأن تعيين الشكل يساعد على تعيين البداية ٠

ومع اقراري بتشابك الآراء واختلافها ، ولكني أجد ميلا الى ترجيح آراء بعض كبار علماء الاثار والتاريخ القديم ، ومنهم هنري فرانكفورت الذي خصص كتابه « فجر الحضارة في الشرق الادنى » للحديث عن هذا

الموضوع ، وكذلك صموئيل نوح كريمر عالم السومريات المشهور ، الذي ناقش هذا الموضوع في كتابه « السومريون » ، وكذلك عالم الاثار البريطاني جوردن جايلد في كتابه « ماذا حدث في التاريخ » ، حيث ستتكرر الاشارة والاقتباسات من دراساتهم آنفة الذكر في مستقبل الحديث عن هذه الفقرة ·

أن تطرقي لهذا الموضوع الشائك لم يكن رغبة لسبر غوره أو تقديم المبررات لقبول هذا التفسير أو ذاك ، وانما يمثل موقفا محددا من الاراء المطروحة ، يكون اعتماده ضروريا لبدء الحديث عن الحضارة · وحتى تكون الطروحات المعروضة على الصفحات المقبلة واضحة للقارىء بصرف النظر عن الاختلافات غير المحسومة بشأن موضوع الحضارة ·

وقياسا على آراء الباحثين الثلاثة وغيرهم فأن منتصف الالف الرابع ق·م· يمثل البدايات الاولى أو الخطوات التمهيدية على درب الحضارة العراقية القديمة ، وانهم يجمعون على كون هذا البناء المتكامل والمنسجم المتمثل بالحضارة لم يظهر فجأة · وانما ولد عبر مخاض طويل وعسير يمثله العصر الحجري الحديث ، ومن خلال أبرز التحولات الاقتصادية في هذا العصر ، تمثله الثورة الزراعية ·

« اذن كانت ( الثورة ) الزراعية عاملا حاسما في تطوير حياة الانسان وكانت حدا فاصلا بين نمطين مختلفين من أساليب معيشة الانسان يعرف الاول الذي سبق الزراعة بنمط أو اسلوب جمع القوت بينما يعرف الثاني الذي أعقب الزراعة بأسلوب انتاج القوت · على أنه لابد من الاشارة هنا الى أن هذه ( الثورة ) والمتغيرات التي رافقتها لم تشمل العالم المأهول في ذلك الوقت بأكمله ، واقتصرت آثارها في بادىء الامر على مناطق

محدودة من الشرق الادنى القديم ، وكانت المناطق الشرقية والشمالية الشرقيه من العراق من أولى المناطق التي شهدت تلك الثورة وما أدت اليه من تحول الانسان من حياة جمع القوت الى حياة انتاج القوت أو لنقل من عصر التوحش الى عصر البربرية ، وما نتج عن ذلك من استقرار وظهور المجتمعات القروية الزراعية »(٥) ٠

أن المهم جدا في هـذا الرأي أنه يحصر بدايات الحضارة بالعصر الحجري الحديث ومتغيراته الرئيسية ، كما يضع العراق في أوائل الاقطار التي شهدت هذه البدايات ٠

و « كانت الكتابة ( ثورة ) ثانية بعد الزراعة في حياة الانسان وعاملا حاسما نقل الانسان من حياة البربريه الى حياة التمدن ، ومن حياة القرى الصغيرة والمجتمعات الضيقة الى حياة المدن الواسعة والمجتمعات الكبيرة ٠

واعتبرت الكتابة حدا فاصلا بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية وكانت القوة الدافعة العنيفة التي أطلقت الانسان في طريق النمو والازدهار والتقنية »(٦) ٠

وهكذا يكون واضحا تحديد الحضارة ، فبعد أن اعتبر العصر الحجري الجديث بدايات الحضارة ، فأن اختراع الكتابة تعد الخطوة الاساس التي نقلت الانسان الى حياة التمدن أو التحضر ٠

« وقد ثبت بشكل لا يترك مجالا للشك بأن الكتابة اخترعت واستخدمت لاول مرة في تاريخ الانسان في القسم الجنوبي من العراق ( أي في بلاد سومر ) وكان ذلك في الثلث الاخير من الالف الرابع ق٠م٠ ،

ومن هذه البقعة انتشرت الى بقية أنحاء الشرق القديم ، أو كانت عاملا في الايحاء على الاقل الى الشعوب الاخرى لتطوير كتابات خاصة بها »(٧) ٠

فاذا كان اختراع الكتابة بهـذا القـدر من الاهمية والخطورة على تحضر بني البشر ، ويكون الفضل والريادة في هذا الجانب للعراق بدون منازع ، فأن السؤال الذي يفرض نفسه بقوة يتوجه للبحث عن العلاقـة بين الكتابة والتحضر ٠

في عام ١٩٥٦ نشر صموئيل نوح كريمر كتابه « من ألواح سومر » ثم نقحه وأعاد طبعه وترجم الى لغات عديدة تحت عنوان « التاريخ يبـدأ من سومر » ٠ والكتاب يجتمع على خمس وعشرين مقالة تهدف الى تأكيد حقيقة مهمة ، فهي عندما تتحدث عن « أوائل » ما هـو مدون في تاريخ الانسان وحضارته ، فأن كريمر يريد أن يقول من خلال هذه المقالات بأن « التاريخ يبدأ في سومر » ٠

ويضيف كريمر في توطئته لمؤلفه الشهير « من ألواح سومر » أن هذا الكتاب يتألف من خمسة وعشرين موضوعا ينظمها جميعا عقد واحد مشترك ، وأنها جميعها تخبرنا عن « الاوائل » ( أوائل الاشياء واصولها ) في تاريخ الانسان المدون ، وعلى هذا فأن أهميتها ليست بالقليلة في تاريخ الآراء وفي درس اصول الحضارة ٠ ولكن هذا ما هو الا نتاج ثانوي عرضي والهدف الاصلي لهذه المقالات هو تقديم صورة واضحة لما حققته مدنية من أقدم مدنيات الانسان وأكثرها ابداعا وخلقا وذلك من الناحيتين الروحية والثقافية »(٨) ٠

ولا أدل على أهمية هذا العمل في حياة المؤلف وانجازاته العلمية على كثرتها أنه يقول عنـه « ان القسم الاكبر من المـادة العلمية التي جمعت

وعرضت في هذا الكتاب ممزوجة بـ « دمي وكدي ودموعي وعرقي »(٩) ٠٠

لنعرج الان على الموضوعات التي قدمها كريمر في كتابه لنتعرف على ماهيتها واهميتها في تاريخ الانسان وفكره وحياته ، وهل ترقى الى المستوى الرفيع الذي وضعها كريمر فيه ، فنجد أن أول الموضوعات يتطـرق الى التربيه والتعليم والمدارس الاولى في تاريخ بني الانسان ، حيث نكتشف من ثنايا العرض بأن هذه الحالة المتقدمه في تاريخ الفكر الانساني شهدت تطبيقا عمليا لاول مرة بحدود عام ٢٥٠٠ ق٠م٠(١٠) وأنها بلغت مرحلة النضج والازدهار مع أواخر الالف الثالث ق٠م٠(١١) ٠ وليست أهميـه المدرسة أو أي نظم للتربية والتعليم في الادارة او القوانين أو المناهج أو الموضوعات وما الى ذلك من أمور ، على قدر ومبلغ أهميتها ، الا أنها لا ترقى الى مستوى أهمية « الكلمة ، الفكرة » المدونة وانتقالها عن طريق التعليم من جيل الى آخر ٠

ان التربية والتعليم خاصـية إنسـانية فقط ، حيث نقف التربية الحيوانية عند حدود التقليد فقط ، بينما يتجاوز الانسان طريقة التقليد الخطرة الى التلقين الذي يتم بفضل اللغة(١٢) ٠ فاللغة هي الوسيلة لنقل تراث الاختبار الاجتماعي ، وبواسطتها يمكن جمع الاختبار ونقله ٠ ولكن التجريب يستمر خاضعا الى احتمالات الخطأ والنجاح ، ويبقى التخريب أيضا أسـير التفاعل بين الانسان وبين العـالم الخارجي ، لذلك يوصف استعمال العقل بأنه المقدرة على حل المشاكل بدون القيام بعملية التجريب والخطأ الفعلية(١٣) ٠

ولاجل قيـام العقل بعمله الكامل لابد من الاعتمـاد على « رموز » الاشياء وليس بواسطة الاشياء والاعمال نفسها ويعني ذلك أيضا امكانية

تحقق التجربة عن طريق رموزها « في الرأس » بدلا من العالم الخارجي ، وعندها تبرز أهمية الكلمة التي تجسد الرمز ، فالكلمات عبارة عن مصطلحات ترمز الى أشياء مختلفة ، ولا يمكن للكلمات الرامزة ان تنتقل الا من خلال الكتابة ، ومن هنا تبرز الاهمية البالغة لاختراع الكتابة واستخدامها في حضارة العراق القديم ·

وهكذا أصبحت « الكلمة – الفكرة » بفضل التربية والتعليم التي وضعت أسسهما في العراق القديم ، قادرة على رفد التجربة الانسانية بمصادر النمو والتقدم ، وهيأت لها أسباب التطور والازدهار · ان جميع العلوم والمعارف والآداب الانسانية وقواعد السلوك والاخلاق والقوانين والتنظيمات ومبادئ العلاقات ، لم تستطع بنوغ ما حققته من ذرى الا بفضل الاستفادة من الكلمة المدونة أي الخزين لمجموع الافكار والتجارب الانسانية في المجالات الحياتية المختلفة ·

لم تكن الكتابة وما يلتحق بها من مدونات في مجالات مختلفة حدث عرضي حققته الصدفة ، وانما كانت نتيجة حتمية لمجموعة من الشروط الاقتصادية والاجتماعية والفكرية نتلمس آثارها في بقايا المخلفات المادية أو المدونات القديمة · ففي الفصل الثاني من كتاب ألواح سومر سالف الذكر ، يعرف المؤلف لاول حالة في التملق ، وهي تكشف بالضرورة عن مواقف فكرية تسببها عادة ظروف اقتصادية واجتماعية · وبذلك فان التطورات الاقتصادية وافرازات الواقع السياسي والاجتماعي أملت على الناس مواقف فكرية معينة ، وتطلبت في بعض الاحيان اجراءات عملية أو مرونة التحرك ·

وقد يظن البعض بأن هذه الافكار المتقدمة والاحاسيس المرهفة لم

تكن حالات عامة وانما اقتصرت على قلة من المفكرين أو العباقرة ، بخاصه وأنها صدرت عن اناس يتفننون الكتابة ، ولان الكتابة وشؤونها كانت حكرا على عدد محدود من أفراد المجتمع · ومع سلامة هذا التوقع ، ولكن الشواهد الكثيرة على الخبرات المتطورة والافكار الثاقبة في مجالات مختلفه ، تدفع للاعتقاد بأن التطور الفكري وما يتبعه من أحاسيس ومواقف كانت أطارا كبيرا يضم كل الناس في صورة تختلف في وضوح تفاصيلهـا من مكان لآخر · فاول حرب للاعصاب ، وهو موضوع الفصل الثالث من الكتاب ، يبحث في تفاصيل العلاقات الدولية ، ويكشف النص عن حذاقة في العمل الدبلوماسي دفع الى أرجحية في العلاقة بين دولتين سببت في ثراء أحداهما على حساب الاخرى دونما حاجة الى حرب أو اقتتال وتحمل مشتاقها ، فكانت الحرب النفسية التي تعد من أفتك الاسلحة المعاصرة ، أو حرب الاعصاب ، وسيلة اعتمدها قادة مدينة الوركاء ضد عدوتهم مدينة « أراتا »(١٣) ·

أما موضوع الفصل الرابع والذي يقدم صورة الديمقراطية في أقدم ممارساتها ، ويؤكد صيانة حقوق المواطنين فهو دليل قوي على انخراط أعداد كبيرة من أبناء المجتمع العراقي القديم في عملية البناء الفكري وتطورها ، دون أن ننكر أهمية بعض العقول النيرة والقدرات الكبيرة في تميز بعض المفكرين ·

ففي حدود القرن الخامس والعشرين ق·م· كان لمدينة الوركاء مجلسان يتدارسان شؤون البلاد وخطط تقدمها والمشاكل التي تعترض مسيرتها · يتكون أحد المجلسين من الشيوخ وهو بمثابة برلمانات الشيوخ في بعض دول العصر الراهن ، والاخر مجلس العامة أو مجلس النواب ،

ويتألف من الرجال القادرين على حمل السلاح • ويبدو من سياق القضية التي طرحت على مجلس المدينه ، أن مجلس الشيوخ كان يدرس القضايا اولا ويصوت عليها ثم يرفع الى مجلس المحاربين أو النواب • ومما تجدر الاشارة اليــه أن الموضوع الذي يعرضــه النص يتعلق بتدارس تهــديد تعرضت له مدينة الوركاء ، فلم يذعن أهلها وهبوا للقتال والدفاع عــن الارض والسيادة ، وعنــدما تخــاذل المسنون الشيوخ ، صــوت مجلس المحاربين الى جانب الحرب ووقف الى جانب الملك الذي اعترض بدوره على رأي مجلس الشيوخ الضعيف(١٤) •

وهكذا يكشف لنا هذا النص المهم عن أولى البرلمانات في تاريخ بني البشر ، وانها لم تنعقد في اثينا أوروما وانما في جزء من قارة اسيا وعلى أرض شهدت أقــدم الحضارات الانسانية في الشــرق الادنى ، في سومر جنوبي العراق • ولم يكون هذا البرلمان حالة استثنائية منقطعة ، بل اقترن بتطور النظم السياسية والادارية والاقتصادية ، وكان من صورها خضوع معظم المعاملات المدنية والاقتصادية والتجارية الى تسجيلات قانونية بهيئة عقود بيع وشراء وقرض وايجار وما الى ذلك • كمــا شهد القــرن الرابع والعشرين ق•م• ظهور أقدم واول محاولة في التشريع واصدار القوانين في تاريخ بني البشــر وذلك في محاولة الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي التي أقدم عليها الامير أوروكاجينا حاكم مدينــة لجش(١٥) • وعلى الرغم من كون قرارات أوروكاجينا لا ترقى الى مستوى القوانين التي عرفها العراق القديم فيما بعد وبخاصة قانون حمورابي ، ولكن بسبب تعرض اصلاحات أوروكاجينا لامور اقتصادية واجتماعية ، وكونها صادرة عن الملك ، وأنها تحدد العقوبات في حالة الاخلال بهذه التعليمات والاوامر ، وأخيرا لان معظم

الباحثين في تاريخ القانون يدرجون أعمال أوروكاجينا في المقام الاول رغم النواقص التي تلازمها ، لذلك تطرقنا اليها أيضا عند بدء الحديث عن النظم والتشريع(١٦) ٠

وهكذا فأن التنظيم في مجالات الحياة كافة ، وتثبيت الحقوق والواجبات ، ومنع التجاوز والاعتداءات ، ومنح حرية الرأي والمساهمة في وضع القرارات ، وغير ذلك من أمور تتوفر في المجتمعات الديمقراطية ، كانت حالات مألوفة في مجتمع بلاد وادي الرافدين القديم ٠

وتم التأكد من المبادىء التي عرضنا لها من ترجمات النصوص المسمارية ، وبخاصة ذلك النص الذي يعرض لاول سابقة قانونية فيما له علاقة بتطبيق العدالة واشاعة الامن والإستقرار وتثبيت الحقوق والواجبات والاقتصاص من المتجاوزين ٠ يعرض النص المشار اليه لمحاكمة بعض المتهمين بجريمة قتل أحد المواطنين ، كما اتهمت زوجة المجني عليه بالتستر على القتلة ، ولكن يد العدالة ويقظة المسؤولين طالت المذنبين ، فأحيلت القضية الى محكمة في مدينة نفر ٠ وشهدت المحكمة أثناء انعقادها توصيات قرأها البعض لادانة المتهمين ، فهم في ذلك يشبهون الادعاء العام ٠ ونقرأ في الوثيقة القديمة عن محاولة رجلين لتبرئة ساحة الزوجة ، وهما في ذلك يقومان بعمل محام الدفاع ٠ ومن الامور التي تلفت الانتباه في سير المرافعة أن المحكمة اقتنعت بوجهة نظر الدفاع التي ترى بأن المرأة لم تشترك بالقتل فعلا ، وكان عندها من الاسباب المنطقية التي منعتها من اخبار السلطات بمقتل زوجها ، فأتخذ أعضاء المحكمة قرارا يقول « أن العقوبة ينبغي الا تشمل سوى القتلة الفاعلين »(١٧) ٠

وكانت المحاكم العراقية القديمة تستمد أحكام قراراتها من العادات

والتقاليد السائدة ، اضافة الى استفادتها من السوابق القضائية ، حيث جرت العادة أن المحاكم كانت تسجل وتحفظ الاحكام الصادرة عنها ، فيتم الرجوع اليها عند الحاجة للاسترشاد بها • وكان يجلس لتدارس القضايا في المحاكم عدد من الرجال ، بلغ في حالة القضية المعروضة في أعلاه ، تسعة رجال ، وكان العدد الكبير من الحكام والمحلفين يدفع لتفحص القضايا بروية واستذكار جميع الشروط التي تبيح أو تفيد القرار المنوي اتخاذه •

ومع هذا كله فأن العراقيين عرفوا القوانين المدونة مع أواخر الالف الثالث ق•م• ، وكانت أقدم نماذجه في بقايا قانون الملك أورنمو مؤسس سلالة أور الثالثة (٢١١٣ ـ ٢٠٩٦ ق•م•)(١٨) •

وقد يذهب البعض في تعليل هذه الظواهر المتقدمة في تاريخ الحضارة العراقية القديمة ، بأنها نزوع فكري قد نجد له مثيلا عند كثير من الشعوب القديمة ، وانما الذي يميز العراقيين عن غيرهم هو موضوع التدوين فحسب الذي أبقى على تراثهم خالدا عبر الزمن •••

ومع اقرارنا بتألق الفكر الانساني في كثير من بقاع الدنيا ولكن حضارة العراق القديم تتميز عن غيرها من الحضارات مثلما تتميز تجربة العراقيين عن غيرها من تجارب الشعوب بسمات أساسية ثلاث هي : القدم والريادة أولا • والمواصلة أو الحركية ثانيا والشمولية ثالثا •

فقد سبق ان عرضنا لمواقع بعض عناصر الحضارة في سجل الزمن وهي تكشف بوضوح عن أسبقيتها لمعظم تجارب الشعوب القديمة • أما سمة المواصلة أو الحركية فهي سمة الحضارات الاصيلة التي تنجح في التفاعل مع المستجدات والمتغيرات وتزيد من عمق جذورها وترسم معالم التطور والتقدم • وعندما نمعن النظر ونتابع بالتحليل أحد العناصر

الحضارية في العراق القديم ، نكتشف بوضوح ازدياد التجربة العراقية عنى وتقدما ، وعلى الرغم من قدم بعض العناصر لعدة آلاف من السنين ، ولكنهــا تستمر فاعلة ومتفاعلة مع غيرها من عناصر الحضارة في صيرورة نهائية تهدف الى دفع عجلة التقدم نحو الامام • ومن أوضــح الامثلة على ذلك الديانة والمعتقدات والمراسيم والشعائر والمعابد والكهنة وما يرتبط بهذه الامور من تفاصيل الحياة اليومية للعراقيين القــدماء • فأننــا نرى بوضوح رسوخ المبادىء الاساسية للفكر الديني العراقي القديم ، وأنــه شهد متغيرات كثيرة على مر العصور ، وبخاصة فيما يتعلق بمواقع الآلهة ودورها في حيــاة الناس والملوك والدول ، ولكــن ذلك لم ينسحب بآثار سلبية ، انما تمت مفاعلة الافكار بصورة لا تشعر القارىء والمتتبع لجوانب الديانة والمعتقدات في العراق القديم بأي وقع سلبي لها على مجمل شروط الحيــاة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية • وبلغ من أمــر بعض المتغيرات أن كتبة العهــد البابلي القديم جعلوا من الاله مردوخ اله بابل الرئيس بطلا لكثير من الاساطير والقصص الدينية بدلا عن الاله أنليل ، وذلك عندما أعادوا كتابة هذه النصوص أو استنساخها(١٩) • كمــا أن مبــدأ الشرك الذي تتصف بــه الديانة العراقية القديمة ، يوحي بتهيئة أسباب الخلاف والتنابذ بين عبدة هذا الاله وذاك أو بين الكهنــة أو بين المدن ، ولكن الامر الواقع أننا لا نستشعر أي خلاف من هذا النوع في كل السجلات القديمة المتوفرة • وفي حالة تقديرنا بشكل دقيق لموقع الديانة في نفوس وحياة الشعوب القديمة ، نقدر عاليا هذا النجاح الرائع الذي حققه العراقيون في مجال الوحدة الفكرية التي تشكل غالبا أساسا راسخا لاشكال التوحد في مجالات الحياة الاخرى •

أما الحديث عن الشمولية ، فأنه يبرز واضحا وقويا عند إستعراض العناصر الحضارية المختلفة لبلاد وادي الرافدين ، فلم تكن الجوانب الفكرية التي عرضنا لها سمات متقدمة فحسب ، بل برز العراقيون في مجالات العلوم والمعارف ، وتشكل قضايا الامراض ومعالجتها وتهيئة الدواء لها من أولى المهمات التي تعالجها الحضارات المتقدمة ، فليس غريبا أن تترسخ شهرة بابل في أذهان اليونان في مجالي الطب والفلك ، ومرجعه اهتمام العراقيين بهذا الضرب من المعارف منذ زمن مبكر • وقد تعدى اهتمامهم موضوع المعالجات الى تسجيل التجربة الطبية لتكون دليلا للاجيال اللاحقة ، كما أصبحت هذه السجلات نقاط ارتكاز لمعرفة مضافة فيما بعد •

فمن أواخر الالف الثالث ق٠م٠ دون طبيب عراقي قديم وصفات دواء لبعض الامراض ، وبذلك ، قدم أول وأقدم كتاب موجز في الطب(١٩) • ومما تجدر الاشارة اليه ان الادوية التي ذكرها هذا الطبيب العراقي جاءت على شكلين ، نوع منها يستخدم على شكل مراهم ، والاخر بصورة مقطرات، وبالتالي يكون استعمالها خارجيا وداخليا •

أما الزراعة ، عماد الاقتصاد العراقي القديم ، فقد شغلت اهتمام العراقيين كثيرا ، وتركوا لنا مدونات مختلفة تعالج الجوانب التفصيلية التي تخص الزراعة والنباتات والاعمال المتعلقة بهما • ويعد النص الذي نشره كريمر بعنوان « أول تقويم زراعي »(٢٠) واحدا من أقدمها ، ويكشف لنا هذا النص بوضوح خبرة عراقية عميقة في التعامل مع الارض والماء بغية توفير أفضل الشروط لموسم زراعي جيد وانتاج وفير • ولعل من أبرز الامور التي تلفت الانتباه في هذا الدليل الزراعي التأكيد على مواعيد الري

التي يحتاجها النبات ، وأن تقديم أو تاخير موعدها يضر بالناتج مثلما تترك أية زيادة أو نقصان مثل ذلك الاثر · كما يوصي الدليل ايضا بان يراقب الفلاح عند عملية البذار نفاذ البذور في أخاديد الحرث بعمق اصبعين ، وبعكسه فعلى الفلاح أن يبدل سكة المحراث ليوفر العمق اللازم لنفاذ البذور ·

من الطبيعي جدا ان يكون لحضارة مثل الحضارة العراقية القديمة ، التي ارتقت مستويات متقدمة في المجالات الفكرية والتنظيمية والاقتصادية والعلمية ، خيالها الواسع ، الذي يعكس في كثير من جوانبه عن طموحات هذه الحضارة وتطلعاتها المستقبلية · كما يكون طبيعيا ان تمتلك مثل هذه الحضارة لغة ثرية ، قوية التعبير ، غزيرة المفردات ، لذلك يكون محتما في مثل هذه الظروف أن يزدهر الادب ·

وعندما يكون الحديث عن أدب بلاد وادي الرافدين ، يشعر الباحث أو المؤرخ بالعجز عن ايصاله للقراء ، أو بالاحرى هذا ما أحس به شخصيا كما دنوت من هذا المحيط الزاخر ، عميق الغور ، شاسع المسافات ، المندفق بالحيوية والحركة ، لذلك سأنتقل بين العناوين ورموز الموضوعات التي طرقهـا أدب بلاد وادي الرافدين تاركا للقارىء فرصة التمتع والنشوة والانشراح والتالق والتفكر والتأمل وما الى ذلك من انفعالات روحية ونفسية وعقلية تبعثها القراءة المباشرة لنصوص الادب العراقي القديم(٣١) ·

تتباين الموضوعات التي طرقها الادب العراقي القديم لتحتل مساحات كبيرة من مجالات العقل والخيال الانساني ، فتارة تناقش أعمق الافكار التأملية في صيغ تقرب من الطروحات الفلسفية ، كالحديث عن أصل الكون والبشر والاشياء ومبدأ الحياة ، وعلاقة الكائنات الحية بغيرها ، وتعرض

تارة أخرى للادب الوجداني في صيغة أغاني الحب الغزل .

ويغلب على معظم القطع الادبية السرد الاسطوري ، أو شكل القصص الدينية ، حيث يختلط الواقع بالخيال ، فيلعب بعض الالهـة أو الابطال الخارقين دورا بارزا في أحداثها . كمـا تنسحب عـن موضوعة القصص الدينية بعض القطع من أدب الملاحـم ، فتعرض لجانب من تاريخ الامـة ورجالاتها العظام .

ويبقى المحور الاساس لمعظم الموضوعات الادبية هو الانسان ، وعليه فأن بعض القطع الادبية تعالج المثـل العليا في الاخلاق وتتطرق أخرى الى الحكمة والامثال والاقوال المأثورة ، وهي في ذلك تعكس بوضوح خلاصة التجربة الانسانية التي يراد لها أن تكون مسلكا لبناء الحياة .

وتستحوذ موضوعة الحيـاة والموت على جانب كبـير من اهتمامات الادب العراقي القديم ، فما هـو مآل الانسان بعد الموت ؟ وهل يستطيع الانسان الخلود ؟ وما هو ثواب الناس الاخيار الصالحين ، وما جزاء الاشرار والمفسدين ؟ وأخيرا ، ما هو هدف الحياة الانسانية اذا كان الموت والفناء المطلق حتف البشرية المحقق ؟ أن هذه الاسألة وغيرها كثير كانت ولا تزال تشغل الفكر الانساني . ولهذا انصرفت ملحمة جلجامش في جانب رئيس منها لمعالجة هـذا الموضوع ، مثلما ذهب لمعالجته عـدد آخـر من القطـع الادبية(٢٢) .

ومع التشوش الفكري الذي يحيط بمعتقدات العراقيين القدماء فيما يتعلق بحياة ما بعد الموت ، ولكن بعض الخيوط الدقيقة تشكل لحمة نسيج واهن لتصورات معينة عن حياة ما بعد الموت ، يبرز جانب منهـا في ربط الحياة الدنيوية بحياة الانسان الاخروية ، مثلما تحدد موقفا أكثر وضوحا

بخصوص خلود الانسان من خلال أعماله وذريته أو بمعنى آخـر ، فان ذكرى الانسان هي أبرز أسباب الخلود « والذكر للانسان عمر ثان »(٢٣)٠

تنقلنا في الصفحات السابقة بين مجموعة من عناصر الحضارة العراقية القديمة ، حيث يقف كل عنصر منها بحد ذاته شامخا يعكس تجربة غنية تكشف عن مستويات متقدمة ٠ ويؤيد ذلك قول الاستاذ المرحوم طه باقر في تقييمه لادب العراق القديم « ولعلني لا أبالغ اذا قلت أنــه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين ، من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هــذه الملحمــة لكانت جــديرة بأن تبوأ تلك الحضارة مكانة ســامية بين الحضارات العالمية القديمة »(٢٤) ٠

ومـمــا يزيدنا اعجابا واحتراما لجهود أجدادنا العراقيين في مضامير الحياة والفكر كافة ، أن تجاربهم الغنية سبقت تجارب كل الامم القديمة ، وكانت في كثير من الاحيان بدايات الطريق لمسيرة شعوب مختلفة ، لذلك لم تكن حضارة العراق القديم ذاتية مغلقة وانما شكلت منارا غمر بشعاعه حياة وتجربة كثير من شعوب الشرق الادنى القديم ٠

أن جذوة الفكر المتقدة وعبقرية الخطوات وأصالتها وأسبقيتها دفعت بالعالم كريمر لتغيير عنوان كتابه في طبعته الثانية فجعله « التاريخ يبدأ في سومر » ، كما يقرر ذلك هنري فرانكفورت بقوله « لان ظهور الحضارة في مصر وفي ما بين النهرين يمكن اعتباره وبحق ، مولدا للحضارة بوجه عام ٠ نعم ان الانتقال من الاحوال البدائية الى الاحوال المتمدنة قد حصل أكثر من مرة في التاريخ ، ولكن هذا الانتقال وهذا الدافع أو الحافز له كان نتيجة الاحتكاك والاتصال بشعوب غريبة متمدنة » ٠ « لكننا لانستطيع أن نعلل انبثاق المجتمعات المتحضرة في مصر وما بين النهرين على أساس

شدة تفاعله مع مراكز الحضارات ومناطق استيطان الشعوب المجاورة • وقد دفعت الى بلورة هذه الحقيقة في تاريخ العراقيين القدماء بعض الاحتكاك والاتصال بالخارج ، اذ أن هاتين الميلادين كانتا الاوليتين اللتين ارتفعتا فوق المتوى العام من الوجود البدائي »(٢٥) •

## طرق الانتقال :

من بين أبرز الحقائق التي يكتشفها المتتبع لتاريخ العراق القديم الخصائص الطبيعية اضافة قدرات العراقيين الذاتية • فقد كان افتقار الارض العراقية للمعادن والاخشاب والحجارة ، سببا بارزا دفع بالعراقيين للسعي بالوسائل المختلفة لاجل توفير هذه المواد • كما دفع توفر هذه المواد في مناشيء مختلفة لاتساع دائرة الاحتكاك والتفاعل والمتاجرة ••

ومما ساعد على حرية الحركة والاتصال انعدام المعوقات الطبيعية الصعبة في حدود العراق الغربية والجنوبية ، اضافة الى توفر منافذ الطبيعة للاتصالات في الاقسام الحدودية الاخرى ، وبخاصة عند الاطراف الشرقية والشمالية الشرقية •

لقد تهيأت على أرض العراق طرق مواصلات طبيعية خدمت حركة النقل بين أقسام العراق المختلفة ، كما وصلت الى بعض المناطق المجاورة ، وتتمثل هذه الطرق في النهرين وفروعهما وروافدهما وفي شبكة القنوات والانهر التي حفرها العراقيون لاغراض الري ، فخدمت شؤون المواصلات أيضا • لذلك ، وأقام مجموعة الشروط والعوامل المشجعة هذه لم يكن غريبا اكتشاف مواد تعكس صلات تجارية ومبادلات مع الخارج ترجع الى عصور مبكرة جدا تسبق العصور التاريخية(٢٦) •

واذا ما اعتبرنا مجموعة العوامل والشروط سالفة الذكر عاملا واحدا دفع باتجاه تشجيع الاتصالات العراقية مع الخارج ، فأننا نتلمس عاملا آخرا لا يقل خطورة عن سابقه يتمثل فيما تكشفه لنا السجلات الاثرية لبقايا الانشطة العراقية المختلفة ، فهي تؤكد تطور مستوى الوعي بجوانب الحياة المادية والفكرية ومنذ فترات مبكرة من تاريخ البشرية · وعليه ، فأن النقص الذي اشرنا اليه في بعض المواد الاولية لا يرقى الى أهمية الوعي بهذا النقص والعمل على تلافيه · وهذا ما يفسر لنا ايجابية العراقيين مع النشاطات المبكرة في ميادين المبادلات السلعية والتجارة ، حيث ان الادلة المتوفرة تعكس مبادرات عراقية للاحتكاك والتفاعل وتناقل المواد والسلع المختلفة ، والتي انسحب تأثيرها بالضرورة الى تفاعلات في جوانب الفكر ومعطيات الحياة الاخرى المختلفة ، وذلك هو الوجه الاخر من وجهي الاتصالات التجارية بين الشعوب ، حيث تبرز أهمية التفاعل في جوانب الحياة والخبرات والتجارب والافكار ، بمستوى لا يقل عن فعل وأهمية تبادل السلع والمواد التجارية ·

وفي ضوء هذه الحقائق عن تجربة العراقيين المبكرة ، نتهيأ لاكتشاف مناطق الاتصالات وطرقها وأساليبها ·

من الطبيعي جدا أن تحتل الاقسام الجبلية الى الشمال والشمال الشرقي من العراق اهتماما كبيرا من قبل العراقيين لكونها مواطن الانسان الاولى قبل اكتشاف الزراعة ، ولانها أيضا مناطق وفيرة الخيرات من محاصيل نباتية وأشجار باسقة قوية الاخشاب وحجارة صلبة وحيوانات متميزة ، وغير ذلك من مواد ومنتجات لا يجد العراقي نظيرا لها في بيئة وديان الانهار والسهول الرسوبية لجنوبي العراق ·

كما تحتل هذه الاقسام من الطرق أهمية استثنائية ، لانها تكشف عن منافذ وممرات توصل الى أعماق المناطق التي تقع خلفها ، بكل ما تكتنزه من ثروات واقوام وتجارب ، وبخاصة في بلادي ايران والاناضول ٠ وعليه فأن حديثنا المقبل سينصب حول تعيين مسار الاتصالات وأشكالها وطرقها ووسائلها ، وهي الشرط الثاني الذي يجب تحققه لعملية الانتقال الحضاري بين بلدين وشعبين ٠

تنتقل العلاقة بين السهل والجبل في العراق عبر منطقة اتصال طبيعية تتحول فيها الخصائص الجغرافية تدريجيا من أراض سهلية فسيحة مكشوفة حارة وجافة وقليلة الامطار الى أراض جبلية مختلفة الوعورة والارتفاع ، باردة ورطبة وكثيرة الامطار ٠ ومن الطبيعي أن يتبع هذه الشروط الجغرافية بيئات نباتية وحيوانية مختلفة ، ولا يزال العراقيون يعيشون هذا الواقع ويتعاملون معه ايجابيا باتجاه خلق أسس الاستفادة الكاملة من الخصائص والمعطيات المتباينة للمنطقتين ٠ ولهذا السبب أيضا قامت مراكز حضرية رئيسية عند حدود الالتقاء بين هاتين المنطقتين ، كانت وما زالت من مدن العراق الرئيسية ، ومنها الموصل وأربيل وكركوك ٠ وتقوم مدينة الموصل على أطلال مدينة نينوى الاشورية ، ويؤكد الاثاريون أن نينوى تعد واحدة من مراكز سكنى الانسان المبكرة ٠ وترجع دلائل أثار الاستيطان فيها الى الالف الخامسة ق٠م٠(٢٧) أما أربيل وكركوك ، فأن قلعتيهما تؤشران بوضوح قدم السكنى في هاتين المدينتين ، حيث أن التلين الاصطناعيين تكونا بفعل استمرار السكنى فيهما لآلاف السنين(٢٨) ٠

ومن الملاحظات الهامة بخصوص هذه المدن أنها تفضي الى مجموعة

من المسالك الطبيعية التي تمتد بين السلاسل الجبلية وتعبرها الى ما يليها من مناطق(٢٩) . لذلك لم تكن العلاقة بين الجبل والسهل علاقة طارئة وانما نشأت مع خطوات الانسان الاولى صوب الاستقرار والزراعة وقيام القرى ، كما أنها تطورت واتسعت مع تقدم العراقيين في العهود الحضارية .

وحتى نتأكد من كون العلاقة بين العراقيين وبين هذه المناطق لم تنحصر في حدود الطبيعة ومعطياتها ، وانما مع الناس الذين كانوا يعيشون في أقسامها المختلفه ، نشير الى العلامة التي اعتمدها العراقيون للدلالة على العبيد والامة في كتابتهم المسمارية ، فالعلامة في أصلها الصوري بالنسبة للعبد تتألف من علامتين ، فعلامة الذكر دلالة على الرجل ، تقرن بعلامة الجبل لتدلان سوية على تسمية العبد . ومثل ذلك بالنسبة للأماء ، حيث بقيت علامة الجبل وقرنت معها العلامة الدالة على الانثى(٣٠) . ومما تجدر الاشارة اليه أن هاتين العلامتين هما من العلامات الصورية الاولى ويرجع زمنها لحدود منتصف الالف الرابع ق.م. وسواء تمت عملية استيراد العبيد سلماً أو حربا ، فأنها استلزمت بالضرورة احتكاكا واسعا بين سكان المنطقتين ، ومعرفة دقيقة بخصائصها وأقسامها ومسالكها .

ومن الدلائل الاخرى على العلاقة مع المناطق الجبلية ، وبخصة مع أعماقها المتوغلة شرقا ، ما ترويه علينا قصيدة سومرية تتحدث عن أعمال البطالة يرجع تاريخ أحداثها الى مطلع الالف الثالثة ق.م. ، تعرف تحت عنوان « أينمر كاروسيد أرتا » ، وقد أشرنا اليها فيما سبق عند الحديث عن حرب الاعصاب والتعامل مع مقومات التأثير النفسي في الحرب(٣١) .

ومهما يكن من أمر هذه القصيدة وأحداثها ، فالمهم منها والذي

يتعلق بسياقات هذا البحث ، أن هذه القصيدة تتحدث عن مجابهة كادت أن تقع بين مدينة الوركاء وزعيمها أينمركار وبين زعيم مدينة أرتا ، وتبعد مدينة أرتا عن مدينة الوركاء ، كما يرد تفصيل ذلك في النص ، سبع سلاسل من الجبال ، وهي فوق قمة جبل شاهق يصعب ادراكها وبلوغها. وهي مدينة مزدهرة غنية بالمعادن والاحجار ، وهي المواد التي تفتقر اليها منطقة الوركاء والاقسام القريبة منها(٣٢) .

ويحدد النص وقوع هذه السلاسل الجبلية الى الشرق من مدينة الوركاء ، حيث نفهم في ضوء ذلك أنها من مجموعة سلاسل جبال زاكروس التي تفصل ما بين العراق وايران ، وانها كانت موطنا للحجارة والمعادن التي احتاج اليها العراقيون وحصلوا عليها بوسائل مختلفة .

وعند متابعة البيانات العراقية القديمة تجدها تتحدث عن تفاصيل العلاقات بين الحكومات وملوك العراق القديم وبين سكان هذه المناطق ، ومنها مثلا المعلومات التي تركها زعماء الدولة الاكدية ، وأبرزها المعارك التي خاضها الملك نرام سين ، ونرك لنا سجلات ومنحوتات تتحدث عنها(٣٣) .

واطلعتنا معلومات النصوص أيضا على كون سكان هذه المناطق أقواما متخلفة حضاريا تتوزع في شعب الجبال ووديانها الواسعة وأنها استفادت كثيرا من معطيات الحضارة العراقية القديمة ، حتى أن زعيما ببعض قبائلهم المعروفة باسم اللولو صنع مسلة تخلد انتصاره دونها باللغة الأكدية(٣٤) .

ومع بداية الهجوم الكوتي على المدن العراقية واسقاطهم للدولة الاكدية ، أخذت العلاقات بين العراق وبين المناطق الجبلية شرق العراق

تندفع صوب التأزم وكثرة الاصطدامات العسكرية . ولكن حالة العلاقات هذه تؤشر من جانب آخر سبيلا للاتصالات والتفاعل بين المنطقتين . ومع وجود الفارق الحضاري الكبير بين تجربة العراقيين المتقدمة وبين تخلف القبائل المتفرقة في مناطق الجبال شرق العراق ، فقد استمرت اشعاعات الحضارة العراقية تضيء الطريق أمام سكنة المناطق الجبلية هذه . وعن طريقهم أيضا بلغت تأثيرات الحضارة العراقية أبعد المناطق في ايران .

أما الحدود الشرقية لجنوبي العراق ، فهي بسبب تشابه الخصائص الطبيعية والجغرافية لسهول ووديان الانهار دجلة وكرخة وكارون ، وبسبب انتشار الاهوار والمستنقعات ولتماثل درجات الحرارة والرطوبة ونسب سقوط الامطار ، فأنها كانت ولا تزال منطقة طبيعية واحدة يغلب على سكانها التشابه اللغوي والحضاري ، وهي بذلك تمثل طريقا طبيعية وسهلة العبور للاتصالات بين العراق وبين اوسط الغربي وجنوبي ايران ، مثلما تفضي صوب الاقسام النهائية لجبال زاكروس وتوصل بعد ذلك الى الاقسام الشمالية الغربية من ايران . كما تؤدي منطقة العبور هذه في نهاياتها الجنوبية الى مناطق شمالي شبه القارة الهندية .

ومما زاد من أسباب الاتصالات بين هذه المنطقة وبين الاقسام الجنوبية من العراق ، أنهما شهدتا قيام مراكز مدنية مبكرة ، فمنذ مطلع الالف الرابع ق.م. كانت دلائل الاستيطان تشير الى قيام القرى الزراعيه في سوسه ( على مقربة من الشوش ) الكائنة على فرع من نهر الكرخة في منطقة الاحواز ، وكذلك في قرية العبيد في جنوبي العراق . وقد أصبحت القرية الزراعية الاولى في سوسة نواة المدينة الكبيرة التي اصبحت فيما بعد عاصمة للدولة العيلامية ، وواحدة من المراكز الحضرية الهامة في جنوب

غربي آسيا ، وبقيت كذلك لمدة تقرب من ثلاثة آلاف سنة • وشهدت قرية العبيد ، أو جاراتها قرية أور تطورا ملحوظا ، وغدت واحدة من أعظم مراكز الحضارة في المنطقة ، وعصمة للعراق لبعض الوقت ، وبقيت مدينة أور تحتل مكانة دينية وحضارية الى أواخر أيام الحكم الوطني في تاريخ العراق القـديم •

أن الذي يتابع التاريخ السياسي للعراق القديم ، يتلمس بوضوح انعكاس أثر العلاقات المختلفة بين العراقيين القدماء وبين العيلاميين(٢٥) ، وفي ذلك ما يكفي للبرهنة على توفر أسباب الصلات القوية والمستمرة بين الطرفين • وقـد تحقق بالفعل بسبب الشـروط الايجابية للاتصال بين الطرفين ، انتقاء التأثيرات الحضارية العراقية ، ويبرز الخط المسماري في مقدمة وأوضح العناصر الحضارية التي اقتبسها العيلاميون عن حضارة العراق القديم(٦٣) •

أما عن اتصالات العراق بمنطقة الخليج العربي والاقسام الشرقية من الجزيرة العربية ، فأننا نمتلك اليوم وبفضل نتائج التنقيبات الاثرية التي أجرتهـا مجموعة من البعثات العربية والاجنبية ، صورة واضحـة للعلاقات التاريخية القديمة والواسعة التي كانت تربط العـراق بالخليج العربي • وكان للمواصلات المائية الفضل الرئيس في تحقيق ذلك • فقد شجعت الشروط الطبيعية لسواحل الخليج العربي الغربية المتاخمة لارض الجزيرة العربية ، ومن أبرزها عمق المياه المحدود في هذا الجانب وانتشار الجـزر على امتـداد الساحل وكثرة التعاريج والخلجان الطبيعية وتوفر مصادر المياه العذبة في بعض الاماكن على امتداد الساحل الغربي ، وكذلك اتصـال خط الملاحـة الساحلي بالارض العربية دونما معوقات طبيعية ،

اضافة الى توفر حركة رياح سريعة التغيير في اتجاهاتها ، وأخيرا ، اتصال هذا الساحل بمصب نهري دجلة والفرات . فقد اجتمعت هذه العوامل والشروط الايجابيــة لتدفــع بعملية الاتصالات بين الجانبين الى الاتساع والتعمق والاستمرارية(٣٧) .

وكانت القوارب والسفن النهرية التي برع العراقيون في صناعتها واستخدامها على نطاق واسع منذ الالف الرابعة ق.م. ، واسطة النقــل والاتصالات الرئيسية بين الجانبين(٣٨) .

ان الاتصالات العراقية مع الخليج العربي هيأت فرص الاتصال مع الهند . وسواء كانت الاتصالات العراقية الهندية مباشرة أم غير مباشرة ، فأن الخليج العربي وطرق الرحلات الساحلية التي تحدثنا عن شروطها المشجعة ، يمكن استكمالها عن طريق الرحلات البحرية بين خليج عمــان وبين سواحل الهند الغربية ، مستفيدة من حركة الرياح الموسمية المناسبة، وهي الرياح التي بقيت تخدم حركة النقل البحري بين الهند وبين الجزيرة العربية والخليج العربي حتى أواخر القرن الماضي قبــل شيوع وانتشار وسائط النقل الآلية الحديثة .

ومما شجع على قيام الاتصالات بين الهند وبين العراق قيام مراكز حضرية في البلدين منذ فترات مبكرة ومثلما تعـرف مواقع العبيــد وأور والوركاء من المراكز الحضرية المبكرة في العــراق ، فأن نتائج التنقيب في موقعي خارايا وموهنجودارو تؤكد قــدم النشاط الانساني المتحضــر في مناطق وادي السند أيضا(٣٩) .

ومع أرجحية النقل والاتصالات البحرية ما بين الهند والعراق ، فان النقل البري بين الطرفين لم يكن متعذرا ، فتشير المصادر التاريخية الى أن

الاسكندر المقدوني سلك في عودته من الهند الى بابل طريقين ، أحدهما بحري ، سار بمحاذاة سواحل الهند الغربية وباتجاه مضيق هرمز ثم عبر مياه الخليج العربي ، الآخر طريق بري ، وكان الاسكندر يقود القطعات البرية ، فسارت بمحاذاة الساحل من مكران الى كرمان وصولا الى سوسة ثم بابل • لذلك رجح بعض الباحثين توفر طرق مواصلات برية بين الهند وبين جنوبي ايران كانت تفضي في استمرارها الى العراق(٤٠) •

أما طرق الاتصالات العراقية مع مناطق شرقي البحر المتوسط ومصر، فلا نرى ضرورة ملحة للحديث التفصيلي عنها ، فهي مناطق تتصل ببعضها دونما عائق طبيعي ، كما يمكن الانتقال من مكان لآخر بكافة الوسائط المتاحة ، وبخاصة على الخط الذي يربط نينوى أو الموصل لاحقا ، بحلب ومن الاخيرة الى مناطق بلاد الشام الساحلية أو الداخلية المختلفة • كما تساهم الملاحة النهرية في الفرات على توفير أسباب الاتصالات بين العراق وبين أقسام من بلاد الشام ، حيث تلعب انعطافة الفرات الكبيرة صوب الغرب دورا بارزا في ذلك(٤١) •

ان الاتصال ببلاد الشام يشكل نقطة الارتكاز للاتصالات مع مصر • حيث يتم الانتقال اليها بطريق بري يعبر أطراف برية سيناء ، أو بطريق ساحلي يمر بالموانىء السورية، كصور وأرداد وجبيل وغزه وصولا الى مشارف الدلتا ومصب نهر النيل •

وعلى الرغم من عدم توفر أداة على قيام اتصالات مباشرة بين العراق وبين مصر الا في عصر الامبراطورية المصرية ، ( بحدود القرن الخامس عشر ق•م• ) ولكننا نرجح بقوة قيام الاتصالات غير المباشرة ومن خلال بلاد الشام ، فقد لعبت بلاد الشام ولفترات تاريخية طويلة لاحقة دور الوسيط في العلاقات والاتصالات العراقية المصرية •

ففي أوغاريت ( رأس شمرا ) التقت العناصر الحضارية العراقية مع المصرية ، ووضع الكنعانيون الفينيقيون اصول أبجدية كتب نوع منها بالعلامات المسمارية ، بينما مال النوع الثاني للاقتباس من الكتابة الهيروغليفية . ويرجح الباحثون أن بعض الكتبة المصريين تعلموا اصول الكتابة المسمارية وقواعد اللغة الاكدية في مدارس ببلاد الشام ، ومثل هؤلاء الكتبة هم الذين حرروا مجموعة الرسائل التي كشف عنها في بقايا العاصمة المصرية أخت آتون ( تل العمرنه ) ، وهذه الرسائل تعد من أهم الوثائق القديمة التي تكشف عن جوانب العلاقات الدولية واصول الدبلوماسية ، تبادلها ملوك وامراء الشرق الادنى القديم . والمهم في هذه الرسائل مما له علاقة بسياق بحثنا ، أنها كتبت بلغة وكتابة العراقيين القدماء ، وذلك ما يؤكد توطد العلاقات وسعتها بين مصر والعراق . وعلى العموم فأن وعي الحضارتين ونضجهما الفكري وامكانياتهما الكبيرة ، هيأ لهما أسباب الاتصالات المباشرة اضافة الى استمرار فعل الاتصالات غير المباشرة(٤٢) . واذا كانت سواحل بلاد الشام تمثل أقصى المعمورة من ناحية الغرب في معارف السومريين الجغرافية بحدود الالف الثالث ق.م.(٤٣) . فأن معلومات الاشوريين شملت البحر المتوسط بشعوبه ومناطقه وجزره ، كما نلحظ بدايات الاحتكاك بين الاشوريين وبين اليونان . ومع أن معظم الاتصالات مع بلاد اليونان عبرت خلال الاناضول وعبر البسفور والارخبيل ، ولكن جانبا آخرا منها عبر البحر على متن السفن الفينيقية .

ان مسارات روافد نهري دجلة والفرات اضافة الى مسار النهرين نفسيهما ، تعد من أحسن منافذ الاتصال بين بلاد وادي الرافدين وبين

الاناضـــول · وأن السلاســـل الجبليـــة ، سواء الجنوبيـــة منهـــا اوتمثلة بطوروس أو الوسطى المعروفة باسم الاناضول وامتداداتها في ناحية الشرق في جبال زاكروس وأرمينيا ، فانها جميعـــا تتوفر على عـــدد لا يحصى من المنافذ والممرات الطبيعية التي تهيء أسباب الانتقال والحركة بين الاقسام المختلفة لهذه المناطق · ان احدى المنافـــذ التي تخترق جبال طوروس من الاهميـــة والخطورة بحيث اكتسبت شهرة تاريخيـــة ، وسميت بالبوابات القيليقية ، وهي منفـــذ في الجبال على مقـــربة من الخط الساحلي للبحـــر المتوســـط ، الذي يمثـــل بدوره طريقـــا للاتصال والانتقـــال بين ســـوريا والاناضول ، وكان هذا المنفذ مسلكا رئيسيا للأقوام والتجارة والجيوش ، ووقعت عنده معركة كبيرة وحاسمة بين جنود الاسكندر البالغ عددهم حوالي (٤٠) ألفا من الفرسان ، وبين جنود دارا الثالث آخر الحكام الاخمينيين ، ويقدر عددهم بنحـــو ربع مليون مقاتل من مختلف الصنوف ، وبخاصـــة الفيالة منهـــم · ولكن بسبب المجاز الجبلي الضيق لهذه الممرات ، فقـــد نجح الاسكندر من امتلاك ناصية الحركة والمناورة بسبب قلة عدد جنوده وكونهم من الخيالة الذين يتميزون بسرعة الحركة والانتقال ، فوجه ضربة ماحقة للجيش الاخميني ·

وتهيأت أيضا أسباب الاتصال مع الاناضول من خلال جزيرة ابن عمر وديار بكر وماردين ونصيبين ، ثم خلال منافذ الجبال ومسارات الانهار الى مناطق وأقسام الاناضول المختلفة · وبلغت الاتصالات مع الاناضول الى حدود قيام مستوطنات للتجار يعملون على تنظيم شؤون التجارة مع مدن العراق القديم · وقد كشفت لنا النصوص المسمارية التي عثر عليها في المستوطنة التجارية كلتيش ( كول‌تبه ) عن حجم النشاطات الاقتصاديـــة

بين الطرفين ، كذلك عرفت في ضوئها عن وسائط النقل والقوافل التجارية(٤٤) ·

أما الحوليات والتسجيلات الملكية الاشورية ، فأنها تحدثنا عن حملات آشورية بلغ بعضها منابع نهر رجلة ، واصطدم الاشوريون مرارا بمملكة أرارات التي قامت في أقصى الشمال الشرقي من الاناضول في مناطق قريبة من بحيرة وان(٤٥) ·

وعندما يكون الحديث عن بحيرة وان والمناطق المجاورة لها فتتذكر جهود الباحثين الذين نجحوا في تعيين مصدر الحجر الاوبسيدي الذي استورده العراقيون منذ الالف السابعة ق·م·(٤٦) ·

توصل هذه المناطق عبر العديد من المسالك الطبيعية الى أرمينيا والقفقاس وأواسط اوربا ، حيث نرجح أن يكون بعض الاشعاعات الفكرية بلغت هذه المناطق ، وربما يكون الحديث عن اكتشاف نصوص مسمارية أو خطوط مقتبسة عنها في رومانيا ودول أوربية أخرى ، جانبا من ذلك ·

**الهوامش :**

١ ــ فيليب حتي : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين · ترجمة جورج حداد وعبدالمنعم رافق · دار الثقافة ــ بيروت ــ ١٩٥٨ ج ١ ، ص ١٢٨ ·

٢ ــ أندريه بارو : بلاد آشور · ترجمة وتعليق د· عيسى سلمان وسليم طه التكريتي · منشورات وزارة الثقافة والاعلام ــ بغداد ــ ١٩٨٠ اللوحات (٢٥٦ ــ ٢٦٤) ·

٣ ــ طه باقر : المقدمة في تاريخ الحضارات القديمة · طبعة ثانية بغداد ــ ١٩٥٥ · ج ١ ص ٣١١ ــ ٣١٢ ، ج ٢ ص ٦٧ ــ ٦٨ ، ص ٢٥٨ ·

٤ ـ هاري ساكز : عظمة بابل • ترجمة د• عامر سليمان • ١٩٧٩
فصل التراث / ص ٥٥٤ فما بعد •
ـ هنري فرانكفورت : فجر الحضارة في الشرق الادنى • ترجمة
ميخائيل خوري • بيروت ـ نيويورك ـ ١٩٥٩ ص ١٢٧ فما بعد •
ـ صموئيل نوح كريمر : من ألواح سومر • ترجمة طه باقر • بغداد
ـ ١٩٥٧ •

٥ ـ صموئيل نوح كريمر : السومريون • ترجمة الدكتور فيصل الوائلي
وكالة المطبوعات ـ الكويت • ص د ـ هـ •

٦ ـ كريمر : نفس المصدر ص و •
يبدو أن الدكتور فيصل الوائلي الذي ترجم هذا الكتاب يقتبس مصطلحات عصر التوحش والبربرية وحياة التمدن عن عالم الاثار جوردن جايلد ، الذي جعل هذه المسميات عناوين فصول كتابه « ماذا حدث في التاريخ » •

٧ ـ كريمر : نفس المصدر ص و •
وانظر أيضا : فرانكفورت : المصدر السابق ص ١٣٥ فما بعد •

٨ ـ كريمر • من ألواح سومر • ص ١٥ •

٩ ـ نفس المصدر ص ١٦ •

١٠ـ نفس المصدر ص ٤٤ •

١١ـ ساكز : عظمة بابل ص ٢١٢ •

١٢ـ جوردن جايلد : ماذا حدث في التاريخ • ترجمة د• جورج حداد
الشركة العربية بالقاهرة • ص ٥ •

١٣ـ نفس المصدر • ص ٧ •

١٣*ـ كريمر : من ألواح سومر ص ٦٣ فما بعد .
١٤ـ نفس المصدر ص ٨١ فما بعد .
١٥ـ نفس المصدر ص ١١٥ فما بعد .
١٦ـ د. عامر سليمان : القانون في العراق القديم . الجزء الاول مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر ـ جامعة الموصل / ١٩٧٧ ص ١٤٢ فما بعد .
١٧ـ كريمر : من ألواح سومر . الفصل الثامن .
١٨ـ د. عامر سليمان : القانون في العراق القديم ص ١٩١ فما بعد .
١٨*ـ طه باقر : مقدمة في أدب العراق القديم . بغداد ١٩٧٦ ص ٣٢ فما بعد .
١٩ـ كريمر : من ألواح سومر ص ١٢٩ فما بعد .
٢٠ـ نفس المصدر ص ١٣٧ .
٢١ـ طه باقر : مقدمة في أدب العراق القديم ، المصدر السابق .
طه باقر : ملحمة جلجامش . وزارة الثقافة والاعلام ـ بغداد ١٩٨٠ .
د. فاضل عبدالواحد علي : الطوفان . مطبعة الاخلاق ـ بغداد ـ ١٩٧٥ .
صموئيل نوح كريمر : من ألواح سومر . ترجمة طه باقر .
٢٢ـ د. فاضل عبدالواحد علي : عشتار ومأساة تموز . منشورات وزارة الاعلام ـ بغداد ـ ١٩٧٣ .
٢٣ـ طه باقر : ملحمة جلجامش ، ص ٤٢ فما بعد .
٢٤ـ نفس المصدر ص ٤١ .
٢٥ـ فرانكفورت : المصدر السابق ص ١٣ .

٢٦ـ رضا جـواد الهاشمي : « الحجـارة الاوبسيدية واصول التجارة » مجلة سومر / ١٩٧٢ ص ٢٥٣ فما بعد ٠

٢٧ـ د٠ طارق عبدالوهاب مظلوم وعلي محمد مهـدي : نينوى ٠ وزارة الاعلام ـ مديرية الاثار العامة ـ بغداد ١٩٧١ ٠

ويرى البعض ان تسمية الموصل انما أخذت عن وظيفـة المدينـة في عملية الربط والاتصال التي تهيؤهـا بين السـهل والجبـل ، فهي الموصلة بين المنطقتين ٠

٢٨ـ طه باقر وفؤاد سفر : المرشد الى مواطـن الآثار والحضارة الرحلة الخامسة ـ بغداد ـ أربيل ـ وزارة الثقافة والارشاد ـ بغـداد ـ ١٩٦٦ ٠

٢٩ـ ابراهيم شريف : الموقع الجغرافي للعراق ٠ مطبعة شفيق ـ بغداد ص ٢٤٨ فما بعد ٠

٣٠ـ

٣١ـ كريمر : من الواح سومر ص ٦٢ ـ ٦٣ ٠

٣٢ـ نفس المصدر : ص ٦٣ ٠

٣٣ـ ساكز : عظمة بابل ، ص ٧٠ ٠

٣٤ـ نفس المصدر ، ص ٧١ ـ ٧٢ ٠

٣٥ـ الصراع العراقي الفارسي : بغداد ـ ١٩٨٣ ٠

٣٦ـ

٣٧ـ رضا جواد الهاشمي : آثار الخليج العربي والجزيرة العربية ٠ مطبعة جامعة بغداد ـ ١٩٨٤ ص ٣٥ فما بعد ٠

٣٨ـ رضا جواد الهاشمي : « الملاحة النهرية في بلادي وادي الرافدين » سومر / ١٩٨١ ص ٣٦ فما بعد ٠

٣٩ـ رضا الهاشمي : آثار الخليج العربي ··· ص ١٥٠ فما بعد ·
٤٠ـ كريمر : السومريون ، ص ٣٨٩ – ٤٠٧ ·
٤١ـ رضا جواد الهاشمي : « دور نهر الفرات في الامتدادات الحضارية لبلاد وادي الرافدين » بين النهرين – بغداد ١٩٨٣/٤٤ ·
٤٢ـ
٣٤ـ كريمر : السومريون · ص ٤٠٩ ·
٤٤ـ حضارة العراق · الجزء الثاني بغداد ١٩٨٥ ·
الفصل السادس ، التجارة ص ١٩٥ فما بعد ·
٤٥ـ د· سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشمي ، تاريخ الشرق الادنى القديم · وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – بغداد ص ٣٣٦ – ٣٣٧ ·
٤٦ـ رضا جواد الهاشمي : « الحجارة الاوبسيدية وأصول التجارة » سومر / ١٩٧٢ ص ٢٥٣ فما بعد ·

# المعتقدات السومرية والبابلية : تاثيرها في التوراة في موضوع تفسير الكوارث التاريخية

د٠ فاضل عبدالواحد علي

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

كان انتشار حضارة بلاد وادي الرافدين واسعا ومؤثرا في بلدان عديدة من الشرق الادنى القديم ٠ ويتجلى هـذا التأثير بشكل واضح في معتقدات العراقيين حيث احتوت اسفار التوراة ، وسفر التكوين منها على وجه الخصوص ، على كثير من المعتقدات السومرية ـ لبابلية ، الى الحد الذي دفع عالم الاشوريات الالماني المعروف فريدريك ديليج ( Friedrich Delitzch ) الى القول في خلاصة سلسلة محاضرات له عن « بابل والثورة » بان سفر التكوين « غارق في ذنوب الانتحال » ٠

ومهمـا كان مدى تأثر العبرانيين بالنتـاج الحضاري لبـلاد وادي الرافدين وانعكاس ذلك بشكل واضـح في التـوراة ، فان تلك التأثيرات يمكن ان تكون قد وصلت بطريقتين :

الاولى منهما ذات علاقـة بدون الاباء الاول ( Patriarches ) في نقل المعتقدات الدافدينية الى العبرانيين وهي مسألة ما تزال موضوع نقاش بين المختصين بالكتابات المسمارية والدراسات التوراتية ٠ اذ تذكر التوراة ان ابراهيم عليه السلام كان اصلا من « اور الكلدانيين » : « انت هـو الرب الاله الذي اخترت ابرام واخرجته من اور الكلدانيين وجعلت اسمه ابراهيم ( سفر نحميا ٩ : ٧ ) ٠ وتتخذ فئة اخرى من الباحثين

من هذه الرواية التوراتية حجة للرد على ديليج واتباعه فيقولون ان وجود اوجه تشابه بين النصوص السومرية ـ البابلية والتوراة انما هو دليل على عمـق الروابط بين النتاج الحضاري الرافدين والتوراتي • فاذا كان الاباء الاول جاؤا فعلا من وادي الرافدين ، كما تؤكد ذلك التوراة مرارا ، فلا نتوقع منهم الاان يكونوا على اطلاع بنتاج موطنهم الاصلي • ولذلك فان وجود « مادة مستوردة » في سفر التكوين انما هو ، في رأيهم « برهان على اصالة اشتقاقها وليس على كونها سرقة نكراء » • ثم ان التوراة ، في رأي هؤلاء أيضا ، لـم تحاول قط اخفاء السمة الرافدينية للموروث الحضاري موضوع البحث • بل انها على العكس من ذلك تستدعي الانتباه اليه مرارا : في قصة جنة عدن وانهارها الاربعة في سومر ، وفي قصة نمرود « الذي كان جبار صيد امام الرب » والذي « كان ابتداء مملكته بابل وارك واكد ومكنة في ارض شنعار » في وفي قصة بناء برج بابل ( الزقورة ) • ثم يضيف هؤلاء بان المهاجرين الاول جلبوا معهم « متـاعا حضاريا كبـيرا من ارض مولدهم يتضمن كثيرا من التفاصيل التي هي الآن في الاصحاحات الاولى من سفر التكوين غير ان تلك الموروثات المنقولة لم تبق على حالها ، وانما حولت الى ما يتلاءم مع الغاية والمثل(١) •

من جانب آخر هناك من الباحثين من يبدي تحفظا على صحة الرواية التوراتية القائلة بان الموطن الاصلي لابراهيم عليه السلام كان في اور ويتساءل عما اذا كانت المدينة المذكورة في التوراة تدل فعلا على اور ( في القسم الجنوب من العراق قرب الناصرية ) ام انها تدل على مدينة أخرى لها نفس الاسم لكنها تقع في مكان آخر بعيدا الى الشمال ، علما بان كل الدلائل تشير الى ان عشيرة ابراهيم الخليل كانت في مدينة ناحور التي تقع من دون شك في شمالي غرب بلاد وادي الرافدين وليس في جنوبه • اذ

يذكر سفر التكوين في هذا الشأن ما نصه : « فقال ابراهيم لعبده ، كبير بيته المستولي على كل ما كان لـه ، ضـع يدك تحت فخذي فاستحلفك بالرب اله السماء واله الارض ان تأخذ زوجة لابني من بنـات الكنعانيين الذين انا ساكن بينهم ، بل الى ارضي وعشيرتي تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق ( تكوين ٢٤ : ٢ ـ ٤ ) « ثم اخذ العبد عشرة جمال من جمال مولاه وجميع خيرات مولاه في يده · فقـام وذهب الى ارام النهرين الى مدينـة ناحـور » ( تكوين ٢٤ : ١٠ ـ ١١ ) · وفي ضوء هـذا النص يرى هؤلاء الباحثون ان الموطن الاصلي لابراهيم عليه السلام ينبغي ان يكون في هذه المنطقة الشمالية الغربية من وادي الرافـدين وليس في الجنوب منـه · ويحاول هؤلاء تعزيز رأيهم بالقول بان هناك مدينة أخرى مشابهة تقريبـا لاسم مدينة اور قد جاء ذكرهـا في رسالة عثر عليهـا في اوغاريت ( رأس شمرة ) يتحدث فيها الملك الحيثي حتوسلي (١٢٧٥ ـ ١٥٢٠ ق·م) الى نوقمتيبـــا Nuqmepa ملك اوغاريت عن اوضاع تجار « من سكان مدينـــة اورا Ura والتي من السهل ان تصبح اور في العبرية · اما عن وجود الكلدانيين في هذه المنطقة الشمالية الغربية من وادي الرافدين فمسألة ورد ذكرها في الكتابات التاريخية أيضا ·· اذ يذكر زينفون ( في حدود ٤٠٠ ق·م ) يذكر بان الكلدانيين كانوا يقطعون الطريق الى ارمينيا والمناطق المجاورة لهـا ، علمـا بان الكلدانيين هـم فرع من الاراميين ، ومعروف ان الموطن الرئيسي للاراميين كان في منطقة الجزيرة الفراتية بين العراق وسوريا(٢) · يضاف الى ذلك ان هناك رواية قديمة وشائعة عند بعض الطوائف الدينية مفادها ان ابراهيم عليه السلام كان يسكن في مدينة اورفا الواقعة في أعالي نهر البليخ الى الشمال من حران ( داخل الاراضي التركية الآن ) ونه ولد في المغارة الكائنة عند سفح جبل في الجنوب الشرقي

من المدينــة وان هناك بركة مــاء يسميها الناس بركة ابراهيم · جــدير بالملاحظة ان اسم هذه المدينة بالسريانية هو « اورهى » Urhai وقد عرفها العرب بأسم الرها ثم حرف اسمها في القرن الخامس عشر الى اورفا · ولذلك فليس من غير المحتمل ان تكون مدينة اور الواردة في التوراة مختصراً عن تسمية أخرى مثــل Urhai أو سابقتهــــا Ura التي ورد ذكرها في أحد نصوص اوغاريت ·

اما الطريقة الثانية ، وهي الاكيدة ، التي انتقلت بواسطتها تلك المعتقــدات ، فكانت من خــلال الصــلات التجارية والسياسية والحملات العسكرية ، وأهم من ذلك كله من خلال وجود العبرانيين انفسهم في بابل أثناء الاسر البابلي · اذ من المعروف ان الصلات بين العراق وبلاد الشام لم تنقطع في كل العصور التاريخية · فبلاد الشـــام كانت مصدرا مهمـــا للاخشاب والزيوت وكثير من المواد الغذائية والسلع التجارية ، ثم انهـــا ذات موقع جغرافي متميز أدى في النهاية الى مواجهة عسكرية بين القوتين الكبيرتين آنئــذ ، اشور وبابل · ولذلك فان وصول تأثيرات عن هــذا الطريق من وادي الرافدين الى بلاد الشام امر اكيد جدا · جدير بالذكر في هذا الصدد انه تم العثور في مجدو في فلسطين على كسرة من رقيم يحتوي على جزء من ملحمة جلجامش يعود تاريخها الى العصر البابلي الوسيط ، اي الى حدود القرن الرابع عشر قبل الميلاد مما يؤكد ما قلناه سابقا من ان مظاهر حضارية عديدة من وادي الرافدين ، ومنها ملحمة جلجامش ، قد انتشرت في منطقــة واسعة من الشرق الادنى القــديم ، ولاشك في ان ذلك يثبت في الوقت نفسه ، انه كان هنــاك في مدينة مجــدو الفلسطينية من يحسن قراءة الخط المسماري ويجيد اللغة البابلية ويتذوق ادابها ·

اما وجود العبرانيين انفسهم في بابل أثناء الاسر البابلي الذي حدث

مرتين خلال حكم الملك البابلي نبوخذنصر الثاني (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق٠م) فقد كان له الاثر الاعظم في تعرف العبرانيين عن كثب على حضارة بلاد وادي الرافدين ٠ ففي عام ٥٩٧ ق٠م سقطت اوشليم بأيدي القوات البابليـة وانتهى بذلك حكم كهوياقيم الذي لا يعرف على وجه التحديد هل انه نقل أسيرا الى بابل ( سفر الايام الثاني ٣٦ : ٦ ) ام انه مات أو قتل ( سفر ارميا ٢٢ : ١٨ : ١٩ ) ٠ وقد خلفـه في الحكم ابنه يهوياكين الذي كان عمره ثمان سنوات ٠ وبعـد ثلاثة أشهر من تنصيبه عـادت قوات الملك البابلي لمحاصرة اورشليم ٠ فأسر يهوياكين وحاشيته و ٧٠٠٠ من جنده ونحـو ١٠٠ من مهـرة الصناع وتم نقلهم مع كثير من « آنية بيت الرب الثمينة » الى بابل وكان النبي حزقيال من بين الاسرى ٠ وقد عرف ذلك بالأسر البابلي الاول الذي وقع ، كما قلنا ، في عام ٥٩٧ قبل الميلاد ٠

امر نبوخذنصر بتنصيب صدقيا حاكما على العبرانيين وبقي الاخير سنين عديدة على ولائه للملك البابلي ٠ لكنه في نهـاية الامر اعلن ثورته ضد السيادة الكلدانية مما دفع الملك البابلي الى تجـريد حملة عسكرية فرضت الحصار على مدينة اورشليم ٠ وقد فشلت جهود الفرعون المصري في تقديم المساعدة للعبرنيين وانتهى الامر بسقوط المدينة بأيدي القوات الكلدية بعد حصار دام أكثر من سـنة ونصف السنة وبتهديم المدينـة ومعبدها وأسوارها ونقل حوالي ٥٠٠٠ شخصا الى بابل ٠ وقد حدث ذلك عام ٥٦٨ قبل الميلاد وهو ما يعرف بالاسر البابلي الثاني ٠

لقد كان لهؤلاء العبرانيين الذين وقعوا في الاسر ، وهم الذين تسميهم الكتابات السمارية بـ « اليهود » نسبة الى مملكة يهودا التي كانوا فيها ، الدور الاكبر في تكوين الديانة اليهودية المعروفة الآن ٠ اذ استمر كهنتهم بممارسة شعائرهم الدينية وبتحرير أهم فصول التوراة أثناء وجودهم في

بابل . ويجمع الباحثون على ان الديانة اليهودية كما هي معروفة الآن قد ولدت أثناء الاسر في بابل وان الاسفار الاولى التي تبدأ بها التوراة اخذت شكلها الذي جاءنا به من خلال وجود اليهود في الاسر الذي استمر قرابة نصف قرن من الزمن وانتهى عام ٥٣٨ ق.م . ومما لاشك فيه انه كان للكهنة اليهود الدور الاساسي في تدوين هذه الاسفار التي كتبوها باللغة العبرية المعروفة بأرامية التوراة وانه كانت لهم معرفة واسعة بالنصوص السومرية والبابلية . وعلى هذا النحو كان الاسر البابلي فرصة ثمينة لرجال الدين اليهود مكنتهم من الاطلاع مباشرة على الوثائق المسمارية المدونة بالسومرية والبابلية والخاصة بخلق الكون والانسان والحياة والموت والثواب والعقاب وغيرها كثير من المعتقدات وشعائر العبادة والمفاهيم والقيم الاجتماعية السائدة في بلاد بابل . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال الى تأثر مدوني التوراة بالموروث السومري ـ البابلي بشكل مباشر وبالتالي الى دخول كثير من مفاهيمه الى الاسفار التوراتية .

هذا موجز بطرق انتقال التأثيرات الحضارية من وادي الرافدين الى العبرانيين . اما بخصوص موضوعنا الحالي وهو غضب الرب وانزال الكوارث في البلاد كمعتقد سومري ـ بابلي تأثر به العبرانيون ، ضمن أمور كثيرة أخرى ، فيمكن القول ان طاعة الالهة وعبادتها وتقديم القرابين لها واحترام قدسية معابدها من الامور التي آمن بها سكان وادي الرافدين ايمانا عميقا . وتدل النصوص المسمارية وخاصة الدينية والادبية منها على ان الفرد السومري والبابلي والاشوري كان حريصا كل الحرص على نيل رضا الاله لان غضبه كان في اعتقاده مدعاة لان يسبب له الفقر والمرض ومقت الناس .

هذا على الصعيد الفردي . وبالمثل فان النكبات والكوارث التي تحل

بالبلاد وفي أزمان مختلفة كانت تفسر دائما على انها تعبير عن النقمة الالهية. والشواهد على مثل هذه الكوارث عديدة سواء في النصوص المسمارية ام في التوراة .

فالطوفان العظيم الذي ذكرت تفاصيله النصوص المسمارية كان نتيجة لغضب الاله انليل على الناس بعد ان تكاثر عددهم وشلا صخبهم وضجيجهم في الارض . وبالمثل فان التوراة تعزو الطوفان الى غضب الرب أيضا بعد ان كثر الظلم والفساد في الارض : « ورأى الرب ان سر الانسان قد كثر في الارض . وان كل تصور افكار قلبه انما هو شر كل يوم ... فقال الرب امحو عن وجه الارض الانسان الذي خلقته . الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ( التكوين ٦ : ٥ وما بعده ) .

وقد ينزل الاله غضبه بالبلاد فيرسل على الناس سنين عجاف يقل فيها المطر والحب ومختلف أنواع القوت فينتشر الجوع ويعتري الناس الوهن والمرض .. وقد حفظت لنا قصة الطوفان البابلية « اتراخاسيس »(٣) ، نسبة الى بطلها الذي انقذ البشرية من الفناء بسبب الطوفان تفاصيل وافية عن المجاعة التي امرت بها الالهة ان تحل بالبلاد مدة ست سنوات متعاقبة

وفي العلى جعل الاله ادد(٤) مطره نزرا
وفي الاسفل سدت الانهار وتدفن الفيضان من « العمق »
وانقصت الحقول غلاتها
ومنعت الالهة نيسابا(٥) فيض تديها
فأصبحت الحقول السوداء بيضاء
وانتجت الحقول ملحا
وتمرد رحم الارض

فلم تنبت البقول ولم تنمو الحبوب
وأنزل مرض اسكو asakku (٦) على الناس
فأصبحت الارحام ظامرة ولم تلد مولودا
وعندما حلت السنة الثانية
اصبحوا يعانون من الجرب
وعندما حلت السنة الثالثة
تشوهت ملامح الناس بفعل الجوع
وعندما حلت السنة الرابعة
قصرت سيقانهم الطويلة
وانكمشت اكتافهم الواسعة
وصاروا يسيرون محدودبين في الشوارع
وعندما حلت السنة الخامسة
صارت الابنية تنظر الى امها وهي تدخل البيت
غير ان الام لم تفتح الباب لابنها ... (٧)
وعندما حلت السنة السادسة
اتخذوا من الأبنة عشاء لهم
ثم اتخذوا من الابن غداء لهم
ولم يشبعوا ، حتى التهم كل جار جاره

وتتحدث التوراة أيضا من خلال حلم فرعون الذي فسره يوسف عن سبع سنين تكون « شبعا عظيما في كل أرض مصر » وعن سبع سنين أخرى تكون « جوعا فينسى كل الشبع في أرض مصر ويتلف الجوع الارض .. » كما تتحدث التوراة عن الاجراءات التي اتخذها يوسف بخزن الحبوب خلال سنوات « السبع » لتلافي خطر المجاعة في سنين الجوع المقبلة(٨) . وتذكرنا

قصة السنين العجاف هذه وما اتخذ من احتياطات لدرء أخطار المجاعة بما جاء في ملحمة جلجامش على لسان الاله اوتو الذي قال لابنه عشتار بأنها اذا ما اصرت على خلق الثور السماوي للانتقام من جلجامش ورفيقه انكيدو فان ذلك سيكون نذيرا بحلول سبع سنين عجاف بالارض لا يكون فيها « حنطة للناس ولا علف للحيوانات » وان عليها ( عشتار ) ان تحتاط فتخزن الحنطة والعلف(٩) ٠

وتتعدد أشكال الغضب والعقاب الالهيين في كل من النصوص المسمارية والتوراة غير ان ابرز تلك الاشكال هو ان ينزل الاله غضبه بالناس عن طريق ارسال جحافل من الاعداء يحتلون البلاد وينهبون خيراتها ويقتلون اهلها ٠٠٠ ومن الامثلة على ذلك في النصوص المسمارية نذكر القصيدة السومرية المعروفة بين المختصين بـ « لعنة اكد »(١٠) ٠ وتحمل هذه القصيدة في أبياتها حقدا عميقا على نرام ـ سين (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق٠م) رابع ملوك السلالة الاكدية الذي جوز لنفسه ، بموجب هذه القصيدة ، الاقدام على تخريب وتدنيس معبد الاله انليل في مدينة نفر والتي تعتبر من اشهر المراكز الدينية السومرية في جنوبي وادي الرافدين ٠ وتصف القصيدة كيف ان الملك الاكدي اطلق العنان لجنوده الذين دخلوا المعبد وانتهكوا حرمته وهدموا جدرانه بالفؤوس ، وقد كان ذلك مدعاة ، من جهة نظر الشاعر السومري ، الى سخط الاله انليل وغضبه فانزل اللعنة على العاصمة أكد واهلها ٠ ويقول الشاعر السومري بهذا الخصوص ان الاله انليل ارسل ضد العاصمة اكد جحافل الكوتيين الذين يعرف عنهم من المصادر التاريخية انهم انحدروا من مستوطناتهم في المناطق الجلبية الشمالية الشرقية واحتلوا العاصمة الاكدية واسقطوا واحدة من اعظم الامبراطوريات في ودي الرافدين في حدود ٢٢٣٠ ق٠م٠ ونقتبس في ادناه

مقطعا من تلك القصيدة السومرية التي نحن في صددها الآن :

قوم لا يخضعون وبلاد لا يحصى اهلها
بلاد الكوثيين ، بلاد لا تكبح جحافلها
هؤلاء جاء بهم انليل من الجبال
فغطوا الارض بأعداد ضخمة كالجراد
وامتدت ايديهم الى السهول
وكأنها مصيدة للبهائم
فلم يفلت من يدهم شيء
ولم يهرب من يدهم أحد
فلا رسول على الطريق
ولا ملاح في قاربه في النهر
لقد وضعوا الرقباء على قمم الاشجار عند ضفاف الانهار ...
ووضعوا اللصوص على الطرقات
ومداخل المدينة اصبحت مداخلها تحت التراب
واطلقت البلاد صرخة حزن من داخل اسوارها

ويستمر الشاعر السومري في وصف ما حل بالعاصمة أكد من خراب ودمار وما اصاب اهلها من فقـر وجوع وموت على يد الغزاة . ويذكر في الاخير ان ستة من الالهة جاؤا الاله انليل يواسونه للخراب الذي الحقـه الاكديون بمعبده في مدينة نفر . وانهم اثناء ذلك راحوا ينزلون اللعنات على مدينة أكد التي آلت قصورها في نهاية الامر ، على حـد قول الشاعر السومري ، الى مجـرد خرائب كئيبـة يسكنها ابن آوى ومعـز الوحش والافاعي والاشباح ...

هكذا كان سقوط الامبراطورية الاكدية . من وجهـة نظـر الاديب

السومري ، الذي كان على الارجح من الكهان ، نتيجة لغضب الاله انليل الذي ارسل ضدها جحافل الكوثيين · اما من الوجهة التاريخية فانه من المعروف لدى الباحثين ان سقوط هذه الامبراطورية يكمن في جملة اسباب لعل من أهمها استنزاف قوة الامبراطورية في الحروب والحملات العسكرية الرادعــة التي ستشنها ضـــد القبائل المستوطنة في المناطق الجبلية الى الى الحمال والشمال الشرقي من البلاد مثل قبائل لولوبو والكوتيين · وجدير بالذكر ان هذه القبائل كانت غير متحضرة لكنها تعلمت فنون الحرب والســلاح من الاكــديين واســتطاعت في النهــاية من ان تضــع نهـــاية لامبراطوريتهم ·

وبالاضافة الى أكد ، يعتبر سقوط ســلالة اور الثالثة واحــدا من الاحداث السياسية البارزة في تاريخ وادي الرافدين وذلك بسبب النهاية المأساوية التي آلت اليها هذه السلالة · فنحن نعرف من لوجهة التاريخية ان هنــاك جملة من الاسباب السياسية والاقتصادية والعســكرية أدت مجتمعة الى سقوطها · فالوثائق السومرية المعاصرة لابي ـ سين آخــر ملوك سلالة اور الثالثة تشير الى حدوث حركات انشقاق قام بهــا بعض حكام المدن المهمة أدت الى استقلالهم عن السلطة المركزية في العاصمة · كما تشير تلك الوثائق ايضا الى ارتفاع كبير في أسعار المــواد الغذائية الاساسية كالسمن والحبوب والى حاجة شديدة للحنطة في العاصمة اور وفي غيرها من المدن الاخرى · وأخيرا تذكر الوثائق استمرار تدفق قبائل المارتو ( الاموريين ) على المدن السومرية واقتحامهم الاسوار والمراكز الدفاعية التي اقامها السومريون لصد هجماتهم · كــل هــذه الاسباب مهدت الطريق للعيلاميين لان يغزو البلاد ويسقطوا السلالة السومرية الحاكمة في اور ·

هذا من وجهة النظر التاريخية · اما من الوجهة الدينية فالمسألة

تختلف تماما • اذ وصلتنا قصيدة سومرية ، تعرف بين المختصين بـ « مرثية اور »(١١) يصور فيها الشاعر المأساة التي حلت بالمدينة نتيجة لهجوم العيلاميين الذين اسقطوا السلالة الحاكمة فيها في حدود ٢٠٠٦ ق.م واخذوا آخر ملوكهم ، ابي - سين ، في الاسر الى عيلام • الشاعر السومري في قصيدته التي تزيد عن خمسمائة بيتا ، النكبة الى سبب آخر يختلف تماما عن الاسباب التي ذكرناها قبل قليل • فهو يرى ان الآلهة العظام آنو ، انليل ، انكي وننخرساك هم الذين قرروا ذلك المصير المأساوي للبلاد واهلها عندما عطلوا فيها سيادة القانون والعدل والحكم • واقدموا على تخريب المساكن والمدن وابادة الاغنام والماشية والمحاصيل الزراعية • ثم يذكر كيف ان الآلهة ارسلت اولا جحافل الكوتيين لينشروا الدمار والرعب في البلاد • وفي النصف الثاني من قصيدته ، ينتقل الشاعر السومري الى ذكر العاصمة ويصف ما كانت تعانيه من مجاعة قاسية بحيث اضطر اله المدينة ننا ( سين ) لان يدعو اباه الاله انليل للتدخل في الامر وانقاذ المدينة من محنتها • غير ان الاله انليل اخبره بان لا جدوى من ذلك وان عليه ان يهجر المدينة لانها مقبلة على مواجهة مصيرها المشؤوم على يد الغزاة • ويصور الشاعر القديم حال اهل اور فيقول :

« اور في داخلها موت وفي خارجها موت
في داخلها نموت نحن من الجوع
وفي خارجها نقتل نحن بأسلحة العيلاميين
لقد اخذ العدو اور •••
ورفعوا مزالج بواباتها ، وها هي ابوابها مشرعة الى اليوم
لقد داسها العيلاميون مثل سيل عرم

فتحطمت اور بفعل السلاح مثلما يتحطم اناء من فخار ... »

ثم تصف مرثية اور كيف امعن العيلاميون في قتل سكان المدينة وتهديمها ونهب أموالها وكيف انهم دنسوا الاماكن المقدسة وخربوا معبد الاله ننا ونهبوا كل ما فيه من كنوز ونفائس وأخذوا كهنته في الاسر .

ويتجسد الاعتقاد في غضب الرب ومقدرته على انزال الكوارث بالارض والانسان ، بشكل واضح في القصيدة البابلية التي بطلها اله الطاعون « ايرا »(١٢) ، والتي تصف كيف انه احل الدمار عن قصد بمدن رئيسية وعريقة مثل بابل مركز عبادة الاله الشهير مردوخ ومدينة الوركاء حيث كانت تعبد عشتار ، الهة الحب والحرب ، ومدينة سبار المخصصة لعبادة اله الشمس ، مصدر القانون والعدل في بلاد وادي الرافدين . ونقرأ في بداية القصيدة انه ولد لاله السماء آنو سبعة أولاد هم « الآلهة السبعة » ( في البابلية Sibitti ) وانه عين لكل واحد من هؤلاء مهمة خاصة به وجعله متمرسا في أساليب الهجوم والابادة ، ثم انه اعطاهم الى اله الطاعون ايرا ليكونوا جميعا سلاحا فتاكا في يديه وليسيروا دائما الى جانبه . وعلى غرار ما رأينا في قصة الطوفان حيث كان ضوضاء وصخب البشر سببا في ازعاج الآلهة وبالتالي انزال العقاب الالهي بهم ، هنا أيضا يلمح آنو ، اله السماء ، الى الاله ايرا بوجوب استخدام اسلحته الالهية السبعة فيما اذا ازعجته ضوضاء البشر في الارض واراد ابادتهم .

في الحال يبدأ « السبعة » ان صح التعبير بتحريض ايرا على نبذ الكسل وعلى النهوض لاحلال الخراب والدمار بالارض بحيث يعم الرعب والفزع بين الآلهة والملوك والشياطين وتهتز الجبال وترتجف البحار خوفا من الكارثة المنتظرة . ومن اجل استثارة الاله وتحريك رغبة الفتك

الكامنة في نفسه ، يذكر الالوة السبعة سيدهم ايرا بان التشبث بالمدينة وبيوتها من صفات الشيوخ المسنين والاطفال الصغار . اما الرجال فعليهم ان يخرجوا للحرب والقتال وان يستبشروا ويفرحوا بالغزو كما لو انهم كانوا في يوم عيد . ثم يذكرونه بانهم لم يذهبوا للغزو منـذ زمن طويل بحيث بسطت العناكب خيوطهـا على أسلحتهم وتراخت ابدان قسـيهم واوتارها وغطى الصدأ نصال سيوفهم . وكان لكلمات الالهة السبعة وقعها الحسن في نفس ايرا ، أو كما يقول الشاعر البابلي « انها كانت لذيذة كالزيت الناعـم في نفسـه » . لذلك فانـه استجاب لندائهـم وطلب من وزيره ايشسوم Ishum ان يعجل ويفتح له الطريق لبدء مهمتـه المنتظرة . وعندما حاول ايتسوم ان يثني سيده ايرا عن عزمه اشفاقا منه بالطبع على البشرية من الدمار الذي سيلحق بها ، زجره سيده بشـدة مؤكدا عزمه على معاقبة سكان المدن لانهم لم يعودوا يخشون سلطانه ولانهم أيضا نبذوا كلمة مردوخ اله بابل العظيم وأخذوا يتصرفون على هواهم .

اتجه ايرا في موكبه أول الامر الى مدينة بابل ودخل « ايساكيلا » معبدها الشهير حيث يقيم الاله مردوخ ، وطلب منه ان يهجر معبده ويخرج من المدينة . فاضطرب مردوخ واخذ يشرح لايرا كيف ان تركه لعرشـه سيؤدي الى اختلال توازن الكون واضطرابه برمته وان الفوضى ستعم في الارض . فالرياح الشريرة والشياطين وآلهة العالم الاسفل سوف تنقض كلها من أماكنها في دنيا الاموات لتحل الخراب بالارض وتقضي على كل مخلوق حي . لكن ايرا طمأنه بان شيئا من ذلك لن يحدث وانه سيتولى تصريف الامور في العاصمة بابل طيلة غيابه عنها . ولكن ما ان ترك مردوخ عرشه في معبد ايساكيلا وغادر بابل حتى التفت يرا الى وزيره ايشـوم وخاطبه قائلا :

« افتح لي الطريق لاسير على الدرب
لقد حان اليوم وازفت الساعة
اقول سأسقط اشعة الشمس
واغطي بالظلام وجه الارض
ان من ولد في يوم مطير
سيدفن في يوم عطش
ومن سار على درب كثير الماء
سيرجع على طريق ترب
سأكلم ملك الالهة ( مردوخ ) واقول له :
لا تخرج من البيت الذي دخلت فيه
لاني سأنجز اوامرك بكل امانة
وعندما يتضرع الك « ذوو الرؤوس السود »
فلا تقبل دعواتهم
اني سأدمر المنازل كلها واحيلها الى خرائب
سأحطم الجبال وابيد مواشيها
واجعل البحار تضطرب وادمر ما تنتج
سأحطم كل جبال واجعل الناس صرعى وابيد كل المخلوقات »

هنا يحاول ايشوم ان يقنع سيده ايرا بالتروي والكف عن قتل الناس وتدمير بابل ولكن دون جدوى . فاله الطاعون لم يترك المدينة الا وهي خرائب متناثرة تبعث على الحزن والاسى بحيث لما رجع اليها مردوخ هاله منظرها فراح يبكي ويصرخ بأعلى صوته واسفاه على بابل ! واسفاه على بابل !

ويتابع الاله ايرا حملته ضد مدن أخرى مثل الوركاء وسبار والدير

محدثا فيها من الخراب والدمار مثلما احدث في بابل . فهاهو يتحدث الى نفسه فيقول :

« سأمعن في القتل والانتقام
سأقتل الولد
واقتل الوالد
ولن يكون له من يدفنه
من ابتنى بيتا وقال في نفسه
هوذا منزلي
لقد بنيته لاستريح فيه
ويوم يأخذني القدر سأرقد في وسطه
هذا الرجل سأميته واخرب منزل راحته
وبعد ان يصبح خرابا سأعطيه لرجل آخر ... »

ويحاول ايشوم مرة أخرى ان يهدىء من غضب سيده اله الطاعون فيذكره بتماديه في القتل والتخريب ويناشده ان يتوقف عن ذلك فورا :

« يا ايرا العظيم
لقد أمت التقي
وامت غير التقي
لقد امت من اخطأ اليك
وامت من لم يخطىء اليك
لقد امت من احرق البخور للالهة
امت الجلساء والمقربين من الملك
امت شيوخ المجلس
امت الصبايا

وها انت ترفض ان تستريح وما زلت تقول في نفسك :

سأقتل القوي

واصرع الضعيف ...

سأقتلع الصارية لتضيع السفينة

واحطم المرساة فلا تقترب قط من الشاطىء ...

سأجعل الثدي ينشف فلا يعيش وليد

واجعل المنابع تنشف فلا تجلب الانهار الفيض

سأقتلع جذور الاشجار فلا تنمو الثمار

واقتلع اسس الجدران لكي تتهاوى قممها »

تذكر القصيدة في أجزائها الاخيرة ان ايشوم استطاع من خلال استعطافه المستمر لسيده الاله ايرا ان يذهب عنه غضبه ويجعله يتوقف عن قتل الناس وتخريب منازلهم وأكثر من ذلك فقد قبل الاله ان يخص الاكديين بعنايته وحمايته دون بقية الشعوب الاخرى وان يضمن لهم تكاثرا في السكان وغلبة على الاعداء وازدهارا لمدينة بابل لكي يعلو شأنها بين كل مدن العالم .

جدير بالذكر هنا ان هذه القصيدة البابلية عن عقب اله الطاعون ايرا قد جاءت مذيلة بأسم ناظمها المسمى كبتي — ايلاني — مردوخ Kabti - iloni - Marduk بن دابيدو Dabidu الذي قال بان الاله مردوخ نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة وانه عندما استيقظ كتبها كما سمعها ولم يضف اليها أو ينقص منها شيئا . واغلب الظن ان القصيدة نظمت بعد غزو العيلاميين لبلاد بابل الذي انهى حكم السلالة الكشية في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهي بذلك تعكس ويلات الغزو الذي تعرضت لها البلاد .

وفي التوراة أيضا يجد الباحث أمثلة كثيرة جدا على غضب الرب وانزال عقابه في بني اسرائيل فيسلمهم الى جحافل الاعداء على غرار ما رأينا تفاصيله في النصوص المسمارية التي جئنا على ذكرها ٠ ولتوضيح ذلك نكتفي باقتباس المقطع الآتي من سفر الملوك الثاني ( الاصحاح ٧١ ) الذي يتحدث عن عصيان بني اسرائيل أوامر الرب واقترانهم أعمالا قبيحة وعبادتهم الاصنام ٠٠٠ مما كان سببا في غضب الرب وتسليط الاشوريين عليهم الذين سبوهم الى بلاد آشور :

« وكان ان بني اسرائيل اخطأوا الى الرب الههم الذي اصعدهم من ارض مصر وعمل بنو اسرائيل سرا ضد الرب الههم امورا ليست بمستقيمة ٠٠٠ وعبدوا الاصنام التي قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الامر ٠ واشهد الرب على اسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الانبياء وكل راء قائلا ارجعوا عن طرقكم الرية واحفظوا وصايا فرائضي حسب كل الشريعة التي اوصيت بها آباءكم والتي ارسلتها اليكم على يد عبيدي الانبياء ٠ فلم يسمعوا بل صلبوا اقضيتهم كأقضية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب الههم ٠ ورفضوا فرائضه وعهده ٠٠٠ فغضب الرب جدا على اسرائيل ونحاهم من أمامه ٠٠٠ فرذل الرب كل نسل اسرائيل واذلهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من امامه ٠٠٠ فسبى اسرائيل من ارضه الى آشور الى هذا اليوم ٠ واتى ملك آشور بقوم من بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم واسكنهم في مدن السامرة عضوا عن بني اسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها ٠٠٠ »

**الهوامش :**

1p Speiser, "Mesopotamia" Motifs in Early Chapters of Genesis, Expedition, vol. 5 (1962), p. 70 ff.

٣ ـ يعني اسمه في الاكدية « كثير او غزير الحكمة » وهو نظير « زيوسدرا » في قصة الطوفان السومرية و « اتنابشتم » في قصة الطوفان كما ترويها ملحمة جلجامش ·

٤ ـ اله الرعد والامطار ·

٥ ـ الهة الحبوب ·

٦ ـ يراد بكلمة azag في السومرية والتي استعيرت في الاكدية بشكل azakku نوع من الشياطين أو الارواح الخبيثة ، كما استخدم اللفظ للدلالة على المرض الذي يسببه هذا النوع من الشياطين ، انظر مزيدا من التفاصيل في :
The Chicago Assyrian Dictionary, Vol. I, Part 2, P. 325 ff.

٧ ـ يظهر ان المجاعة بلغت حدا بحيث أصبح الاباء يتركون ابناءهم خارج البيوت في الشوارع ـ وجدير بالذكر ان هناك نصوص مسمارية تتحدث عن بيع الابناء والنساء في اوقات الظروف العصيبة كان تتعرض المدينة للجاعة بسبب حصار عسكري · فنحن قرأ في نصوص من نفر ان طفلة في هذه المدينة بيعت بسعر ٢٢ شغلا من الفضل ( الشغل يساوي ٨ر٤ غم ) وبحضور امها المسماة Ima-Nippur حول مزيد من التفاصيل انظر :
Oppenheim, "Siege documents from Nippur, Iraq XVII (1955), 69 — 89.

٨ ـ سفر التكوين ٤٦ : ٣٠ ـ ٣١ ·

9 — Speiser, "The Epic of Gilgamesh " in ANET, P. 84 — 85 lines 101 ff.

١٠ـ حول قصيدة « العنة اكد » انظر :
Kramer, "The Curse of Agade" in ANET, PP. 646 — 651.

١١ـ حول مرثية اور انظر :

١٢ـ بخصوص هذه القصيدة البابية عن اله الطاعون ايرا ، انظر :
Kramer, "Mythologies of the Ancient World", 1961, PP. 127 - 135.

ثم انظر الترجمة العربية للاب البير ابونا ود. وليد الجادر : المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين – مختارات من النصوص البابلية (١٩٨٨) ص ١٢٢ وما بعدها .

# زيادة الخليفة العباسي المهدي
# في المسجد الحرام

الاستاذ الدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

تعتبر الاعمال المعمارية التي قام بها الخليفة العباسي محمد المهدي أهم ما اقيم في المسجد الحرام من زيادة وبناء ذلك انها تعادل عموم الزيادات التي زيدت بهذا المسجد منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) حتى نهاية زيادة أبي جعفر المنصور • بالنظر لاهمية زيادة الخليفة المهدي فقد كرسنا هذا البحث في أعماله المعمارية بالمسجد الحرام • وسوف يتناول البحث النقاط الآتية :

أ ـ المسجد الحرام قبل عصر المهدي

ب ـ زيادة المهدي الاولى

حـ ـ زيادة المهدي الثانية

## أ ـ المسجد الحرام قبل عصر المهدي :

تشير النصوص التأريخية التي تناولت المسجد الحرام ، أن هذا المسجد وسع قبل الخليفة المهدي ، خمس مرات ، اثنتان منها جرت في العصر الراشدي ، واثنتان في العصر الاموي ، والخامسة في العصر العباسي • وسوف نحاول أن نلم بايجاز هذه الزيادات الخمس لكي نتبين اهمية زيادة الخليفة المهدي •

قام بالزيادة الاولى في العصر الراشدي ، الخليفة عمر بن الخطاب ( رضي الله عنه ) في عام ١٧ هجرية (٦٣٨م)(١) . وقد لاحظ الخليفة أن الدور كانت محدقة بالمسجد الحرام من كل جانب وكان دخول الناس الى المسجد من أبواب بين تلك الدور (٢) . فاشترى دورا من تلك الدور الملاصقة للمسجد وهدمها ، وأدخل أرضها في أراضي المسجد . وجعل الخليفة عمر (رض) حول الكعبة حائطا قصيرا كانت توضع عليه المصابيح للانارة(٣) . والزيادة الراشدية الثانية تمت على يد الخليفة عثمان بن عفان ( رضي الله عنه ) عقب زيارته للمسجد الحرام معتمرا في سنة ٢٦ هجرية . وقد لاحظ بنفسه ضيق المسجد بالمصلين ، فاشترى دورا من تلك الدور التي كانت تحدق بالمسجد الحرام ، فهدمها وأدخل أرضها في أراضي المسجد أيضا(٥) . وجعل الخليفة عثمان بن عفان (رض) لاول مرة ، للمسجد الحرام أروقة تحيط به ، بعد أن كان من قبل عبارة عن فضاء يحيط بالكعبة من غير اروقة ، ولا سقف يحمي المصلين من المطر ويقيهم لهيب أشعة الشمس(٦) .

ومقدار المساحة المضافة الى المسجد الحرام في زيادتي عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ( رضي الله عنهما ) فأننا لا نعرف تحديدها على وجه الدقة ، واذا شاء أي باحث أن يحددها فأن ذلك سيكون ضربا من التخمين .

والزيادتان الثالثة والرابعة التي جرت في المسجد الحرام في العصر الاموي فقد تمت الثالثة على يد عبدالله بن الزبير(٧) ، والرابعة على يد الخليفة الوليد بن عبدالملك ، وكان الخليفة عبدالملك بن مروان قد عمر في المسجد من دون زيادة .

باشر عبدالله بن الزبير أعمال الزيادة في المسجد الحرام بعد فراغه من تجديد الكعبة المشرفه والتي تمت في سنة ٦٤ هجريه (٦٨٣م) ، بعد حدث الحريق الذي اصابها(٨) ٠

ويروي الازرقي(٩) ، وينقل عنه ابن ظهيرة(١٠) ، واصفا حالة المسجد الحرام قبل ان يزيد عبدالله بن الزبير فيه ، بأنه كان محاطا بجدار قصير غير مسقف [ هو الحائط الذي جعله الخليفة عمر (رض) وقد اشرنا اليه ] يحبس الناس حول المسجد بالغداة والعشي ، ثم يذكر الازرقي أن ابن الزبير اشترى بعض دار المؤرخ الازرقي(١١) ، التي كانت ملاصقة للمسجد الحرام ٠ ويروى الازرقي عن جده بأنه سمع بأن ابن الزبير قد سقف المسجد ، ولكنه لا يعلم أسقفه كله أم بعضه(١٢) ٠

أما زيادة الخليفة الاموي الوليد بن عبدالملك ، فانها تمت على الاغلب في عام ٩١ للهجرة ، حيث أدى فيها الخليفة فريضة الحج(١٣) . وأمر بنقض ما قام به والده عبدالملك ، واعاد عمارته بصورة محكمة ٠ ويشير الازرقي ، بأن الوليد جلب للمسجد الحرام الاساطين الرخام لاول مرة(١٤) ، وجعل له عقودا قائمة على أعمدة الرخام ، وحلى أعلى وجوه هذه الطيقان بالفسيفساء وأزر المسجد من الداخل بالرخام ، وسقفه بالساج المزخرف وكسى تيجان الاعمدة بالذهب ٠

ويذكر الازرقي بأن الوليد جعل للمسجد شرافات ، ويؤيد ابن ظهيرة القرشي هذه الرواية ، الا أن الفاسي يذكر « سرادقات » وقد ادرك المرحوم باسلامة وقوع الفاسي في خطأ نتيجة المشابهة بين الكلمتين(١٥) ٠ أما مقدار المساحة المضافة في زيادة الوليد هذه فلا يمكن تحديدها ، والذي يبدو أن جلب الاساطين واقامتها يوحي بأن الاضافة تمت على شكل

رواق ، أما الجهة التي اقيم فيها هذا الرواق فلا يمكن تحديد موضعها على وجه الدقة • ويشير باسلامه بأنها كانت في الجانب الشرقي(١٦) •

اما عمارة الخليفة عبدالملك فقد نفذت قبل زيادة الوليد ، وانها تمت بعد مقتل عبدالله بن الزبير ، اذ تهدمت بعض أقسام المسجد الحرام نتيجة رميه بحجارة المنجنيق التي قذف بها جيش الحصين بن نمير عليه(١٧) • ويبدو من روايات المؤرخين أن الخليفة عبدالملك لم يوسع في المسجد الحرام ، وانما قام بتسقيفه بالساج ، وزين تيجان الاعمدة بالذهب ، اذ كسى كل رأس اسطوانة بخمسين مثقالا من الذهب(١٨) •

أما الزيادة الخامسة فقد قام بها الخليفة العباسي المنصور في سنة ١٣٧ هجرية(١٩) • وتعد زيادته هذه أهم الزيادات السابقة اذ تشير الكتابة التأريخية التي تركها المنصور على باب بني جمح بأن ما اضيف للمسجد في توسعة المنصور تعدل ضعف ما كان عليه هذا المسجد من قبل(٢٠) • كما ينسب الى المنصور بناء منارة جديدة للمسجد وهي التي تعرف بأسم منارة باب العمرة(٢١) •

**زيادة الخليفة المهدي :**

قام الخليفة المهدي بزيادتين كبيرتين في المسجد الحرام ، الاولى في سنة ١٦٠ هجرية (٧٧٦م) ، والثانية في سنة ١٦٤ هجرية (٧٨٠م) ، وتعد زيادة المهدي أهم الزيادات التي جرت في المسجد الحرام ، بل انها تعتبر أكثر أهمية من جميعها ، اذ أن المساحة المضافة في زيادته تساوي جميع الزيادات التي اضيفت الى المسجد الحرام في الزيادات الخمس الماضية • وسنحاول تناول زيادة المهدي الأولى والثانية •

## ب ـ زيادة المهدي الاولى :

روى الازرقي تفاصيل هذه الزيادة فقال : « حج المهدي سنة ستين ومائة فجرد الكعبة مما كان عليها من الثياب وأمر بعمارة المسجد الحرام ، وأمر ان يزاد في اعلاه ويشترى ما كان في ذلك الموضع من الدور ، وخلف الاموال ، وامــر بالاشراف على العمارة وشراء الدور وتعويض أصحابها قاضي مكــة محمــد بن عبدالرحمن بن هشام الاوقص المخزومي ، فقــد اشترى لاهل الصدقة بثمن دورهم مساكن في فجاج مكه عوضا عنها تكون لاهل الصدقة على نفس الشروط التي كانت عليها صدقاتهم ، واشترى كل ذراع مما في الوادي بخمسة عشر دينارا • ويذكر الازرقي بأن دار الأزرق جده كانت ضمن الـدور الداخلة في الدور المضافة ، وهي يومئـذ لاصقة بالمسجد الحرام على يمين من يخرج من باب شيبة بن عثمان ، فكان ثمنها عشرة آلاف دينار ، وكان اكثرها قد دخل في زيادة ابن الزبير حين زاد فيه ، ودخلت دار خيرة بنت سباع الخزاعية أيضا في الزيادة ، وبلغ ثمنهــا ثلاثة واربعين الف دينــار دفعت اليها وكانت تطـل على المسعى يومئذ ، ودخلت أيضا دار لآل جبير بن مطعم وبعض دار شيبة بن عثمان ، فأشترى بذلك جميع ما كان بين المسعى والمسجد من الدور وهدمها ، واضاف أراضيها الى المسجد حتى أصبح شارعا الى المسعى في عهد الازرقي وجعل موضع دار القوارير رحبة لم تــزل على ذلك حتى استقطعها جعفر ابن يحيى في خلافة الرشيد فبناها ثم صارت الى حماد البربري بعد ذلك فبنى باطنها بالزجاج وبنى ظاهرها بالرخام والفيسيفساء •

هذا ما كان من زيادة المهدي في الجانب الشرقي من المسجد الحرام

مما يلي المسعى . أما ما كان من زيادته في الجانب الغربي ، فأنه اشترى دورا في أسفل المسجد الى ان انتهى به الى باب بني سهم الذي كان حدا في توسعة والده المنصور ، هو باب العمرة الى باب الخياطين الذي هو باب ابراهيم .

وكذلك زاد في الجانب الشمالي الى منتهاه ، وزاد في الجانب الجنوبي الى قبة الشراب ، وتسمى قبة العباس أيضا(٢٢) .

وكان الخليفة المهدي ، عندما عزم على توسعة المسجد الحرام قد أمر بنقل الأساطين الرخام من الشام ومصر ، فنقلت ، وحملت بحرا الى قرب جدة في موضع كان ساحلا لمكة المكرمة قبل الاسلام يقال له الشعيبة ، لان مرساه أقرب لمكة من مرسى جدة ، ثم حملت تلك الاساطين الرخام من الساحل المذكور على العربات ذات العجل الى مكة .

ولغرض اقامة الاساطين ، فقد حفرت الاسس لها ، وزيادة في تثبيت الآساطين فقد عمد المعمار الى بناء جدارات على شكل التقاطع × . وأقام كل اسطوانة على موضع التقاطع . اما اسقف أروقة المسجد الحرام فقد عملت من خشب الساج(٢٣) .

هذا ما تم في العمارة الاولى للخليفة المهدي التي استمرت اربعة سنين ، حيث انتهت في سنة اربع وستين ومائة للهجرة .

ح ـ زيادة المهدي الثانية :

يشير الازرقي أمر هذه الزيادة وسببها فيقول : « لما بنى المهدي المسجد الحرام وزاد فيه الزيادة الاولى اتسع اعلاه وأسفله وشقه الذي يلي دار الندوة الشامي ، وضاق شقه اليماني الذي يلي الوادي

والصفا »(٢٤) ٠

والذي يفهم من رواية الازرقي هذه بأن الكعبة لم تكن تتوسط فناء المسجد الحرام ، اذ اصبحت اقرب الى الجهة الجنوبية بعد أن شملت التوسعة في زيادة المهدي الاولى الجهات الشرقية والشمالية والغربية ، وما أصاب الجهة الجنوبية من التوسعة قليل جدا ، وذلك لان الجهة الجنوبية من المسجد كانت مجرى سيل وادي ابراهيم ٠ ويشير الازرقي الى ذلك بقوله : « وذلك أن الوادي كان داخلا لاصقا بالمسجد ، وكانت الدور وبيوت الناس من ورائه في موضع الوادي ، وكان يسلك من المسجد الى الصفا في بطن الوادي ثم يسلك في زقاق ضيق حتى يخرج الى الصفا من التفاف البيوت فيما بين الوادي والصفا(٢٥) ٠

« وعندما حج المهدي سنة اربع وستين ومائة ، ورأى الكعبة في شق من المسجد كره ذلك وأحب أن تكون متوسطة في المسجد ، فدعا المهندسين وشاورهم في ذلك فقالوا له : لا يمكن ذلك الا بعد أن تهدم البيوت التي على حافة السيل في مقابلة الجدار اليماني من المسجد الحرام وينقل المسيل الى أرض تلك البيوت ويدخل مجرى الوادي في المسجد الحرام ، ومع ذلك فان وادي ابراهيم له سيول عارمة وهو واد حدور يخاف ان حولناه عن مكانه أن لا يثبت اساس البناء فيه على ما تريد من الاستحكام ، فتذهب به السيول وتعلو فيه فتصب في المسجد الحرام ، ويلزم هدم دور كثيرة ، وتكثر المؤنة وتكبر ، ولعل ذلك لا يتم ٠ فقال الخليفة المهدي : لابد لي من أن أوسعه حتى أوسط الكعبة في المسجد الحرام ولو أنفقت فيه ما في بيوت الاموال ، وعظمت في ذلك نيته واشتدت رغبته ولهج بعمله ، فلما رأى المهندسون قوة عزم الخليفة وتصميمه على

الزيادة راحوا يتخذون كل سبيل في تنفيذ رغبته في جعل الكعبة المشرفة متوسطة للمسجد الحرام ، فاستعانوا بكل ما لديهم من علوم المساحة والهندسة آنذاك لتحويل مجرى سيل وادي ابراهيم عن موضعه ليصبح أمر توسعة المسجد الحرام أمرا محتما لابد منه ، فقام المهندسون والمساحون بنصب الرماح على سطوح الدور من أول الوادي الى آخره ، ثم ذرعوا المساحة من فوق الرماح وعرفوا ما يدخل ضمن مساحة المسجد منها ، وما يدخل في الوادي ، وقاسوا هذه المسافات مرة بعد أخرى حتى يتأكدوا من ضبطها(٢٦) .

وبعد أن تمت عملية تحديد المساحة المضافة دعا المهندسون الخليفة المهدي الى مشاهدة ما سيصبح عليه المسجد الحرام بعد الزيادة ، فصعد الى جبل أبي قبيس . وشاهد بنفسه موقع الكعبة في وسط المسجد . ورأى ما سوف يهدم من الدور ، وما سيجعل ممرا للسيل ، وقام المهندسون بقياس المسافات وضبطها امامه ، فأرتاحت نفسه ، وأيقن أن ما كان يريده ويرغب فيه أصبح حقيقة واقعة .

ثم غادر الخليفة المهدي الى العراق ، وخلف أموالا كثيرة لشراء الدور وتعويض أصحابها ، وتكاليف البناء ، وقد ذكر الازرقي بأن سعر الذراع المربع المضاف الى المسجد قدر بخمسة وعشرين دينارا ، وما اضيف الى الوادي قدر بخمسة عشر دينارا(٢٧) .

وأرسل الخليفة المهدي بطلب الرخام من الشام ومصر ، فنقلت أعمدة الرخام منهما في السفن الى جدة ثم حملت من جدة الى مكة على عربات ، ونشط العمال في هدم الدور وبدأ البناؤون في البناء(٢٨) .

ومما له علاقة بزيادتي الخليفة المهدي ثلاث منائر هي :

١ ـ المنارة التي على باب السلام ·
٢ ـ المنارة التي على باب علي ( كرم الله وجهه ) ·
٣ ـ المنارة التي على باب الوداع ( التي كانت تعرف سابقا بباب الحزورة ) ·

وأغلب الظن أن هذه المنائر الثلاث لم يقم الخليفة المهدي ببنائها ، وانما قام بتجديدها فحسب ، وهذا واضح من بعض الرويات التأريخية المختلفة(٢٩) · وعلى الارجح انها المنائر التي كانت موجودة حتى نهاية عصر الخليفة المنصور اضافه الى المناره الرابعة التي نميل الى أنه أنشأها · وحينما ابتدأ الخليفة المهدي بتوسعته للمسجد الحرام وجد أن ثلاثا منها تقع ضمن المساحة التي ينبغي أن تهدم حتى تستقيم توسعته ، فهدمها ثم بناها مجددا ·

وقد كان أمر بناء هذه المنائر الثلاث موضع نقاش بعض المؤرخين الذين اهتموا بتأريخ وعمارة المسجد الحرام ، فلقد ذكر الفاسي :

« وعمر ابو جعفر المنصور من منائر المسجد الحرام منارة العمرة ، وعمر ابنه المهدي منها المنارة التي على باب شيبة ، والمنارة التي على باب علي ، والمنارة التي على باب الحزورة »(٣٠) ·

ويعلق ابن ظهيرة القرشي على رواية الفاسي هذه فيقول : « المفهوم من كلام الفاسي بقوله عمر المنصور باب العمرة ، وعمر ابنه المهدي ··· الى آخره · ان مراده بذلك الترميم والتجديد لا الانشاء بدليل قوله ذلك ، وعمر الجواد جمال الدين محمد بن علي وزير صاحب الموصل منائر المسجد وكذا قوله وعمرت منارة الحزورة في زمن الاشرف شعبان صاحب مصر ، وكانت سقطت في سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وكذا قوله

وعمرت منارة بني شيبة في زمن الناصر فرج ، وذلك بعد أن سقطت في سنه تسع وثمانمائة لان السقوط يستدعي تقدم البناء قبل ذلك » (٣١) ٠

ويناقش باسلامة تعليق ابن ظهيرة القرشي فيقول : « لم يذكر ابن ظهيرة اسم الخليفة الذي أنشأها قبل المهدي ، ولا الزمن الذي انشئت فيه ، ولا الموضع الذي كانت بنيت فيه ، كما أنه لم يذكر الازرقي في تأريخه أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفن رضي الله عنهما ، انشاء منائر بالمسجد الحرام ، بل ولا ابن الزبير ، ولا عبدالملك ولا الوليد ، أنهم أنشئوا منائر في عماراتهم ، ولو فرض أنهم أنشئوا منائر في عماراتهم قبل أن ينشيء الخليفة المنصور المنارة التي بباب العمرة ، والخليفة المهدي المنائر الثلاث فلابد أن يكون موضعها ان فرض انشاؤها داخل المسجد الحرام وقد عمها الهدم مع الدور التي هدمت لاجل توسيع المسجد الحرام في عمارة المنصور ، أو المهدي ، وعلى ذلك يكون ما أنشأه المنصور وابنه المهدي من المنائر . هي انشاء مبتدأ منهما ، ولم تكن تلك المنئر لغيرهما ، ولم يكن عملهما عبارة عن ترميم وتجديد لها ، كما قال ابن ظهيرة ٠ ومما يؤيد ذلك أن عمارة المنصور وابنه المهدي اوسع نطاقا من غيرهما كما دلت على ذلك الاخبار المتقدمة ، وأن ما أنشئاه من المنائر كانت على أقصى ما وصلت اليه سعة المسجد الحرام من الزيادة(٣٢) ٠

**الهوامش :**

١ ـ ذكر الطبري في تأريخه ١٦٨/٣ تأريخ زيادة الخليفة عمر بن الخطاب (رض) في حوادث سنة ١٧ هجرية ٠ بينما لم يذكر الازرقي

في كتابه « أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار ، الى السنة · وقد اشار ابن ظهيرة القرشي في كتابه « الجامع اللطيف في فضل مكه وأهلها وبناء البيت الشريف » صفحة ١٩٨ ، الى سنة ١٧ هجرية · واشار عمر بن فهد في كتابه « اتحاف الورى بأخبار ام القرى » مخطوط ، الورقة ٢٤٩ ، الى سنة ١٧ هجرية أيضا ·

٢ ـ ابن ظهيرة القرشي ، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، طبع القاهرة ، صفحة ١٩٧ ، قطب‌الدين الحنفي الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، مطبعة السعادة ـ القاهرة ـ صفحة ٧٦ ·

٣ ـ الازرقي ، أخبار مكة وما جاء من الاثار ، طبع مكة ١٣٥٧هـ ٢/٥٤ ـ ٥٥ ، الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، طبع القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م ، ٣/١٦٨ ، ابن ظهيرة القرشي ، المصدر السابق ـ صفحة ١٩٧ ·

٤ ـ روى الطبري في تاريخه ٣/٣١٠ ، وابن الاثير في « الكامل في التأريخ » أمر هذه الزيادة في حوادث سنة ٢٦ هجرية ، كما أشار الى هذه السدة كل من ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف ، صفحة ١٨٩ ، والتقي الفاسي في شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، ١/٢٢٤ ، وعمر بن فهد في كتابه « اتحاف الورى بأخبار ام القرى » مخطوط ، الورقة ٢٥٣ ، وقطب‌الدين ، الاعلام ـ صفحات ٧٦ ـ ٨١ ·

٥ ـ الازرقي ـ المصدر السابق ـ ٢/٥٥ ، الطبري ـ المصدر السابق ٣/٣١٠ ، ابن ظهيرة القرشي ، المصدر السابق ـ صفحات ١٩٧ ـ ١٩٨ ·

٦ ـ باسلامة ـ تأريخ عمارة المسجد الحرام صفحة ٤١ ·

٧ ـ ادرجنا زيادة عبدالله بن الزبير ضمن زيادات العصر الاموي · ذلك أن زيادته تمت في عصر الدولة الاموية فحسب ، ولم يوجه من قبل السلطة الاموية ·

٨ ـ تشير النصوص التأريخية بأن حريق الكعبة حصل أثناء حصار الجيش الاموي بقيادة الحصين بن نمير من قبل الخليفة الاموي يزيد لعبدالله بن الزبير وأتباعه حيث التجأ الى المسجد الحرام معتصماً به · يشير الازرقي في كتابه « أخبار مكة » ١/١٢٩ الى سبب الحريق فيذكر بأن مسلم بن أبي خليفة المذحجي من أتباع ابن الزبير كان يوقد مع أصحابه في خصاص لهم حول البيت ، فأخذ نارا في زج رمحه في النفط وكان يوم ريح فطارت منه شرارة ، فأحترقت الكعبة ، ويروي الواقدي ١ / ١٢٩ مؤكدا هذه الرواية عن عبدالله بن يزيد عن عروة بن اذينة قال : قدمت مكة مع أبي يوم احترقت الكعبة ، فرأيت الخشب قد خلصت اليه النار ، ورأيتها مجردة من الحريق ورأيت الركن قد اسود فقلت ما أصاب الكعبة ؟ فأشاروا الى رجل من أصحاب ابن الزبير فقالوا : هذا احترقت الكعبة في سببه · أخذ نارا في رأس رمح له فطارت به الريح فضربت أستار الكعبة فيما بين الركن اليماني والركن الاسود ·

٩ ـ أخبار مكة ، ٢/٥٥ ـ ٥٦ ·

١٠ـ الجامع اللطيف ، صفحة ١٩٨ ·

١١ـ يذكر الازرقي عن جده في كتابه « اخبار مكة » ٢/٥٥ رواية شراء

هذه الدار ، وينقل عنه قطب‌الدين في كتابه « الاعلام » صفحة ٨٥ ، فيشير بأن عبدالله بن الزبير كتب الى أخيه مصعب بالعراق ليدفع ثمن شراء الدار ، فركب رجال منا فوجدوا مصعبا يقاتل عبدالملك بن مروان فلم يلبثوا الا يسيرا حتى قتل مصعب ، فرجعوا الى مكة ، وجعل ابن الزبير يعدنا ويدفعنا حتى جاءه الحجاج فحاصره ، فقتل فلم نأخذ شيئا ، فكلمنا في ذلك الحجاج بعد قتل ابن الزبير فقال : انا أرد عن ابن الزبير ٠

١٢ـ الازرقي ، المصدر السابق ، ٥٦/٢ ٠

١٣ ـ الطبري ٢٤٤/٥ ٠ لم يذكر المؤرخون تاريخ زيادة الوليد بن عبدالملك ، وقد رجحنا قيامه بهذه الزيادة في نفس السنة التي ادى بها مناسك الحج ٠

١٤ـ يعلق ابن ظهيرة القرشي في الجامع اللطيف ، صفحة ١٩٨ على قول الازرقي بأن الوليد أول من نقل للمسجد اساطين الرخام ، ويشير الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » ٢٢٥/١ ـ ٢٢٦ ، خلاف ذلك مؤكدا بأن عبدالملك قد جعل في رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب ، وهذا معناه وجود الاساطين قبل الوليد ، ويشير بانها ربما كانت من عمل عبدالله بن الزبير أو الخليفة عبدالملك بن مروان وقد حاول ابن ظهيرة القرشي في كتابه « الجامع اللطيف » صفحة ١٩٨ أن يجمع بين تاكيد رواية الازرقي ومخالفة التقي الفاسى لها ٠ فيقول بأن الازرقي لم يذكر بأن الاساطين التي كسيت رؤوسها بالذهب في زمن عبدالملك بن مروان كانت من الرخام ٠ أو من المحتمل أنها كانت من الحجارة أو الخشب ٠ ويستشهد

ببعض الروايات التي تشير الى ان بعض الاساطين في المسجد الحرام كانت خشبية ·

١٥ـ باسلامه · تاريخ عمارة المسجد الحرام · صفحات ٤٨ ـ ٤٩ ·

١٦ـ نفس المصدر صفحة ٤٩ ·

١٧ـ للتفاصيل راجع : الازرقي المصدر السابق ١/١٢٩ ـ ١٣٧ ·

١٨ـ الازرقي ، المصدر السابق ١/٥٧ · ابن ظهيرة القرشي · المصدر السابق صفحة ١٩٨ · باسلامة · المصدر السابق صفحة ١٩ ·

١٩ـ يراجع في تفاصيل زيادة الخليفة المنصور المصادر :
الازرقي · المصدر السابق ٢/٥٧ ـ ٥٩ · التقي الفاسي · المصدر السابق ١/٢٢٤ ـ ٢٢٥ · ابن ظهيرة القرشي · المصدر السابق صفحة ١٩٩ · قطب الدين · المصدر السابق · صفحات ٨٩ ـ ٩٠ السنجاري منائح الكرم · مخطوط ورقة ٢٠٥ ·

٢٠ـ ذكرت الكتابة التذكارية التي أرخت توسعة المنصور في العديد من المصادر منها :
الازرقي · المصدر السابق ٢/٥٧ ـ ٥٩ ·
التقي الفاسي · شفاء الغرام ١/٢٢٤ ـ ٢٢٥ ·
ابن ظهيرة القرشي · المصدر السابق · صفحة ١٩٩ ·
قطب الدين · المصدر السابق · صفحات ٨٩ ـ ٩٠ ·
السنجاري · منائح الكرم · مخطوط · ورقة ٢٠٥ ·

٢١ـ الازرقي · المصدر السابق ٢/٥٨ · للتفاصيل راجع بحثنا الموسوم « توسيع المسجد الحرام في عهد الخليفة العباسي المنصور » مجلة المؤرخون العرب ، العدد (١٩) ـ ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م ، صفحات ٥٣ ـ ٦٠ ·

٢٢ـ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٥٩ ـ ٦١ ٠ باسلامة ٠ المصدر السابق صفحة ٥٢ ـ ٥٤ ٠

٢٣ـ نفس المصدر ٠

٢٤ ـ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٨٠ ٠

٢٥ ـ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٨٠ ٠

٢٦ ـ نفس المصدر ٠ باسلامة ٠ المصدر السابق ٠ صفحات ٥٥ ـ ٥٦ ٠

٢٧ـ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٨٠ ٠

٢٨ـ الازرقي ٠ المصدر السابق ٢/٥٩ ـ ٦١ ٠ باسلامه ٠ المصدر السابق صفحة ٥٣ ٠

٢٩ـ ابن ظهيرة القرشي ٠ الجامع اللطيف ٠ صفحة ٢٠٥ ٠ الفاسي ٠ شفاء الغرام ١/٢٤٠ ٠

٣٠ـ الفاسي ٠ شفاء الغرام ١/٢٤٠ ٠

٣١ـ ابن ظهيرة القرشي ٠ المصدر السابق ٠ صفحة ٢٠٥ ٠

٣٢ـ باسلامة ٠ المصدر السابق ٠ صفحات ٣٧ ٠

# مسجد الرسول (ص) في المدينة
# (حتى نهاية العصر الأموي)

الدكتور غازي رجب محمـد
قسم الاثار - كلية الآداب
جامعة بغداد

لعبت المساجد دورا كبيرا ومهمـا في حيـاة المسلمين وفي تطـور حضارتهم وعمارة مدنهم • ولم تكن في بداية بزوغ الاسلام في مكة مكان خاص لاقامة الصلاة والشعائر الدينية فقد كانت تقام بصورة سرية في شعاب مكة(١) أو في البيوت الخاصة(٢) كما اقيمت الصلاة قرب الكعبة(٣) وقد كانت القبله حينذاك باتجاه بيت المقدس(٤) •

وقبل هجرته (ص) كان الناس في المدينة يصلون في مكان خصص لهـذا الغرض يعرف باسـم « المـربد »(٥) وكانت قبلتهم باتجاه بيت المقدس(٦) •

وفي طريق هجرته (ص) الى المدينة عرج على « قبـاء » التي تبعـد حوالي ثلاثة أميال عن المدينة المنورة • وفي المكان الذي كانوا يصلون فيه قبل وصوله اسس (ص) أول مسجد فيها(٧) • واغلب الظن انه كان ساحة خالية من البنـاء يحيطها سياج من الحجارة غـير المنتظمة(٨) • وقبلته باتجاه بيت المقدس كذلك(٩) • كما صلى النبي (ص) أول صلاة جمعة في بني سالم(١٠) •

وواصل الرسول (ص) طريقه الى المدينة المنورة ممتطيا ناقتــه القصــواء التي بركت عنــد دار أبي ايوب الانصاري الذي حظي بشـرف استضافة النبي (ص) في داره عدة اشهر(١١) وكان (ص) خلالها يصلي مع المسلمين في « المربد » او في الموضع الذي تدركه فيه الصلاة(١٢) ثم قرر بنــاء المسجد وبيوته في « المربــد »(١٣) ليكون في « وسط حـرم المدينة »(١٤) ٠

وبعد ان ابتاع النبي (ص) « المربد » من مالكيه امر (ص) بالنخل فقطع وبالحرث فافسد وبالقبور فنبشت ثم وضــع حجـر الاساس(١٥) وتولى (ص) بناءه مع أصحابه من المهاجرين والانصار ليرغب المسلمين في العمل فيه(١٦) ٠

ويروى ان الرسول (ص) أحاط المسجد بجدار ولم يجعل له سقفا ولا اساطين وجعل قبلته الى بيت المقدس(١٧) ٠ وكانت الجدران من اللبن مبنية بالسميط ( لبنة على لبنة ) فوق اسس من الحجارة قريبا من ثلاثة اذرع على الارض ٠ ثم ان المســلمين كثـروا فبنوه بالســعيدة ( لبنــة ونصف )(١٨) وكانت قياسات هذا المسجد حوالي ٧٠ × ٦٠ ذراعا(١٩) ( شكل ١ ) ٠

وشكي المسلمون شدة الحر وقت الصلاة فبنى لهم الرسول (ص) في الجهة الشمالية شقيفة من الجريد والخصف والاذخر محمولة على سوار من جذوع النخل(٢٠) ٠ واصابت المسلمين الامطار فجعل المسجد يكف عليهم فطينوه بالطين(٢١) ٠ وكان جداره قبل ان يظلل قامة وشيئا « فكان اذا افاء الفيء ذراعا وهو قدمان يصلي الظهر فاذا كان ضعف ذلك صلى العصر »(٢٢) ٠

وفتح في سور المسجد ثلاثة مداخل ، باب عثمان ( باب جبريل ) في الجهة الشرقيه وباب عاتكــة ( باب الرحمة ) في الجدار الغربي اما الثالث فقد فتح في الجدار الجنوبي لكنه اغلق بعد تحويل القبله وفتح باب آخر عوضا عنه في الجهة الشمالية(٢٣) ٠

وكان للرسول (ص) في البداية بيتان احدهما لعائشة (رض) في الزاوية الجنوبية للجهة الشرقية والبيت الثاني لســودة الى الشمال من الاول(٢٤) ٠ وكانت هــذه البيوت في زيادة مطردة مع زيادة عدد زوجاته (ص) لتصل الى تسع بيوت(٢٥) مرتبــة الى جانب بعضها من الجنــوب الشرقي الى الشمال الشرقي ولكل منها باب واحد شارع في المسجد عليه المسوح من شعر اسود عدا بيت عائشة فقد كان فيه بابان ثانيهما يفضي الى الخارج(٢٦) ٠ واربعة من هذه البيوت مبنية باللبن ولها حجرات من جريد النخل والخمسة الباقية مبنية بالجريد مطرورة بالطين ولا حجرات لها(٢٧) ٠ ويبدو ان هذه البيوت كان يفصلها عن المسجد حاجز(٢٨) فهي « ليست من المسجد »(٢٩) ٠

وظلت القبلة باتجــاه بيت المقــدس الى ان تحــولت الى الكعبــة المشرفة(٣٠) حينئذ اضيفت سقيفة ثانية في الجهة الجنوبية من المسجد لتظــل المصلين وتركت السقيفة الاولى لايواء من سموا « بأهل الصفة » ممن لا مأوى لهم من المهاجرين « وقبل كانت بظلته ثلاثة اروقة اي ثلاثة اساكيب وكانت بــه ست اســاطين ثلاثا الى يميــن المنبــر وثلاثا الى يساره »(٣١) ٠ وسمي هذا المســجد بــ « مســجد القبلتين »(٣٢) ٠ ( شكل ٢ ) ٠

وكان الناس في البداية يحضرون الصلاة من غير اذان وعندما نودي به لم يكن هناك متذنه يلقى من فوقها فكان بلال مؤذن الرسول (ص) يؤذن من أعلى سطح مجاور للمسجد(٣٣) ·

وقد بقي المسجد على حالته الاولى حتى السنة التاسعة للهجرة (٦٣٠م) اذ وسعه النبي (ص) وبنى جداره بالذكر والانثى ( لبنتين مختلفتين )(٣٤) · (شكل ٣) وأصبحت مساحته (١٠٠ × ١٠٠ ذراع) « وكانت تمتد في ظلته حينذاك ثلاثة صفوف من تسع سوار من جذوع النخل »(٣٥) وادخل اليه منبر من خشب الاثل(٣٦) · (شكل ٤)

وبقي المسجد على حاله زمن الخليفة أبي بكر الصديق عدا تجديد بعض أعمدته(٣٧) وفي زمن الخليفة عمر بن الخطاب (رض) حدث فيه تغيير مهم في السنة السابعة عشرة للهجرة (٦٣٨م) اذ اعاد بناءه بنفس التخطيط الذي كان عليه زمن الرسول (ص) وبنفس مادة البناء ووسعه من جميع الجهات عدا الجهة الشرقية حيث بيوت ازواج الرسول (ص)(٣٨) وفتح في جدرانه ثلاثة مداخل أخرى اضافة الى الثلاث الاولى واصبحت مساحته ( ١٢٠ × ١٤٠ ذراعا ) (٣٩) وكان عمر (رض) أول من حصب المسجد(٤٠) ونقل اليه الحصباء من العقيق(٤١) ·

وفي السنة التاسعة والعشرين للهجرة (٦٤٩م) اهتم الخليفة عثمان بن عفان (رض) بهذا المسجد اهتماما كبيرا ووسعه في الجهات الشمالية والجنوبية والغربية وبنى جدرانه بالحجارة المنقوشة والقصة واعمدته من الحجارة المنقوشة وسقفه بخشب الساج وبيضه بالقصة التي كانت تحمل اليه من بطن نخل(٤٢)واصبحت مساحة المسجد ١٦٠ × ١٥٠ ذراعا(٤٣)

وجعل فيه طاقات مما يلي الشرق والغرب وبنى المقصورة بلبن وجعل فيها كوى ينظر الناس منها الى الامام ، وقد اتخذها عثمان خوفا من ايدي اصحاب عمر ( رضـ ) وكانت صغيرة (٤٤) ، وجعل ابواب المسجد ستا كما كانت ايام عمر (رض)(٤٥) . ومات عثمان ولم يكن في المسجد شرافات ولا محراب مجوف(٤٦) .

يظهر مما تقدم ان هذا البناء لم يكن جزءاً من البيوت التي شيدها النبي (ص) في هذا المكان بل شيده ليكون من أول يوم مسجداً لاقامة الشعائر الدينية ومكانا لاجتماع المسلمين والتداول في شؤونهم الدينية والدنيوية(٤٧) . وهذا « لا يتفق ورأي عدد من المستشرقين والباحثين القائلين ان الرسول (ص) لم يبن مسجدا بل بنى دارا للسكن اكتسب صحنه بمرور الزمن صفة عامة ليصبح بعد مضي عشرات السنين مكانا للعبادة يعرف باسم المسجد(٤٨) والحقائق التالية تؤكد ما ذهبنا اليه :

١ ـ تشير معظم الروايات التاريخية(٤٩) الى ان المسجد كان « مربدا » يصلي فيه المسلمون قبل مقدم الرسول (ص) الى المدينة وبقي على حاله بعد وصوله (ص)(٥٠) .

٢ ـ بنى (ص) بيوته ملاصقة للمسجد ليكون على صلة دائمة بالمسلمين وكان يلاصق المسجد أيضا بيوت بعض الصحابة الذين هاجروا معه وكان لها منافذ على المسجد مما يوضح طبيعة البناء وانه ليس صحناً لبيوت النبي (ص) وواضح قبل الاسلام ان لكل قبيلة مجلسها ( ديوانها ) الخاص مستقلا عن دار شيخ القبيلة فحل المسجد محل الديوان في العصر الاسلامي تقام فيه الصلاة وتعقد فيه الاجتماعات .

٣ ـ بناء مسجد قباء قبل وصوله (ص) الى المدينة دليل على اهمية

المسجد وضرورة بنائه في المدينة بعد وصوله (ص) لجمع المسلمين فيه واقامة الشعائر الدينية ومنها صلاه الجمعة التي فرضت على المسلمين قبل دخوله (ص) المدينة ٠

٤ ــ لو كان هذا المسجد في الاساس صحنا خاصا ببيوت النبي (ص) لما فتح في سوره ثلاثة مداخل ولاكتفى بمدخل واحد كغيره من بيوت الجزيرة العربية وبلاد الشام(٥١) ٠

٥ ــ فتح بابين في بيت عائشة الذي بني مع المسجد يؤكد خصوصيه كل منما كما ان وجود حجرات في عدد من بيوته (ص) يوضح استقلال كل منها(٥٢) ٠

٦ ــ تغير اتجاه القبلة وما تبعه من تغييرات في مرافق البناء اضافه الى التوسعات المتتالية التي اجريت زمن النبي (ص) والخلفاء الراشدين من بعده كلها تؤكد ان الرسول (ص) بنى مسجدا مستقلا ٠

٧ ــ لو كان الذي بناه الرسول (ص) بيتا اتخذ صحنه مسجدا لاقتفى اثره الولاة في المدن والامصار الجديدة ولما بنوا دورهم مستقلة عن المساجد ٠

٨ ــ ادعى كايتاني ان المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد الاقصى في بيت المقدس هما المسجدان الوحيدان اللذان ذكرا في القرآن الكريم(٥٣) وادعى أيضا نه لا توجد كلمة واحدة حول مسجد في المدينة المنورة(٥٤) ونسي الايات التي تشير الى مسجد التقوى ومسجد الضرار(٥٥) اضافة الى الايات الكريمة التي تشجع بناء المساجد والتي جميعها تحتم بناء مسجد في المدينة(٥٦) ٠ اما اقامة صلاة عيد الاضحى في « المصلى » خارج المدينه مرة واحدة في العام(٥٧) فهي لا تعنى عدم وجود مسجد في المدينة تقام

فيه الصلوات اليومية وصلاة الجمعة ٠

ونتيجة للقلاقل والاضطرابات التي أعقبت مقتل الخليفة عثمان ابن عفان (رض) توقفت العناية بالمسجد النبوي والزيادة فيه وبدأ بضيق بالمصلين الذين كانوا يدخلون حجرات زوجات النبي (ص) بعد وفاته يصلون فيها الجمعة(٥٨) وهي « ليست من المسجد ولكن ابوابها شارعة في المسجد »(٥٩) ٠

واستمر المسجد على هذه الحال حتى زمن الخليفة الاموي الوليد ابن عبدالملك الذي يعتبر من انشط الخلفاء الامويين في ميدان البناء والتعمير ، فقد اعاد بناء هذا المسجد ووسعه واظهره بمظهر جميل فريد بما اضاف اليه من عناصر عمارية جديدة وما كسي به جدرانه من زخارف(٦٠) ٠

بدأ بتوسيع الجامع سنة ٨٧هـ أو ٨٨هـ (٧٠٦ أو ٧٠٧م)(٦١) وكان عمر بن عبدالعزيز واليا على المدينة قبل ان ينادي به خليفة « وامر الوليد بادخال حجر ازواج النبي (ص) فاشترى عمر من الدور ما زاده في ثلاث جهات من المسجد »(٦٢) ٠

وقام بهدم المسجد والدور عمال من المدينة وآخرون بعث بهم الوليد ابن عبدالملك من بلاد الشام(٦٣) فلما بلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والانصار في المدينة فقال عمر « احضروا بنيان قبلتكم لا تقولوا غيرها عمر »(٦٤) وجعل لا ينزع حجرا الا وضع مكانه حجرا(٦٥) والمحراب لا يتوسط جدار القبة بل يميل الى جهة الشرق حوالي عشرون ذراعا(٦٦) والمسجد الجديد طوله ٢٠٠ ذراعا وعرضه في مقدمه ٢٠٠ ذراعا وفي مؤخره ١٨٠ ذراعا(٦٧) ، وأصبح لبيت الصلاة خمسة أساكيب

بكل منها صف من سبعة عشر عمودا مكونة ثمان عشرة بلاطة اما الاروقة الشمالية فقد كانت اربعا بكل منها صف من سبعة عشر عمودا كما جعل للمسـجد مجنبتين الشرقية من ثلاثة اروقـة والغربيـة اربعـة(٦٨) · (شكل ٥) ·

وكان البنـاء « بالحجـارة المنقوشـة المطابقـة »(٦٨مكرر) وازرت جدرانه بالواح الرخام المجزع والجزء العلوي منزل كله بفصوص الذهب والفسيفساء تضمنت تصاوير الاشجار مائلة الاغصان بثمره(٦٩)
وقـال بعض الذيـن عملـوا الفسيفساء « انـا عملنـاه على مـا وجدناه من صور الجنة وقصورها وكان عمـر اذا عمـل العامل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء وأحسن عملها نفله ثلاثين درهما »(٧٠) · ويبدو ان الوليد استعان بعمال وبفسيفساء وذهب من بلاد الروم للمساعدة في انجاز هذا العمل الضخم(٧١) ·

وجعل عمـر بن عبدالعزيز في هذا المسجد محرابا مجوفا ونصب الشرافات في أعالي الجدران « بينهـا فرج شبـه طاقات الشباك »(٧٢) وجعل المقصورة بارتفاع ذراعين من خشب الساج وكانت قبل من حجر(٧٣) واحاط الصحن بمجنبتين(٧٤) كما اضاف اربعة مآذن في الاركان الاربعة المسجد وكانت احداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبدالملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فأمر بهدمها الى ظهر المسجد(٧٥) ·

وسجل الوليد اسمه على جدران المسجد(٧٦) ليخلد ذكـره بهـذا العمل الجبار الذي بلغت تكاليفه أربعين الف دينار(٧٧) ·
وبعد انتهائه من مناسك الحج في مكة المكرمة زار الخليفة الوليـد

برفقة ابان بن عثمان مدينة الرسول (ص) وقد كمل بنـاء المسجد سنة ٩١هـ/٧٠٩م(٧٨) · وكانا يتجولان فيه فسأله الوليد عن رأيه في البناء الجديد مفاخرا فرد عليه ابان بأباء ان والنه عثمن بناه بناء المساجد وبناه عمر بن عبدالعزيز بناء الكنائس(٧٩) · وهذا الجواب يدل على تطـور كبير في التفكير ونقلة نوعية كبيرة في طـراز البنـاء والزخرفة والمـواد المستخدمة فيـه والعناصر العمـارية الجديدة التي دخلتـه اضافة الى الزخارف المتنوعة التي نفذت فيـه وهـو ما يتطابق مع قـول ابن عباس « لتزخرفتها كما زخرفت اليهاد والنصارى »(٨٠) ·

ويبدو ان جدران جامع الرسول (ص) ومآذنه الاربعة قـد توجت بالشرافات المسننة التي زينت بها أعالي الجدران والمـآذن في المسـجد الحرام عنـد تجديد الخليفة الوليد لـه وفي مسجد الخيف كذلك قـرب المدينة(٨١) ·

وكمـا برز الامويون بالعمائر الضخمة اشتهر العباسيون بنشاط متميز في البناء فعنوا عناية فائقة بهذا المسجد على مر العصور(٨٢) وتعتبر زيادة المهدي سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م والتي استمرت في المسجد اربع سنين ذات أهمية كبيرة في هذه العمارة فقد زاد في طوله الى جهة الشمال مائة ذراع(٨٣) ولم يزد في الجهـات الاخـرى وزخـرف مؤخـرة المسـجد بالفسيفساء(٨٤) وجعل المقصورة على اسكوب المحراب باجمعه من الشرق الى الغرب والمحراب فيها(٨٥) واستقر المسجد على نظامه وتخطيطه الجديد هذا لمئات السنين(٨٦) (شكل ٦) ·

**الهوامش :**

١ ـ ابن هشام : السيرة ص ١٥٩ ، ١٦٦ ، الطبري ١ ص ١١٦٤ ٠

٢ ـ ابن هشام ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ١٤٦ ، ابن سعد : الطبقات ٣/١ ص ١٩٣ ٠

٣ ـ ابن هشام ص ١٩٠ ، ٢٢٤ ٠

٤ ـ ابن هشام ص١٩٠ ، ٢٢٨ ، ابن سعد ٣/٢ ص١٤٦ : السمهودي : خلاصة ص١٠٧ ٠

٥ ـ وهو الموضع الذي يحبس فيه الغنم والابل ، وهو المكان الذي يجمع فيه التمر لينشف ٠ ياقوت : معجم البدان « مربد » ٠

٦ ـ ابن سعد ٢/٢ ص٢ ، ٣/٢ ص٥٣ ، ١٣٩ ، ١٤٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٣ ٠

٧ ـ الطبري ١ ص١٢٦٠ ، المقريزي : خطط ج٢ ص٢٤٦ ، الامتاع ج١ ص٤٥ ٠

٨ ـ ابن سعد ٢/١ ص٥ ، النويري : نهاية الارب ج١٦ ص٣٤٥ ٠

٩ ـ ابن سعد ٢/٤ ص٤٣ ، البلاذري ص٢ ٠

١٠ـ ابن سعد ١/١ ص١٦٠ ، الطبري ١ ص١٢٥٦ ، ابن النجار : الدرة ص٣٥٥ ٠

١١ـ ابن سعد ١/١ ص١٦١ ، ابن هشام ٣٣٨ ٠

١٢ـ الطبري ١ ص١٢٦٠ ٠

١٣ـ ابن هشام ٣٣٦ ، ابن سعد ١/٢ ص٢ ، الطبري ١ ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ٠

١٤ـ ابن ادريس : مجتمع المدينة ص٣٠ ٠

١٥- ابن سعد ١/٢ ص٢ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٣ ، ابن النجار: الدرة ص٣٥٦ .

١٦- الطبري ١ / ص١٢٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

١٧- ابن سعد ١/٢ ص٢ ٢/٣ ص١٣٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ض٢٣٣

١٨- السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ ، ابن النجار : الدرة ص٣٥٦ .

١٩- العمري : مسالك ج١ ص١٢٥ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٨ ، فكري : مدخل ص١٧٠ .

٢٠- ابن سعد : ٢/١ ص٢ ، ابن حنبل : مسند ج٩ ص١٠ ، السمهودي: وفء ج١ ص٢٣٩ .

٢١- ابن النجار : الدرة ٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٢٢- السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٢٣- ابن النجـار : الدرة ص٣٥٦ ، السمهودي : وفـاء ج١ ص٢٤٠ . النويري : نهاية ج١٤ ص٣٤٥ .

٢٤- السمهودي : وفـاء ج١ ص٣٢٥ ، العميد : الرسول بنى مسـجدا ودارا ، ص١٤ .

٢٥- ابن سعد ١/٢ ص١٨٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٢٦ ، ٣٩٧ .

٢٦- ابن سعد ج٨ ص١١٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٤ .

٢٧- بابن سعد ١/٢ ص١٨٠-١٨١ ، ج٨ ص١١٨-١١٩ ، ابن النجـار ص٣٥٩ . السمهودي : وفـاء ح١ ص ٣٢٧ .

٢٨- ابن سعد ٢/٢ ص٧٢ .

٢٩- ابن النجار ص٣٥٨ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٦ .

٣٠ـ المقريزي : الامتاع ج١ ص٦٠ ، فكري : المدخل ص١٧١ .

٣١ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٦٢ ، ٣٢١ـ٣٢٢ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٤ ، فكري : المدخل ص١٧٠ .

٣٢ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٥٨ ، ٢٥٩ .

٣٣ـ ابن هشام ص٣٤٧ ، اما الاسطوان الذي روى ان بلالا كان يرقى اليها على سبعة اقتاب للنداء بالاذان فلم تثبت صحة هـذه الرواية التي انكرها السمهودي الذي رواها نفسه وشكك في عدالة الراوي ( وفاء ج١ ص٣٧٦ ) .

٣٤ـ ابن النجار ص٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٢٣٩ .

٣٥ـ ابن النجار ص٣٥٦ ، السمهودي : وفاء ج١ ، ابن رسـته : الاعلاق ص٦٤ ، فكري : مدخل ص١٧١ .

٣٦ـ الطبري ١ ص١٥٩١ ، البخاري : صحيح ج١ ص١٢٤ .

٣٧ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٥٥ .

٣٨ـ ابن حنبـل : مسند ج٩ ص١٠ ، ابن سـعد ١/٣ ص٢٠٣ ، ج٤ ص١٣ .

٣٩ـ ابن النجار ص٣٦٩ وما بعدها : السمهودي ج١ ص٣٤٩ .

٤٠ـ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٢٤ .

٤١ـ البلاذري : فتوح ( ازهر ١٩٣٢ ) ص٢١ .

٤٢ـ ابن النجار ص٣٧٢ .

٤٣ـ ابن حنبـل : مسند ج٩ ص١٠ ، البلاذري : فتوح ص٦ ، ٣٦٢ ، ابن الاثير : الكامل ج٣ ص٧٩ ، الطبري ١ ص٢٨٣٣ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٤ و١٤٥ .

٤٤ـ ابن النجـار ص٢٧١ـ٢٧٢ ، السـمهودي : وفـاء ج١ ص٢٥٧ ، ٣٦٢ـ٣٦٣ .

٤٥ـ ابن الاثير : الكامل ج٣ ص٧٩ .

٤٦ـ ابن النجر ص٣٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ .

٤٧ـ Caetani, as quoted by Creswell, E. M. A., I, p. 7.

٤٨ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 3.

٤٩ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٢٢ .

٥٠ـ ابن سعد ٢/٣ ص١٣٩ـ١٤٠ .

٥١ـ Creswell, Op. Cit., I. p 3.

٥٢ـ ابن سعد ٢/١ ص١٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٢٧ .

٥٣ـ سورة ١٧ آية ١ .

٥٤ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 7.

٥٥ـ سورة ٩ الاية ١٠٨ـ١٠٩ .

٥٦ـ سورة ٩ الاية ١٧ـ١٨ ، سورة ٢٤ الاية ٣٦ـ٣٧ .

٥٧ـ انظر : Creswell, Op. Cit., I. p 6.

٥٨ـ ابن النجار ص٣٥٨ .

٥٩ـ ابن النجار ص٣٥٨ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٦ .

٦٠ـ ابن رستة ص ٧٠ ابن النجار ص ٣٧٣ .

٦١ـ ابن سـعد ٢/١ ص ١٨١ ، المسـعودي : مروج ج٥ ص ٣٦١ ، البلاذري : فتوح ص٧ .

٦٢ـ ابن بطوطة : رحلة ج١ ص٢٧١ـ٢٧٢ .

٦٣ـ الطبري ٢ ص ١١٩٢ ـ ، السمهودي وفاء ج١ ص ٢٧٠ ، ابن سعد ٢/١ ص٨٠ وج٨ ص١١٩ .

٦٤ـ المقدسي : أحسن التقاسيم ص٨٠ـ٨١ ٠

٦٥ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٨ ٠

٦٦ـ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ص٤٠ ٠

٦٧ـ الطبري ٢ ص ١١٩٢ ـ ١١٩٣ ، ابن النجار ص ٣٧٢ ، العمري : مسالك ج١ ص١٢٥ ، ٢٧٢ ٠

٦٨ـ السمهودي : وفاء ج٣ ص٨٤٥ ، ٨٥٠ ، ٨٥٢ ، فكري : المدخل ص١٧٧/١٧٨ ٠

٦٩ـ ابن رستة ص ٦٩ ، السمهودي : وفاء ج١ ص ٤٨٤ـ٤٨٥ ، ياقوت : معجم ج٤ ص٤٦٦ ٠

٧٠ـ ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٤٨٤ـ٤٨٥ ٠

٧١ـ المقدسي ص٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٦٧ ، ابن رسته ص٦٩ ، ابن الاثير : الكامل ج٤ ص٤٢٢ ، الدينوري : الاخبار ص٣٢٩ ٠

٧٢ـ ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ ٠

٧٣ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٢٧٢ ، ٣٦٢ ، ابن بطوطة : رحلة ج١ ص٢٧٣ ٠

٧٤ـ فكري : المدخل ص١٧٧ ٠

٧٥ـ ابن رسته ص٧٠ ، ابن النجار ص٣٧٣ ، السمهودي ج١ ص٣٧٣ ٠

٧٦ـ ابن الاثير : الكامل ج٦ ص ٥٧٠ ، الطبري ٣ ص ٥٣٥ ٠

٧٧ـ ابن رسته ص٧١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧١ ٠

٧٨ـ ابن رسته ص٧١ـ٧٢ ٠

٧٩ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٧ ، الدينوري : الاخبار ص٣٣١ ، ابن النجار ص٣٧٣ـ٣٧٤ ٠

٨٠ـ البخاري : صحيح ج١ ص١٢٣ ٠

٨١ـ ياقوت : معجم ج٤ ص٤٦٦ ، الازرقي : اخبار مكة ص٣٣١ ، ٤٠٨ ، ابن رسته ص٧٠ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٧٢ ٠

٨٢ـ البلاذري ص٧ ، السمهودي : وفاء ج١ ص ٣٧٩ ، ٣٨٢ وبعدها ابن النجار ص٩٠ـ٩١ ٠

٨٣ـ البلاذري ص٧ ، الطبري ٣ ص ٣٣٥ ، ابن رسته ٧٢ وبعدها ٠ المقدسي ص٨١ ، السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٠ ٠

٨٤ـ السمهودي : وفاء ج١ ص٣٨٢ ٠

٨٥ـ السمهودي : وفاء ج١ص٣٦٣ ٠

٨٦ـ فكري : المدخل ص١٧٩ـ١٨٠ ٠

## المراجـــع


١ ـ ابن الاثير ( عزالدين )

الكامل في التاريخ ( بريل ١٨٦٧ – ١٨٧٤)

٢ ـ ابن ادريس ( عبدالله عبدالعزيز )

مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص) ( الرياض ١٤٠٢ )

٣ ـ ابن بطوطة ( عبدالله محمد )

الرحلة ( باريس ١٨٥٣ – ١٨٥٨ )

٤ ـ ابن حنبل ( أحمد بن محمد )

المسند ( القاهرة ١٩٤٩ – ١٩٥٣ )

٥ ـ ابن رستة ( أبو علي أحمد )

الاعلاق النفيسة ( ليدن ١٨٩٢ )

٦ ـ ابن سعد ( أبو عبدالله )

كتاب الطبقات الكبير ( ليدن ١٩٠٤ ـ ١٩٤٠ )

٧ ـ ابن الفقيه ( أبو بكر أحمد )

مختصر كتاب البلدان ( بريل ١٨٨٥ )

٨ ـ ابن النجار ( محمد )

الدرة الثمينة في اخبار المدينة ( القاهرة ١٩٥٦ )

٩ ـ ابن هشام ( عبدالملك )

السيرة ( كوتنكن ١٨٥٨ ـ ١٨٦٠ )

١٠ـ الازرقي ( أبو الوليد محمد )

كتاب اخبار مكة ( ليبزك ١٨٥٨ )

١١ـ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ( الاسكندرية ١٩٥٨ )

١٢- البخاري ( ابو عبدالله )

الجامع الصحيح ( ليدن ١٨٦٢ - ١٩٠٨ )

١٣- البلاذري ( ابو العباس أحمد )

فتوح البلدان ( بريل ١٨٦٦ )

١٤- الدينوري ( أبو حنيفة )

الاخبار الطوال ( ليدن ١٨٨٨ - ١٩١٢ -

١٥- السمهودي ( علي بن عبدالله )

وفاء الوفا ( القاهرة ١٩٠٨ - ١٩٠٩ )

١٦- ____________

خلاصة الوفا ( القاهرة ١٨٦٩ )

١٧- الطبري ( أبو جعفر )

تاريخ الامم والملوك ( بريل ١٨٧٩ - ١٩٠١ )

١٨- العمري ( ابن فضل‌الله )

مسالك الابصار ( القاهرة ١٩٢٤ )

١٨*- العميد ( طاهر مظفر )

« الرسول بنى مسجدا ودارا » بحث تحت النشر

١٩- فكري ( أحمد )

المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها

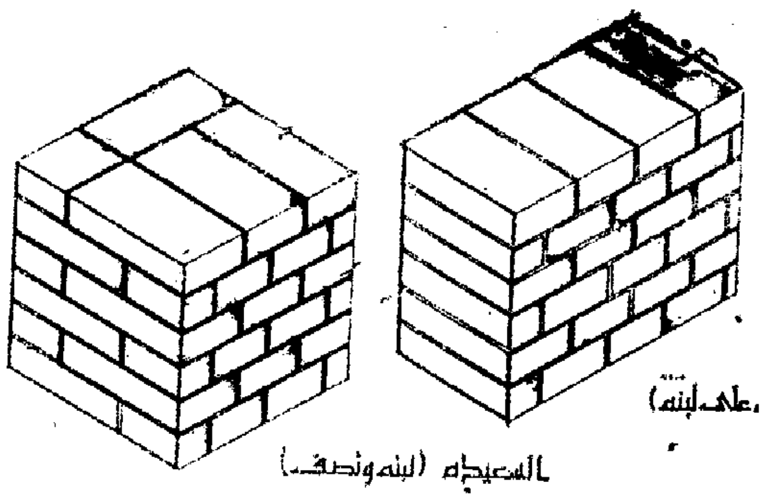
٢٠- القرآن الكريم

٢١- المسعودي ( أبو الحسن )

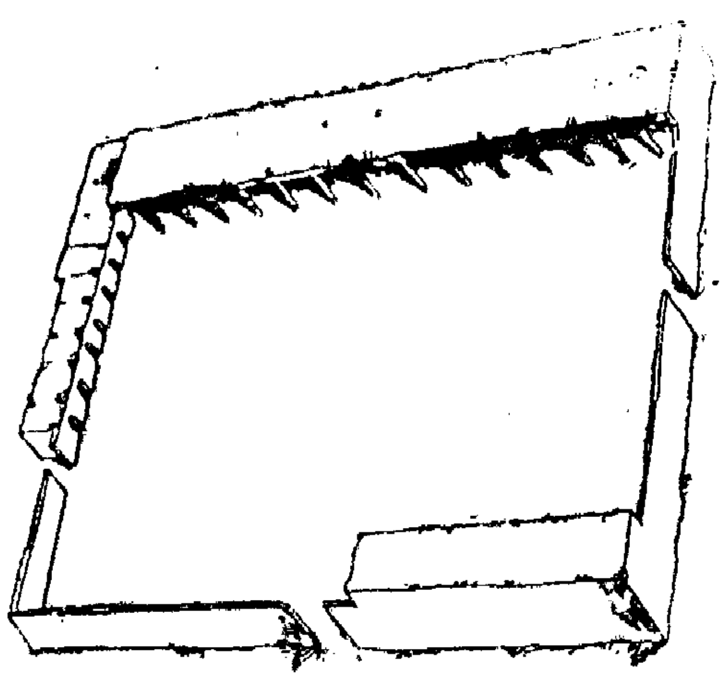
مروج الذهب ( باريس ١٨٦١ - ١٨٧١ )

٢١ - مصطفى ( صالح ) ٠

٢٢ـ المقدسي ( أبو عبدالله )
أحسن التقاسيم ( بريل ١٨٧٧ )
٢٣ـ المقريزي ( تقي الدين )
المواعظ والاعتبار ( بولاق ١٢٧٠ )
٢٤ـ ____________
امتاع الاسماع ( القاهرة ١٩٤١ )
٢٥ـ النويري ( شهاب الدين أحمد )
نهاية الادب في فنون الادب ( القاهرة ١٩٢٢ – ١٩٥٥ )
٢٦ـ ياقوت ( شهاب الدين )
معجم البلدان ( لايبزك ١٨٦٦ – ١٨٧٠ )
٢٧ـ Creswell, K.A.C.
Eavly Muslim Architecture
Oxford 1932-1940

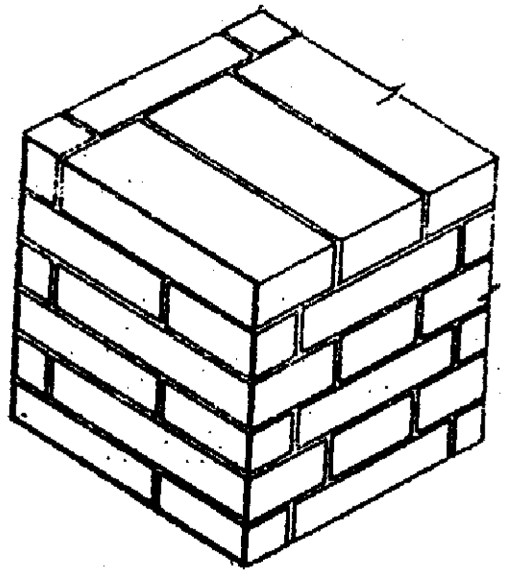



قطاع من تنظيم اللبن (عن صالح لمعي مصطفى)

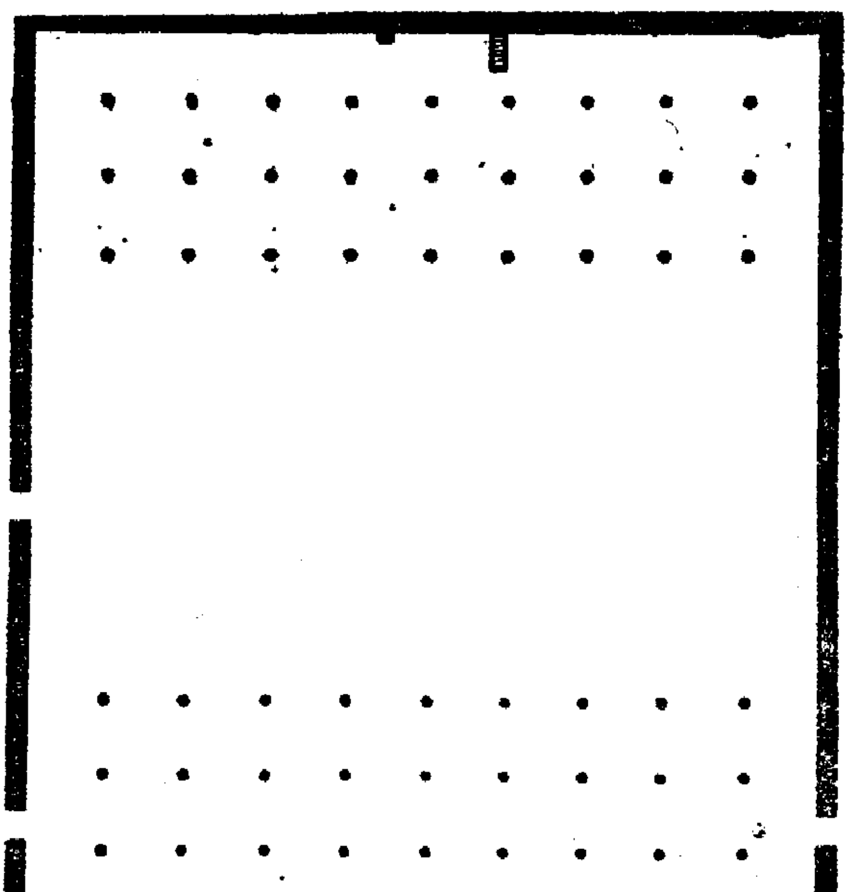


دل

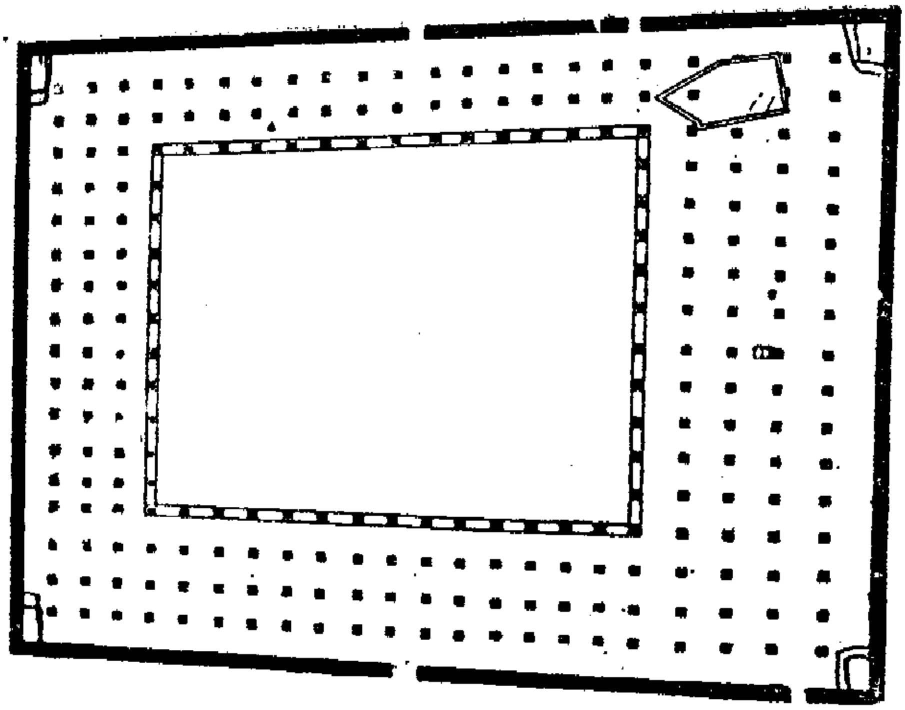
رسم تخيلي عن (شافعي)

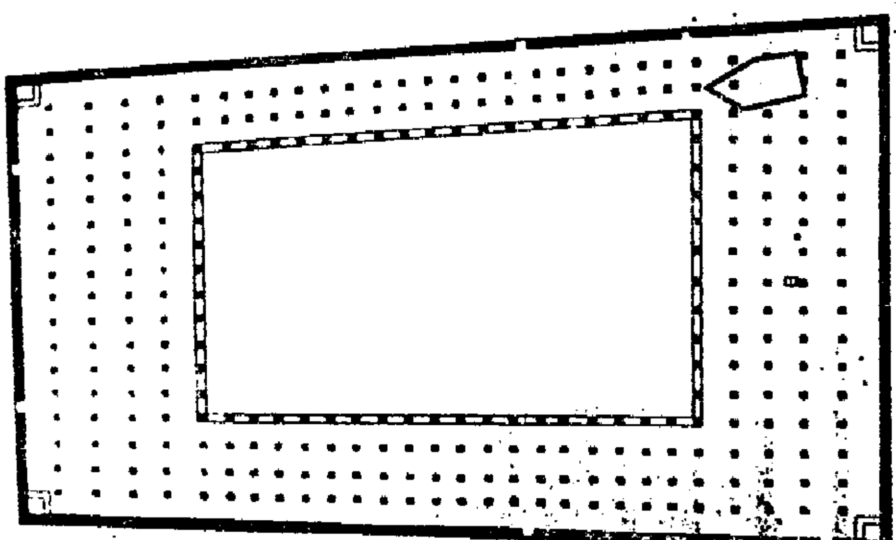



شكل -٢- طريقة تنظيم اللبن ( عن صالح لمعي مصطفى



شكل -٤- التخطيط الثاني للمسجد زمن الرسول (ص) ( عن ذكري )





## مؤرخ من عصر الموسوعات الاسلامية :

# المقريزي

يسرى عبدالغني عبدالله
مدير تحرير مجلة ( عالم الكتاب )

كان مولد أحمد بن علي المقريزي بالقاهرة سنة ١٣٦٤م ، بحارة برجوان بقسم الجمالية الحالي ، والمقصود بالحارة هنا الفندق أو الخان أو الوكالة على قول المصطلح المصري في العصور الوسطى ، أو العمارة الكبيرة على حد التعبير الحديث ، ولا يزال استعمال لفظ الحارة بالمعنى القديم سائدا في بلاد الشام ٠

وجاءت اسرة المقريزي الى القاهرة من بعلبك في حياة أبيه علي ، وأصل نسبتها يرجع الى حارة المقارزة بتلك المدينة الشامية القديمة ، ولا يسعني هنا الا ان اشير الى الشبه الملحوظ بين هذه التسمية ولفظ مقريزي ، وهي جهة بايطاليا قرب روما ، مما يحتمل معه ان تلك الحارة البعلبكية كانت سكنا لجالية من الجاليات الايطالية التي وفدت للتجارة ببلاد الشرق الادنى زمن الحروب الصليبية ، وقد اكتسبت اسرة المقريزي هذه التسمية لحلولها بتلك الحارة بعد خلوها من أهلها الاصليين ٠

ومهما يكن فالمعروف المقطوع به أن أحمد بن علي المقريزي نشأ قاهريا ، بناحية من أعظم نواحي القاهرة امتلاء بالعمران والصخب وضوضاء الحياة(١) ، وأن جده لامه ، واسمه ابن الصايغ الحنفي ، هو

الذي كفل تعليمه ، لضيق حال أبيه علي فيما يبدو قبل أن يصبح من أصحاب الاملاك والعقار · ولذا أخذ جده بتنشئته على أصول الحنفية ، وانكب هو على الدرس والتحصيل تحت ارشاد اساتذة عصره ، واظهر نجابة ومقدرة ·

ثم مات ابن الصايغ سنة ١٣٨٤م ، فترك المقريزي مذهب الحنفيه ، وانتقل الى الشافعية ، ودرس الفقه دراسة واسعة ، وأخذ من ثم يهاجم الحنفية في عنف استوجب لوم معاصريه له ·

ثم التحق المقريزي بالخدمة الحكومية ، فكان أول عهده بها ديوان الانشاء بالقلعه ، حيث ظل يعمل موقعا – أي كاتبا – حتى سنة ١٣٦٨م وقد ذكر المقريزي ذلك في المواعظ والاعتبار حيث ذكر أنه ظل في وظيفه الموقع بديوان الانشاء بالقلعة حتى تلك السنة ، بعد ذلك غدا نائبا من نواب الحكم – أي قاضيا – عند قاضي الشافعية ، فاماماً لجامع الحاكم ، ومدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية · وفي سنة ١٣٩٨م اختاره السلطان برقوق ( آخر سنة من حكم برقوف ) الذي كان حفيا به مشجعا اياه ، لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين ·

وفي ذلك الوقت تزوج المقريزي وأنجب ، اذ المعروف ان بنتا له ماتت بالطاعون الذي اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣م في عهد عبدالعزيز بن برقوق ·

وفي سنة ١٤٠٨م انتقل المقريزي الى دمشق السورية ، ليتولى النظر على أوقاف القلانسية والمارستان النوري ، وليقوم بتدريس الحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية هناك · ثم لم يلبث أن عينه السلطان

فرج بن برقوق كذلك نائبا للحكم بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المنتظرون على اوقافها قضاة بها • لكن المقريزي أبى قبول هذا الشرف ، على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا من قبل السلطان ، ويظهر أنه سئم الخدمة الحكومية وضاق بتكاليفها ، وأنه ملك من الموارد التي ربما ورثها عن أهله ما أغناه عن تضييع وقته في كسب العيش ، عن طريق الدواوين ومجالس الحكم •

وكيفما كان الامر ترك المقريزي دمشق واعماله بها بعد اقامته عليها عشر سنوات تقريبا ، وعاد الى القاهرة خاليا من عمل أو وظيفة ليتوفر على الدرس والاشتغال بالعلم ، ولاسيما التاريخ • ومن أجل ذلك رحل المقريزي وعائلته سنة ١٤٣٠م حاجا الى مكة ، وكان مجاورا بها قبلا ابان طلبه العلم ، بيد انه ظل مقيما بمكة تلك المرة الثانية حتى سنة ١٤٣٥م ، واشتغل بها في تلك الاثناء بتدريس الحديث وبالتأليف في التاريخ • ثم عاد المقريزي من بعدئذ الى القاهرة ، حيث أمضي بقية حياته بحارة برجوان التي ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات ، ويظهر أنه جعل من منزله بها مكانا لمدارسة تلاميذه ، وللتأليف الكثير في مختلف علوم عصره(٣) •

بدأ المقريزي نشاطه العلمي الضخم بظهور تاريخ القاهرة المسمى ( المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ) ، وهو كتاب عني فيه صاحبه قبل كل شيء بدراسة الخطط حتى عرف بهذه التسمية حتى الان ، وكان تاليفه اياه ما بين عامي ١٤١٧م و ١٤٣٦م •

على أنه يظهر أن المقريزي اعتمد — الى حد كبير — في تأليف هذا الكتاب الزاخر — الذي يعد فخر مؤلفاته — على كتاب صنفه قبله الاوحدي

المؤرخ ، فنقل منه دون أن يشير اليه أو يعترف بأخذه منه ، وسماه السخاوي من أجل ذلك بقوله إن كتاب الخطط « مفيد لكونه ( أي المقريزي ) ظفر بمسودة الاوحدي فأخذها وزادها زوائد غير طائلة »(٤) ، بل ذكر السخاوي في موضع آخر ان الاوحدي « كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وأفاد وأجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها التقى المقريزي ، ونسبها الى نفسه مع زيادات »(٥) ، وأن المقريزي نفسه اعرف بانتفاعه بتلك المسودات(٦) . ولم يستطع العلماء والمؤرخون من مستشرقي القرن التاسع عشر الميلادي أن يدفعوا تلك التهمة تماما عن المقريزي ، أو يدلى أحدهم فيها برأي حاسم ، بل قال بصددها (كاترمير) الفرنسي ان من الفطنة والصواب أن نسكت عن هذه القضية ، وأن الحكم فيها برأي قاطع(٧) . على أنه مما يسترعى النظر أن المقريزي نفسه لم يدفع هذه التهمة بشيء قاطع ، ولم يستطع أن يدلي في سياق الرد عليها بأكثر من قوله : « حسب العالم أن يعلم ما قيل – ويقف عليه » . يضاف الى ذلك اشارة المقريزي(٨) الى اتصاله بالاوحدي . كما انه توجد بكتاب المواعظ شواهد داخلية تؤدي بالباحث الى كثير من الشك على الاقل ، ومنها خلو بعض كتب المقريزي المتأخرة من عبارات واردة بكتاب المواعظ ، مثل ادلائه في نسب الاكراد والايوبيين برأي هام ، وعدم تكراره لهذا الرأي على أهميته في كتاب السلوك ، ومنها كذلك ما جاء بكتاب المواعظ بصدد رباط البغدادية للنساء بالقاهرة ، حيث ورد ما نصه : « وآخر من أدركنا فيه الشيخة .. فاطمة بنت عباس البغدادية(٩) ، توفيت في ذي الحجة سنة أربع عشرة وسبعمائة » وهذا التاريخ – ان صح المتن وصحت الوفاة – انما يقع قبل مولد

المقريزي ( والاوحدي كذلك ) بأزيد من خمسين سنة !!

ويلاحظ أن هذه العبارة منقولة من الطبعة الكاملة المعدودة أحسن الطبعتين المعروفتين لهذا الكتاب ، وهي عبارة تتطلب تحقيقا دقيقا بعد مقابلة النسخ المخطوطة بعضها على بعض ، وبذلك تقضى على فكرة داخلنا تقول ان المقريزي أخذ من الاوحدي ( كذلك ) أخذ من رجل مجهول لا نعرفه ؟!! ٠

ومهما يكن من شيء فالمقريزي صدر هذا الكتاب الكبير بمقدمة جغرافية تاريخية مسهبة ، وتناول المدن والاثار المصرية القديمة والوسيطة بوصف دقيق ، مبتدئاً بالاسكندرية ، وعنى عناية خاصة بخطط الفسطاط والقاهرة طبعا ، فجاء الجزء الثاني منه ـ وهو نصف الكتاب ـ ثبتا زاخرا بأحوال القاهرة وأخبارها ، وطرق المعيشة بأرجائها الواسعة في العصور الوسطى ٠ ثم اتبع المقريزي هذا الكتاب بتاليف في تاريخ الفسطاط وهو في الواقع تاريخ لمصر الاسلامية في عهد الولاة ٠ وأتلى المقريزي ذلك بكتاب في دولة الفاطميين بمصر ، واسمه ( اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا )(١٠) ، حتى اذا فرغ منه فكر في تأليف كتاب يكون تاريخا للايوبيين والمماليك ، ليتم به سلسلة مؤلفاته في التاريخ المصري الوسيط ، من الفتح العربي الى زمنه ، فكان كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، وهو الكتاب الذي غدا اساسا رئيسا لكل التواريخ المصرية في عصر الدولتين الايوبية والمملوكية الاولى والثانية ٠

ويلاحظ ان المقريزي كتب المؤلفات المتقدمة لتكون ذيلا على كتاب المواعظ والاعتبار ، وأنه قصد في كل منها أن يشرح ما أجمله من أخبار الدول الاسلامية المصرية التي تناولها قبلا في بكر مؤلفاته ٠ ومن أجل

كذلك شرع المقريزي في التأليف في كتب التراجم والسير ، وأوغل في مشروعين كبيرين من هذا النوع من الكتابة ، غير انه لم يتمهما لضخامة المقياس الذي بني عليه كلا منهما · أما أول هذين المشروعين فهو كتاب : ( المقفي الكبير ) ، وكان المقصود به ان يكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها من المسلمين والنصارى منذ أقدم العصور الى ما قبل عصره ، وقدر له أن يكون في ثمانين مجلدا ، ولم يستطع ان ينجز منها سوى ستة عشر فقط · أما ثانيهما ، وهو كتاب ( درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ) ، فكان الغرض منه أن يكون معجما لتراجم معاصريه ، غير أن المقريزي تركه كذلك دون ان يفرغ من مراجعته ·

وصرف المقريزي كثيرا من نشاطه الجم في التاريخ الاسلامي العام ، فألف في السيرة النبوية ، وفي قبائل العرب التي نزلت مصر منذ الفتح العربي الاسلامي ، وفي جغرافية حضرموت بجنوب شبه الجزيرة العربية، وفي الدويلات الاسلامية بالحبشة ، كما أسهم بنصيب وافر في التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي ، حين ألف في الاوزان والاكيال ، والمقاييس والنقود ، وفي تاريخ المجاعات والطواعين · وربما كان أهم مؤلفاته هذه كتاب ( النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ) وكتاب ( اغاثة الامة بكشف الغمة ) ، اذ رجع المقريزي ، الكتاب الاول من هذين الكتابين ، أمر الفرقة والتنافس على الخلافة بين الامويين والهاشميين الى عصبيات الجاهلية القديمة ، وأهمل جانب الحوادث المريرة والحروب المستحرة ، والشخصيات المتنافرة ، التي لم تعد كلها أن تكون أسبابا طارئة على جذم ذلك الخلاف وجرثومته ، مترسما في ذلك سبيل ابن خلدون وفلسفته في المقدمة(١١) · أما الكتاب الثاني من هذين الكتابين

فتناول ، المقريزي فيه تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور الى سنة ١٤٠٥م ، وهي السنة التي ألف فيها ذلك الكتاب ، وأدى بـه البحث الى ان اسباب ما ينزل بالناس من مجاعات وطواعين وأغلية انما هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد »(١٢) وهو تخريج اقتصادي سليم مصدره كذلك مقدمة ابن خلدون وما جاء بها في فصل ( الجباية وسبب قلتها وكثرتها ) ، وما يليه من الفصول المتفرعة على هذا المعنى(١٣) بل ان تأثير ابن خلدون على المقريزي في تأليف هذا الكتاب بالذات تعـدى الى طريقـة العرض والاسلوب وفواتح الابواب وخواتيمها ، فضلا عن الفكرة العامة(١٤) . والحقيقة أن المقريزي تأثر بابن خلدون ومقدمته في هذين الكتابين وغيرهما من مؤلفاته تأثرا فاق حد الاعجاب ، وآية ذلك وصفه للمقدمة بأنها « لم يعمل مثالها ، وانـه لعزيز ان ينال مجتهد منالها ، اذ هي زبـدة المعارف والعلوم ، ونتيجـة العقول السليمة والفهـوم ، توقف على كنـه الاشياء ، وتعرف حقيقـة الحوادث والانباء ، وتعبر من حال الوجود ، وينبيء عـن أصل كـل موجود » وهو وصف يدل في وضـوح على دراسـة المقريزي لمقدمة ابن خلدون دراسة وافية ، كما يدل على دقة فهمه لمحتوياتها المتنوعة ، وتقديره لقيمتها العلمية بالقياس الى غيرها مما عرفه خلال قراءاته الدائبـة التي يبدو أنها لم تنقطع الا بوفاته سنة ١٤٤٢م .

وفي الضوء اللامع للسخاوي (١٤٤/٤) توجد ملاحظة عابرة الى ما كان من عظيم الصلة والصداقة بين المقريزي وابن خلدون وكذلك في المواعظ والاعتبار (٥٠/١) اشار المقريزي الى ابن خلدون اشارة التلميذ لاستاذه ، ولم يتحرج ان يستشهد بعبارة لاذعة له في وصف المصريين ، ونصها حسبما

ورد بنفس المرجع والجزء والصفحة : « قال لي شيخنا الاستاذ أبو زيد عبدالرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى : أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب » .

والواقع أن المقريزي كان واسع القراءة والمعرفة والاطلاع ، كثير الدأب والمثابرة ، كما شهد بذلك معاصروه ، وكما يشهد به ما خلفه من مؤلفات لم ير النور بعضها حتى الآن ، وان نظرة واحدة الى أثبات مؤلفاته لكفيلة بايقافنا على المامه بالخطط والتاريخ والترجمة والسكة والاوزان والمقايس ، وهذا فضلا عن معرفته بعلم الحشرات والمعادن والطب والموسيقى ، وعلم الكلام والعقائد والتوحيد والحديث . لكن أعظم اهتمامه كان موجها نحو التاريخ ، لانه كان مغرم به ، معنيا بتحقيقه والتأليف فيه ، فعرف منه جزءا كبيرا معرفة تامة ، وحفظ منه الكثير عن ظهر قلب . وأقر بذلك كله تلميذه الذي عرف معاصريه من المؤرخين ، وخليفته الذي اقتفى أثره ومنهاجه في كتابة التاريخ ، وهو ابو المحاسن يوسف بن تغري بردى ، حين قال في كتاب النجوم الزاهرة : « وفي الجملة هو أعظم من رأيناه في علم التاريخ وضربه ، مع معرفتي لمن عاصره من علماء التاريخ ، والفرق بينهم ظاهر ، وليس في التعصب فائدة »(١٦) .

أما عن أخلاق المقريزي الشخصية فالمعاصرون له أجمعوا على أنه عاش رجلا فاضلا دينا ، مجدا أمينا في عمله . حتى ان السخاوي المؤرخ المشاكس – مع شدته في كتاب المواعظ والاعتبار – يقول ان المقريزي كان على جانب عظيم من « حسن الخلق ، وكرم العهد ، وكثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد ، والمحبة في المذاكرة ، والمداومة على التهجد والاوراد ،

وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة ، والملازمة لبيته » وانـه : « حمدت سيرته في مباشراته »(١٧) أي في الوظائف التي تولاها قبل أن ينصرف الى حياة الدرس الخالية ٠

لقد حفل عصر المقريزي بكثير من المشتغلين بالعلم والتاريخ ، وربما بدا بعضهم اوسع منـه معرفة بدخائـل ذلك العصر ، نظـرا لتقلديهم في الوظائف الكبرى بالدولة المصـرية ، ومن هؤلاء ابن حجـر العسقلاني والعيني وخليل بن شاهين وابن عرب شاه والخالدي ٠

الهوامش :

١ ــ راجـع المقريزي : المواعـظ والاعتبـار ــ طبعـة بولاق ــ ج ٢ ، ص ٩٥ ــ ٩٦ ٠

٢ ــ المرجع السابق : ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٥ ٠

٣ ــ أبو المحاسن : كتاب النجوم الزاهرة ــ طبعة دار الكتب ــ ج ٨ ، ص ٢١٨ ٠

٤ ــ السخاوي : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ٢٢ ٠

٥ ــ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ــ ٣٥٩ ٠

٦ ــ السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١ ــ ص ٣٥٩ ٠

٧ ــ

٨ ــ المقريزي : المواعظ والاعتبار ــ طبعـة بولاق ــ ج ١ ، ص ١٢ ، وكذلك ج ٢ ، ص ٢٥٦ ٠

٩ ــ المقريزي : كتاب المواعظ والاعتبار ــ طبعة بولاق ج ٢ ، ص ٢٤٨ ٠ انظر كذلك ابن حجر : الدرر الكامنة ، ٣ ٣ ، ص ٢٢٦ ، حيث ورد اسم هذه السيدة الفاضلة فاطمة بنت عباس ٠

١٠ـ نشره د٠ جمال‌الدين الشيال في طبعة مزيدة عن طبعته الاوربية القديمة ( دار الفكر العربي ، ١٩٤٩م ) ٠

١١ـ ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة بولاق ، ص ١٠٧ ، وما بعدها ٠

١٢ـ المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشر زيادة والشيال ، ص ٤ ٠

١٣ـ ابن خلدون : المقدمة ـ طبعة بولاق ، ص ٢٣٣ ، وما بعدها ٠

١٤ـ المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ـ نشر زيادة والشيال صفحة (د) ٠

١٥ـ راجع كتاب نحل عبر النحل الذي نشره الدكتور جمال‌الدين الشيال ٠ ( مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٤٦ ) ٠

١٦ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ( طبعة كاليفورنيا ) ج٧ ص٢٧٩ ٠

١٧ـ السخاري : التبر المسبوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ـ٢٤ ٠

# موارد أحمد الدورقي البغدادي
# عن التاريخ الاموي

د. محمد جاسم حمادي المشهداني
معهد الدراسات القدمية والاشتراكية

الجامعة المستنصرية

تعد مدرسة بغداد التاريخية من بين المدارس الرائـدة الاصـيلة في نشأتها وتطورها ، وفي الاهـداف والاغـراض التي انتهجتهـا كما تميـز كثير من مؤرخيها بدقتهم وأمانتهـم وثبـوت حـال مروياتهم اضـافة الى نتاجاتهم الغزيرة في ميدان التدوين التاريخي ، واسهاماتهم الرائدة في هذا الميدان ونريـد ان نشير هـنا الى جانـب مهم من مميـزات هذه المدرسـه مختلفة في عدالة وامانة مؤرخيهـا وعـدم انحيازهم وتعصـبهم ، مجافـاة للحقيقة تحقيقاً لاهداف سياسية او مادية ، وانمـا كانت الامانة والعدالة والتحقيق والتـدقيق رائدهم ، ونحن نعلم ان اغـلب مـرويات التاريـخ الاموى قد دونت بعد زوال دولتهم ، كما ساهمت الشعوبية بدور معروف ومشهود في تشويه حقائق التاريخ العربي عامة ، والتاريخ الاموى بصورة خاصة ، واضافة الى الردود المباشرة لمواجهة الدس الشعوبي التى قام بهـا رواد الحركة الفكرية العربية والمناصرين لهم ، نجـد ان هنـاك آخـرين ساهموا في الرد على ذلـك الدس بصـورة غير مباشرة من خـلال اظهـار الجوانب المشرقة في التاريخ الاموي ، واظهار كثير من حقائق ذلك التاريخ التى حاول الاعداء طمسها او تشويهها ، وكان مؤرخ بغداد احـمد الدوقي البغدادى احد ابرز الذين ساهموا بدور فاعل في تدوين حقـائق التاريخ الاموي ، في ظل ظروف لم تكن أموية ، وذلك بعد أفول نجم الخلافة الاموية،

كما ان كتابة من هذا النوع خالية من اى هدف يعطي صاحبها مردودا ماديا بل بالعكس كان تدوين الحقائق الايجابية قد يثير له متاعب قد تأخذ جانب التعويض من قبل اعداء الامويين مهما كانوا كما ان هذا التوجه في التدوين التاريخي لمدرسة بغداد ،يعكس مدى الروح العلمية الذى اتصفت به ، هذه المدرسة من خلال كتابة تاريخ الدول التى انتهى دورها السياسى على يد دولة لاتزال قائمة ، ولذلك تعد هذه ميزة فكرية وعلمية بل وانسانية رائعة من مميزات مدرسة بغداد التاريخية ؛ ان عناية الدور في التاريخ الاموى وبالفترة العباسية بالذات نؤكد ميزة رائعة واتصف بها التاريخ الاموى ممثله بادراكه لاهميته هذا التاريخ ، وادراكه لاهميه ومكانة هذه الاسرة في تاريخنا العربي ولايمكن لاى مؤرخ منصف اهمال دور الامويين المتميز في تاريخنا العربي ، وبالاخص في ميدان حركات التحرير العربية ، وفي الحفاظ على الهوية القومية العربيه في مشارق الارض ومغاربها وانما حملت راياتهم لنشر الاسلام ، والدفاع عن قيمة ومبادئه واذا ماعلمنا ان الشعوبية ناصبت العروبة والاسلام حربعدوانها ولم تكن محاولاتهم لتتوقف في ضرب السيادة العربية الاسلامية التى برزت في اروع صورها على عهد الامويين ، ومن هنا يمكن ادراك قيمة مرويات احمد بن ابراهيم الدورقي البغدادى وهي تعرض الصورة الري برزت في اروع صورها على عهد الامويين ، ومن هنا يمكن ادراك قيمة مرويات احمد بن ابراهيم الدورقي البغدادى وهي تعرض الصورة الرائعة للخلافة العربية الاموية ورجالها ، هذا يبرهن مدى انصافه وعدالته وامانته كمؤرخ منصف دون التاريخ الاموي في زمن أفول دولتهم .

## حياة أحمد بن ابراهيم الدورقي ومنزلته العلمية

عاصر الدورقي فترة مهمة من فترات التاريخ العباسي حفلت بأحداث تاريخية متنوعة كان ابرزها حدوث الانقسامات داخل الاسرة العباسية وبالاخص فترة الصراع بين الامين والمأمون،وذلك سنة ١٩٨هـ/٨١٤،(١) ثم ظهر تيار نفوذ الاتراك في عهد الخليفة المعتصم ( ٢١٨ـ٢٢٧ هـ/ ٨٣٤ـ٨٤٢م ) حيث شهدت الحالة انتقال العاصمة من بغداد الى سامراء(٢) ومن ثم ازداد نفوذ الاتراك بحدود الزمن ، وبرز دور القادة الاتراك وأخذت الاحداث تتابع ووصل الامر حداً من الخطورة ادت الى مقتل الخليفة المتوكل على الله ، بتشجيع العناصر التركية المتغلبة سنة ٢٤٧هـ /٨٦١م(٣) ومع كل ظروف هذا الوضع السياسي فان الحركة الفكرية كانت نشطة ويمكن ان تلمس هذا الازدهار الفكري من خلال الحشد الكبير من العلماء الذين عاشوا في القرن الثالث الهجري ، والذين توزعو على مختلف جوانب المعرفة الانسانية ، وقد اشار الجاحظ ( ت ، ٢٥٥ ) الى

---

(١) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ( بيروت ، ١٩٦٠ ) ص ٤٤٠
الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، في محمد ابو الفضل ، ج٨ ( القاهرة ، ١٩٧٦ ) ٤٧٨ـ٩٥ .

(٢) ابن قتيبه ، المعارف ( القاهرة ، ١٩٦٩ ) ص ٣٩
الطبري ، المصدر السابق ، ٩/٧١ـ٧٩ .
المسعودي ، مروج الذهب ، ج٤ ( بيروت ، ١٩٦٥ ) ٥٣ـ٥٤ .

(٣) د. فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ( بغداد ، ١٩٧٤ ) ص ٣٩ـ٤٧ .

ازدهار الحركة الفكرية في النصف الاول من القرن الثالث الهجرى، والتي عاصرها الدورقي بقوله : « فما ينتظر باظهار ماعنده ؟ ومايمنع الناصر للحق في القيام بما يلزمه ؟ وقد امكن القول ، وصلح الدهر ، وهوى نجم التقيه ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم(٤) ولذلك يلاحظ هناك العشرات من العلماء في علوم القرآن ، والحديث ، وفي العربية وعلومها ، في الشعر والادب ، والزهد والتصوف، وفي التاريخ والاخبار وفي العلوم الصرفه وغيرها(٥) .

## اسمه ونسبه(٦)

هو احمد بن ابراهيم بن كثير بن زيد بن أفلح بن منصور بن مزاحم العبدي مولى عبدالقيس ، أبو عبدالله البغدادي البكرى ، المعروف

---

(٤) الحيوان ، ع ، عبدالسلام هارون ، ج١ ( القاهرة ، ١٩٦٧ ) ص ٨٦ـ٨٧ .

(٥) المشهداني ، محمد جاسم حمادى ، موارد البلاذري ، ج١ ( مكة المكرمة ، ١٩٨٦ ) ص ٤٢ـ٤٤ .

(٦) البخارى ، التاريخ الكبير ، ج١/ق٢/٦ ، ابن ابي حاتم ، الجرح والتعديل ج١/ق١/٣٩ .
الخطيب البغدادى ، تاريخ ٤/٦ـ٧ ، ابن زبر ، تاريخ موالد العلماء ، ورقة ٣٨ أ المزي ، تهذيب الكمال ، في ، بشار عواد م١ ( بيروت ، ١٩٨٠ ) ، ٢٤٩ـ٢٥١ ، ابن ماكولا ، الاكمال ، ٣/٣٦٥ ، ابن القيسراني الانساب المتفقة ٥٤ـ٥٥ ، السمعاني، الانساب ، ٥/٣٩٢ـ٣٩٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، ٧/٩٤ ،اللباب ١/٥١٢ ، الذهبي ، تذكره الحفاظ ، ٢/٥٠٥ ، العبر ، ١/٤٤٦ الكاشف ، ١/٥٠ ، العين في طبقات المحدثين ورقه ١٦ ب ، ابن حجر تهذيب التهذيب ١٠/١٠ـ١١ ، السيوطي،طبقات الحفاظ، ٢٢٠ ، ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ٢/١١٠ ، سزكين، تاريخ التراث ١/٣٦ ، كحاله معجم المؤلفين ١/١٤٢ .

بالدورقي(٧) .

اما نسبته الى النكري : بضم النون ، وسكون الكاف ، فذلك نسبته الى بني نكرة وهم بطن من عبدالقيس ، والدورقي نسبة الى الملابالدورقية، حيث ذكر الخطيب البغدادي (ت ، ) قائلا « كان السراج يزعم انهم سموا دورقه لانهم يلبسون القلانس الطوال(٨) ، وذكر الحاكم بانه سمي بذلك « لتنسك ابيه،وكان من يتنسك في ذلك الزمان سمي دورقياً » رغم ان ابن الجارود يذكر في مشيخته بانه كان من اهل دورق من أعمال الاحواز(٩) .

**عائلتـــه :**

ظهر في عائلة أحمد الدورقي بعض العلماء والحفاظ ، فهم أخوة يعقوب بن ابراهيم بن كثير الدورقي الحافظ ، واخوه ابو عبدالله احمد بن ابراهيم الحافظ ، وابن اخيه عبدالله بن احمد(١٠) .

**مولـــده :**

ذكرت اغلب المصادر التي ترجمت له انه ولد في سنة ١٦٨هـ ،(١١)

**وفاتـــه :**

توفي في مدينة العسكر يوم السبت لسبع بقين من شعبان سنة ست واربعين ومئتين(١٢) .

---

(٧) المزى ، تهذيب الكمال في اسماء الرجال ، خ ، عواد معروف ، ج١ ( بيروت ، ١٩٨٠ ) ص ٢٤٩ .
(٨) تاريخ بغداد ، ٤/٦-٧ .
(٩) ابن حجر تهذيب التهذيب ، ١/١٠ .
(١٠) انظر بشار في هامش ٢/ص٢٤٩ .
(١١) المزى ، تهذيب ، ١/٢٥١-٢٥٢ .
(١٢) الخطيب ، ٤-٧ ، المزى ، ١/٢٥١ .

## سماعه ورحلاته

عاش الدورقي حياة حافله بالدراسة والتأليف وتتلمذ على عدد من كبار المحدثين ، من خلال ملاحظة معظم شيوخه منهم ، مما ادى الى تأثره بأساليبهم وبعض مناهجهم في مروياته ، وبأن ذلك من خلال عرضه للمعلومات التاريخيه التى تناولها ، والتى نجد فيها اهتماما شديدا في السند ، حيث كانت مروياته المسنده تكون بحدود (٩٥٪) من مجموع المعلومات التى اوردتها ، كما ان استخدم صيغ المحدثين والفاظهم التي كانوا يستعملونها في طرق تحمل الروايه التاريخية نحو « حدثنا وحدثني واخبرنا واخبرني ، وانبانا .. الخ .

اما عن رحلاته فان المصادر التى ترجمت له ، لم تقدم لنا معلومات صريحة ورافدة عنها ولكن من خلال دراستنا لشيوخه ، نجد انه اخذ عن عدد من الشيوخ في عدد من المدن وبالاخص تلك المعلومات نستطيع ان نطلع على جانب من جوانب رحلاته في طلب العلم ، وسماعه من خلال عرض يبرز الاماكن التي تلقى بها العلم وكما يلي .

### المدن العراقية :

#### البصره :

شيوخه بالبصره : اكثر احمد بن ابراهيم الدورقي في الاخذ عن شيوخه في البصرة وخاصة عن الاحداث التاريخية المتعلقة بالتاريخ الاموي فيها ومن ابرز هوايته الشيوخ الذين اخذ عنهم بالبصره .

— بكير بن اسماء ابن اخي جويرية بن اسماء البصري(١٣) اذا

(١٣) المزى ، تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

ماعلمنا ان جوير ( ت ، ١٧٣ هـ ) ٠

— يزيد بن زريع البصرى ( ت ، ١٨٢ هـ ) وهو ثقة ثبت(١٤) واكد المزى روايته عنه(١٥) ٠

— اسماعيل بن ابراهيم بن مقسم الاسدى مولاهم ابو بشر البصرى بابن كليه(١٦) ( ت ، وهو ثقة حافظ واكد المزى روايته عنه(١٧) ٠

— محمد بن ابراهيم بن ابي عدى البصرى (ت،١٩٤هـ) وهو ثقه(١٨) ٠

— ربعي بن ابراهيم بن مقسم الاسدي ابو الحسن البصرى أخو أسماعيل بن علي وهو اصغر منه ( ت ، ١٩٧هـ ) وهو ثقه صالح(١٩) واكد المزى روايته عنه(٢٠) ٠

— عبدالرحمن بن مهدى بن حسان العنبرى مولاهم ابو سعيد البصرى ( ت ، ١٩٨ ) وهو ثقة ثبت (٢١) واكد المزى روايته عنه (٢٢) ٠

— يحيى بن ابي الحجاج الاهتمي المنقري ، وهو ليس بالقوى/٢٣) ٠

— بهز بن اسد العمي ابو الاسود البصري ( ت ، بعد ٢٠٠ هـ ) وهو

---

(١٤) تقريب التهذيب ، ٣٦٤/٢

(١٥) تهذيب الكمال ٢٥٠/١

(١٦) تقريب التهذيب ٦٥/١ـ٦٦

(١٧) تهذيب الكمال ٢٥/١

(١٨) الكاشف ، ١٦/٣ ـ تقريب التهذيب ، ١٤١/٢

(١٩) تقريب التهذيب ، ٣٢٤/١

(٢٠) تهذيب الكمال ٢٥٠/١

(٢١) الكاشف ، ١٨٩/٢ ٠ تقريب التهذيب ٤٩٩/١

(٢٢) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١

(٢٣) الكاشف ، ٢٥٢/٣ تقريب التهذيب ، ٣٤٥/٢

(٢٤) الكاشف ، ١٦٤/١ ٠ تقريب التهذيب ١٠٩/١

ثقة ثبت(٢٤) واكد المزى روايته عنه(٢٥) ٠

ـــ زيحان ابن سعيد الناجي البصرى ( ت ، ٢٠٣ ) وهو صـــدوق(٢٦) واكد المزى روايته ٠

ـــ عبدالكبير بن عبدالمجيد بن عبدالله البصرى الحنفي ( ت ، ٢٠٤ ) وهو ثقة(٢٧) واكد المزى روايته عنه(٢٨) ٠

ـــ ابو عامر عبدالملك بن عمرو العقدى القيس البصرى ( ت ، ٢٠٤ ) وهو ثقه(٢٩) ٠

ـــ سليمان بن الجارود ابو داود الطيالى ( ت ، ٢٠٤هـ ) زهير بن نسيم داود الطيالى ، اكد المزى روايته منه(٣٠) ٠

ـــ وهب بن جرير بن حـــازم الازدى البصـــرى (ت ، ٢٠٦هـ ) وهـــو ثقة(٣١) واكد المزى روايته عنه ،(٣٢) ٠

ـــ صفوان بن عيسى الزهدى ابو محمد البصرى ( ت ، ٢٠٦ ) وهـــو ثقة (٣٣) واكد المزى روايته عنه(٣٤) ٠

ـــ عبدالصمد بن عبدالوارث بن سعيد العنبرى التنورى مولاهم البصرى

---

(٢٥) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٢٦) تقريب التهذيب ، ١/٢٥٥
(٢٧) تهذيب الكمـــال ، ١/٢٥
(٢٧) تقريب التهذيب ، ١/٥١٥
(٢٨) تهـــذيب ، ١/٢٥٠
(٢٩) تقريب التهذيب ، ١/٥٢١
(٣٠) تهذيب الكمال ١/٢٥٠
(٣١) تقريب التهذيب ٢/٣٣٨
(٣٢) تهذيب الكمال ١/٢٥١
(٣٣) تقريب التهذيب ، ١/٣٦٨
(٣٤) تهذيب الكمال ١/٢٥٠

( ت ، ٢٠٧ ) وهو صدوق ثبت(٣٥) واكد المزى روايته عنه(٣٦).

— سعيد بن عامر الضبعي ابو محمد البصرى ( ت ، ٢٠٨ ) وهو ثقه صالح(٣٧) .

— قريش بن انس الانصارى البصرى ( ت ، ٢٠٨هـ ) وهو ثقه (٣٨).

— الضمال بن مخلد ابو عاصم النبيل البصرى ( ت ، ٢١٢ ) هو ثقه ثبت(٣٩).

— العلاء بن عبدالجبار الانصـاري مولاهم العطار البصري نزيل مـكة ( ت ، ٢١٢ ) وهو ثقه(٤٠) واكد المزى روايته عنه(٤١) .

— عبدالله بن مسلمة بن قعنب العنبي الحارثي ( ت ، ٢٢١ ) وهـو ثقه عابد(٣٤) واكد المزى روايته عنه(٤٣) .

— سليمان بن حرب الواشحي البصرى ( ت ، ٢٢٤ ) وهو معه(٤٤).

— هشام بن عبدالملك ابو الوليد الطبانى البصرى ( ت ، ٢٢٧هـ ) وهو ثقه ثبت(٤٥) .

---

(٣٥) تقريب التهذيب ، ١/٥٠٧
(٣٦) تهذيب الكمال ١/٢٥٠
(٣٧) كاشف ، ١/٣٦٤ . تقريب التهذيب ، ١/٣٩٩
(٣٨) كاشف ، ٢/٤٠٠ . تقريب ، ٢/٢٢٥
(٣٩) تقريب التهذيب ، ١/٢٧٣
(٤٠) تقريب التهذيب ٢/٩٢
(٤١) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٤٢) تقريب التهذيب ، ١/٤٥١
(٤٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٤٤) كاشـف ، ١٢/٣٩١ـ٣٩٢
تقريب التهذيب ، ١/٣٢٢
(٤٥) الذهب ، الكاشف ، ٣/٢٢٣

ـــ ابو عبدالله محمد بن زياد الاعرابي الراويه ( ت ، ٢٣١هـ ) ٠

ـــ محمد بن مقاتل ابو جعفر العبـادانـي ( ت ، ٢٣٦هـ ) وهـو صدوق(٤٦) واكد المزى روايته عنه(٤٧) وكانت عبادان حينذاك من نواحي البصره ٠

**شـيوخه بالـكوفة :**

اسحاق بن سعيد عمر بن سعيد الاموى الكوفي ( ت ، ١٧٠هـ ) وهو ثقـه(٤٨) ٠

جرير بن عبدالحميد بن قرط العنبي الكوفي ( ت ، ١٨٨هـ ) وهـو ثقه صحيح الكتاب(٤٩) واكد المزى روايته عنه(٥٠) ٠

**عبدالله بن ادريس بن يزيـد الاووى الـكوفي ( ت ، ١٩٢ هـ ) وهو** ثقه(٥١) ٠

حفص بن غياث النخعي الكوفي ( ت ، ١٩٤هـ ) وهو ثقه فقيه(٥٢) واكد المزى روايته عنه(٥٣) ٠

---

ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/٣١٩

(٤٦) تقريب التهذيب ٢/٢١٠

(٤٧) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٤٨) الذهـبي ، كاشف ، ١/١٠٩
تقريب ، ١/٣٠٢

(٤٩) تقريب التهذيب ١/١٢٧

(٥٠) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٥١) تقريب التهذيب ، ١/٤٠١

(٥٢) تقريب التهذيب ، ١/١٨٩

(٥٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٥٤) تقريب التهذيب ، ٢/١٣١

وكيع بن الجراح بن فليح الرواسي الكوفي ( ت ، ١٩٧هـ ) وهو ثقه حافظ(٥٤) واكد المزى روايته عنه(٥٥) .

ابو شجاع بن الوليد بن قيس السكوني ابو بدر الكوفي ( ت ، ٢٠٤هـ ) وهو صدوق ورع واكد المزى روايته عنه(٥٩) .

بكر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عيسى الانصارى الكوفي القاضي ( ت ، ٢١١هـ ) وهو ثقه(٦١) واكد المزى ، روايته عنه .

— طلق بن غنام النخعي أبو محمد الكوفي ( ت ، ٢١١هـ ) وهو ثقه(٦٢) واكد المزى روايته عنه(٦٣) .

— عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن محمد المحاربي ابو زياد الكوفي ( ت ، ٢١١ ) وهو ثقه(٦٤) واكد المزى روايته عنه(٦٥) .

— عبيدالله بن موسى العيسى الكوفي ( ت ، ٢١٣هـ ) وهو ثقه(٦٦)،

---

(٥٥) تهذيب الكمال ١/٢٥١
(٥٦) تقريب التهذيب ، ١/١٩٥
(٥٧) تهذيب الكمال ، ١/٢٥
(٥٨) تقريب التهذيب ، ١/٣٤٧
(٥٩) تهذيب الكمال ١/٢٥
(٦٠) كاشف ، ٣/١٥٩
تقريب التهذيب ، ٢/٢٦١
(٦١) تقريب التهذيب ، ٢/٢٦١
(٦٢) تقريب التهذيب ، ١/٣٨٠
(٦٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٦٤) تقريب التهذيب ، ١/٥٠٤
(٦٥) تهذيب الكمال ١/٢٥٠
(٦٦) تقريب التهذيب ، ١/٥٣٩ـ٥٤٠

واكد المزى روايته عنه(٦٧) ٠

— خالد بن مخلد القطواني ابو الهيثم البجلي الكوفي ( ت ، ٢١٣هـ) وهو صدوق(٦٨) واكد المزى روايته عنه(٦٩) ٠

— خلاد بن يحيى السلمي الكوفي نزيل مكه (ت ٢١٣هـ) وهو صدوق(٧٠)

— ابو نعيم الفضل بن دكين الكوفي ( ت ، ٢١٩هـ ) وهو ثقه ثبت(٧١) ٠

— محمد بن أبي أيوب أبو عاصم الثقفي الكوفي وهو صدوق(٧٢) ٠

— عمر بن حفص بن غياث الكوفي ( ت ، ٢٢٢هـ ) وهو ثقه(٧٣) واكد المزى روايته عنه(٧٤) ٠

— احمد بن عبدالله بن يونس التميمي اليربوعي الكوفي (ت ، ٢٢٧هـ) وهو ثقه حافظ(٧٥) واكد المزى روايته عنه(٧٦) ٠

---

(٦٨) تقريب التهذيب ١/٢١٨

(٦٩) تهذيب الكمال

(٦٧) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٧٠) تقريب التهذيب ، ١/٢٣٠

(٧١) كاشف ، ٢/٤٠٧

(٧٢) نفسه ، ٢/١٤٧

(٧٣) نفسه ٢/٥٣

(٧٤) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٧٦) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

(٧٧) الذهبي ، كاشف ، ٣/٢٢٤
ابن حجر ، تقريب التهذيب ، ٢/٢٠٢

**مدينة واسط :**

— هشيم بن بشير الواسطي ( ت ، ١٨٣ ) وهو ثقه ثبت(٧٧) واكـد المزى عنه(٧٢) ٠

— اسحاق بن يوسف الازرق المخزومي الواسطي ( ت ، ١٩٥هـ ) وهو ثقه عابـد(٧٩) ٠

— يزيد بن هارون السلمي مولاهم ابو خالد الواسطي ( ت ، ٢٠٦هـ ) وهو ثقه متقي(٨٠) واكد المزى روايته عنه(٨١) ٠

— وهب بن بقية الواسـطي ( ت ، ٢٣٩هـ ) وهو ثقـه(٨٢) واكـد المزى روايته عنه(٨٣) ٠

**مدينـة المدائن :**

لاى فيها عن صيخها صبابة بن سوار المدائني مـولى بني فزارة ، ( ت ، ٢٠٤هـ ) وهو ثقه(٨٤) واكد المزى روايته(٨٥) ٠

**مديـنة بغـداد :**

يحيى معين البغدادي ( ت ، ٢٣٣ ) وهو ثقه حافظ(٨٦) ٠

---

(٧٩) كاشـف ، ١/١١٥
تقريب التهذيب ١/٦٣
(٨٠) تقريب التهذيب ، ٢/٣٧٢
(٨١) تهذيب الكمال ، ١/٢٥١
(٨٢) تقريب التهذيب ، ٢/٣٣٧
(٨٣) تهذيب الكمال ، ١/٢٥١
(٨٤) تقريب التهذيب ، ١/٣٤٥
(٨٥) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠

**مكـه المكرمـة**

روى فيها عن عدد من شيوخها ، وابرزهم :

ـــ موسى بن داود الضببي المكي ( ت ، ٢١٧ ) وهو ثقه زاهد(٨٧) ٠

ـــ محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي مولاهم المكي ( ت ، ٢٢٠هـ ) وهو مقبول من العباد(٨٨) واكد المزى روايته عنه(٨٩) ٠

ـــ غسان بن المفضل الغلابي المكي وهو ثقه(٩٠) ٠

**الجزيرة الفراتية والشام وثغورهما :**

كما روى أحمد الدورقي عن عدد من شيوخ الجزيرة الفراتية والشام وثغورهما كما يأتي ٠

**مدينـة الرقـة :**

١ ـ عبدالله بن جعفر بن غيـلان الرقي القرشـي ( ت ، ٢٢٠ ) وهـو **ثقه(٩١) واكد المزى روايته عنه(٩٢) ٠**

٢ ـ عبدالسلام بن عبدالرحمن بن صخر الوابصي قاضي الرقه ثم بغداد

---

(٨٦) الكاشف ، ٢٦٨/٢
تقريب التهذيب ، ٣٥٨/٢

(٨٧) تهذيب الكمال ، ١٨/ورقة ٢١٦
الذهبي ، كاشف ، ١٨٣/٢
ابن حجر تقريب ، ٢٨٢

(٨٨) تقريب التهذيب ، ٢١٩/٢

(٨٩) تهذيب الكمال ، ٢٥١/١

(٩٠) الخزرجي ، خلاصة تهذيب الكمال ، ٣٠٧

(٩١) تقريب التهذيب ، ٤٠٦/١

(٩٢) تهذيب الكمال ، ٢٥٠/١

(٩٣) تقريب التهذيب ، ٥٠٦/١

( ت ، ٢٤٧هـ ) وهـو مقبـول الرواية(٩٣) واكـد المزى روايتـه عنه(٩٤) ٠

**حـلب :**

جبشر بن اسـماعيل الكلبي مـولاهم الحلبي ( ت ، ٢٠٠ ) وهـو صدوق(٩٥) واكد المزى روايته عنه(٩٦) ٠

**المصيصـه :**

وهى مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام ، وكانت من الاماكن التى يرابط بها المسلمون قديما ، وابرز الشيوخ الذين روى عنهم فيها :ـ

ـــ حجاج بن محمد المصيصي الاعور نزل بغداد ، المصيصه (ت،٢٠٦هـ) وهو ثقه ثبت(٩٧) واكد المزى روادته عنه(٩٨) ٠

ـــ خلف بن تميم بن ابي عتاب الكوفي نزيل المصيصه ( ت ، ٢٠٦هـ ) وهو صدوق عابد(٩٩) ٠

ـــ محمد بن كثيـر الثقفـي المصيصـي ( ت ، بعد ٢١٠هـ ) وهو صدوق(١٠٠) واكد المزى روايته عنه(١٠١ ٠

---

(٩٤) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٩٥) تقريب التقريب ، ٢/٢٢٨
(٩٦) تهذيب الكمال ، ١/٢٥
(٩٧) تقريب التهذيب ، ١/١٥٤
(٩٨) تهذيب الكمال ، ١/٢٥٠
(٩٩) تقريب التهذيب ، ١/٢٢٥
(١٠٠) الذهبي ، الكاشف ، ٣/٩١
(١٠١) تهذيب الكمال ، ١/٢٥١
(١٠٢) تقريب التهذيب ، ١/٢٧

ـــ ابو عبدالله احمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الشهيد المصيصي ( ت ٢٣١هـ ) وهو ثقه(١٠٢) واكد المزى روايته عنه(١٠٣) .

مؤلفاته :

وذكر الذهبي ، بانه « صنف التصانيف »(١٠٤ لكنه لم يذكر عناوينها ، واكد ابن خير الاشبيلي ، انه صنف سيرة عمر بن عبدالعزيز وزهده ، في خمسة أجزاء ، وكتاب زهد بن سيرين ، وايوب ، ووهيب بن الورد ، وابراهيم بن أدهم ، وسليمان الخواص(١٠٥) وذكر سزكيين بانه صنف مسند سعد بن ابى وقاص ، واكد وجود نسخه منه في المكتبة الظاهرية بدمشق(١٠٦) .

توثيقه :

يعد احمد بن ابراهيم الدورقي من العلماء البارزين والمبدعين ، في ميدان علم الحديث(٥٧) .

حيث كان مصنعا عادلا في مروياته للتاريخ الاموى بصفه خاصة ونظرا لمكانته في علم الحديث ، فقد روى عنه الامام مسلم ( ت ، ٢٦١هـ ) وابن ماجه ( ت ، ٢٧٣ ) وابو داود ( ت ، ٢٧٥ ) والترمذى (ت،٢٧٩هـ) وكثير غيرهم .

---

(١٠٣) تهذيب الكمال ، ١/ ٢٥٠

(١٠٤) العبر ، ١/ ٤٤٦

(١٠٦) سزكين في تاريخ التراث ( ١/ ٣٠٢) . والكتاب موجود ضمن مجامع رقم ١٣٧ ، من ١١٧ أ ـ ١٣٨ ب/ ٢٥دهـ ) .

(١٠٧) المزى ، تهذيب الكمال ، ١/ ٢٥١ ، ابن حجر تهذيب الكمال ، ١/ ١٠

وثقه صالح بن محمد المعروف بجزرة ( ت ، ٢٩٣هـ ) وابو جعفر محمد بن عمرو العقد ( ت ، ٣٢٢ ) وابن حبان البستي ( ت ، ٣٥٤ هـ ) والخليلي ( ت ، ٤٤٦ ) « متفق عليه »(١٠٨) وقال عبدالرحمن بن ابي حاتم الرازى ( ت ، ٣٧٧هـ ) سئل ابى عنه ، فقال : « صدوق »(١٠٩) وقال يعقوب بن ابى اسحاق بن محمود سألت صالح بن محمد ( ت ، ٢٩٣ ) عن يعقوب ، واحمد الدوقي .

فقال : كان احمد اكثرهما حديثاً ، واعلمهما بالحديث ، وكان يعقوب أسندهما وكانا جميعاً ثقة(١١٠) ، واشاد به الذهبي ( ت ، ٧٤٨هـ ) قائلا : « الحافظ الكبير المجود ... وكان حافظهما حسن التاليف »(١١١) .

اما عن طبيعة المعلومات التي اوردها الدورقي من الامويين ، فانها كانت ذات طابع سياسي حيث تناولت بتفصيل واسع حياة الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رض) وفضائله ، وخدمته للأسلام وجوانب مختلفه من حياته بما في ذلك ، سيرته وخلافته ، وفصل بصورة واسعة ودقيقة عن حركة التمرد على الخليفه عثمان ـ حيث تناول اسبابها ، والعناصر التي ساهمت بها . وموقف الصحابة جميعاً من تلك العناصر ، ومن ثم الجرأة على الخليفة عثمان من قبل المتمردين ، حتى تفاصيل استشهاده ،

---

(١٠٨) ابن حجر تهذيب التهذيب ، ١/١٠
(١٠٩) الجرح والتعديل ، ج١/ق١/٣٩
الذهبي ، تذكره الحفاظ ، ٢/٥٠٥
المزى ، تهذيب الكمال ١/٢٥١
(١١٠) نفسه ، ١/٢٥
(١١١) تذكرة الحفاظ ، ٢/٥٠٥

ومن ثم دفنه ، وفصل في هذا الموضوع تفصيلا وافياً ٠

وتطرق بعد ذلك الى النتائج البطيرة التى اعقبت حادثه استشهاد الخليفة عثمان وحدوث الانقسامات والصراعات بين العرب ، حيث توجب تلك الانقسامات عليها بقدوث واقعة الجمل وماتمخض عنها من نتائج سلبية وتناول الدورقي هذا الموضوع بأسهاب واسع ٠

ثم تناول الدورقي واقعة صفين واسباب حدوث الانقسامات بين علي ومعاويه ، وايضا اسهب في تفصيل هذا الموضوع بما في ذلك شدة القتال بصفين واقرار مسألة التحكيم وظهور الخوارج وانعقاد مؤتمر اذرح بحل المشكلة ثم تناولت معلوماته خلافة يزيد بن معاويه ، ثم خلافة معاوية بن يزيد ، حيث كانت معظم المعلومات ذات طابع سياسي ، وفي هذه الفترة فصل كثيرا في تاريخ زياد بن ابي سفيان ، وابنه عبيدالله وبالاخص الاحداث المتعلقة بالكوفة والبصره ، حيث تعتبر رواياته عنهم في هذا الميدان من بين المعلومات المهمة عن تاريخ العراق في هذه الفترة ، ولم يفصل كثيرا في معلوماته عن الفترة الاموية اللاحقة ، لهذه الفترة كخلافه مروان بن الحكم ، وابنه عبدالملك ، وكذلك حديثه عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذى كان مقتضبا ايضا ولعل هذا الاقتضاب كان من انتقاء المؤرخين الذين اوردوا لنا مرويات الدورقي وبالاخص خليفة بن خياط ، والبلاذرى ( ت ، ٢٧٩ ) ، والطبرى ( ت ، ٣١٠هـ ) وغيرهم وقد تكون معلوماته ومدوناته عن الفترة الاموية هذه فقد فقدت ايضاً ولم يطلع عليها المؤرخين الكبار الذين دونوا لنا المعلومات المتعلقة بهذه الحقبه ، ذلك لان الدورقي ، قد صنف « سيرة عمر بن عبدالعزيز » الذى يبدوا انه لايزال مفقودا ٠

وفي الواقع ان معلوماته عن الامويين في هذا الجانب تعد من بين

المعلومات المهمة والموثوقة ، وذلك من ناحية تتبعه لتفاصيل الاحداث،ومن ناحية الاسانيد الموثوقه التي تناولها حيث تميزت اغلب اسانيد مروياته كونها موثقة ودقيقة ، ومعظمها تنتهي بأشخاص قد عاصروا الاحداث التي تحدثوا عنها واحيانا كان ينتهي السند بعدد من الصحابة الكرام الذين عاصروا الاحداث ،

ومما تجدر الاشارة اليه ان مروياته قد اعتمدت في اغلبها على رواة من البصره والكوفة وخاصة من رواة القبائل العربية فيها ، وهذا يعكس دور أهمية ومكانة مدرسة البصرة التاريخية في التدوين التاريخي ويعكس الامر كذلك ، دقة ومنهجية البدورقي في انتقاء معلوماته من مصادر قريبة من مواقع الاحداث ، حيث كانت تنتهي أسانيد مروياته الموقوفه بشيوخ كوفيين او بصريين ، رغم ان اعتماده على شيوخه البصريين كان يفوق ماعند الكوفيين ، وتعد معلوماته عن واقعة الجمل وصفين ، وعن الكوفه والبصره في عهد زياد وابنه عبيدالله من المعلومات الدقيقة من خلال اعتمادها على اسانيد معاصرة للحوادث التاريخية هذه او قريبة منها ، ويمكن القول ان مساحة المعلومات التاريخية لمعلوماته تناسب مع حجم الحوادث التي تناولها ، حيث كانت المدينة المنوره وماشهدته من حوادث خلافة عثمان بن عفان (رض) واستشهاده ، قد أخذت حصة جيده من المعلومات التاريخية التي تناولتها ، وكذلك الحال بالنسبة للبصره ، والكوفة ، وما رافقها من حوادث متعلقة بواقعتي الجمل وصفين ، حيث كانت مركزاً للخلافة الراشدية في عهد الخليفة الراشد علي بن ابي طالب، اضافة الى ماشهدته من حوادث تاريخية في عهد زياد وابنه عبدالله ، لذلك فصل في الحوادث التاريخية الواقعة فيهما ، فكانت معلوماته تفصيلية عن تواريخ المدن التي شهدت حوادث تاريخية مهمة في تاريخنا العربي ،ويمكن

ادراك حجم وقيمة مصادر معلومات الدورقي عن الحوادث التي تطرق لها، من خلال انتقاءه لتلك المصادر القريبة من مواقع الحوادث ، من خلال عدم اعتماده على شيوخ المدرسة البغدادية في التاريخية ، نظراً لبعدهم جغرافيا وزمانياً عن تواريخ ومواقع الاحداث التي وقعت في الفترة الاموية والتي تناولها ، فمن مجموع مروياته الواسعة لم يعتمد الدورقي الا على روايه مصدرها يحيى بن معين البغدادي ( ت ، ٢٣٣هـ ) ثم وجود علماء كبار وبارزين في مدرسة بغداد التاريخية .

ويمكن ملاحظة دقته ذلك الانتقاء لمصادر معلوماته من خلال اعتماده على مايزيد من عشرين شيخ بصري ومايزيد على عشرة شيوخ كوفيين ، اضافة الى بعض شيوخ من واسط ، والمدائن ، ومما يلاحظ ان اغلب اسانيد هؤلاء الشيوخ موثوقه ودقيقة ومهمة من ناحية ترابطها وتسلسلها التاريخي ، ومن ناحية ، درجة توثيقها من خلالها اعتمادنا على كتب الجرح والتعديل ، ونحن نعلم انه من الصعوبة بمكان تطبيق قواعد الجرح والتعديل في الحديث النبوي الشريف على المرويات التاريخية ، ومع كل ذلك فاننا حينما اعتمدنا تلك المعايير وجدنا ان هناك اكثر من ٨٠٪ من اسانيد تلك المرويات موثوقه ودقيقة وامينة ، وهذا مما يعطي اهمية كبيرة لطبيعة المعلومات التاريخية التي اوردها ومما يلاحظ على تلك المعلومات التاريخية التي اوردها ومما يلاحظ على تلك المعلومات نزاهة وأمانة الدورقي فيما اورده من معلومات حيث لم يظهر جانب الانحياز ، لاحد على حساب أحد ، كما انه لم يجرح او ينتقد أحد من الامويين الذين تحدث عنهم حيث عرض تفاصيل الحوادث وقعت قدر الامكان بدون ان يظهر انحيازاً لاحد ، وهذا مما يعطي اهمية كبيرة للمعلومات التاريخية التي اوردها عن الاسرة الاموية .

# المكتبات الجامعية في التراث العربي الاسلامي من المصادر التاريخية والاثرية

د. صلاح العبيدي

للعلم في الاسلام فضيلة وللتعلم اجر وثواب تجسدت الدعوة اليه في كل صورة وتواصل الحديث عنه في كل باب حتى أصبحت مفردة ( علم ) من أكثر المفردات شيوعا واوسعهـا استعمالا واوفاها غرضا في القرآن الكريم والحديث النبوي والتشريع لما تؤديه من اغراض وتؤكده من حالات تسمو بالانسان من حالة الجهل الى حالة المعرفة ، ومن صورة التخلف الى صورة الارتقاء حتى كانت مفردة « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم(١) » وكانت « ن والقلم وما يسطرون »(٢) و « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »(٣) وكانت غيرها من الآيات مفاتيح لعالم المعرفة وابوابا لحديث البناء الانساني الذي يأخـذ بحيـاة الانسان الى حيث السمو الانساني .

كما حث الرسول (ص) على طلب العلم حتى جعله فريضة على كل مسلم » وقال صلوات الله عليـه « العلماء ورثة الانبياء ان الانبيـاء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر »(٤) وقد جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام انه قال « اقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد ، اما اهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت

ية الرسل ، اما اهل الجهاد فجاهدوا باسيافهم على ما جاءت بسنة الرسل »(٥) كما قال عليه الصلاة والسلام « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء »(٦) « اي ان المداد الذي ينفقه العالم في تأليف الكتب لنفع الناس يعادل دم شهيد بل يرجح عليه في بعض الروايات ٠

وقام المسجد بدور فعال في النشاط العلمي والثقافي ، والمعروف ان المساجد كانت في العصر الاسلامي الاول مراكز للتدريس والتعليم ، فلم تكن دور عبادة فحسب وانما كانت دور علم ايضا فيها تقام الصلوات وتعقد حلقات الدراسة والتدريس ، حيث كان العلماء والفقهاء والادباء يجلسون في المساجد وحولهم طلبتهم وسامعوهم فيحدثون ويوعظون ويلقون محاضرات علمية ، فلم تكن حلقاتهم اذن فقط للوعظ الديني بل كانت اشبه بالمدارس او بالكليات يلقي الاستاذ أو المحاضر في المسجد ما يرغب ان يلقيه من علم كلام وتصوف ولغة وفلسفة ٠ ففي البخاري عن ابي واقد الليثي قال : « بينما رسول الله (ص) جالس في المسجد اذ اقبل ثلاثة نفر ، فاقبل اثنان الى رسول الله (ص) فوقفا على رسول الله (ص) فرأى احدهما فرجة في الحلقة فجلس وجلس الآخر خلفهم »(١٢) ٠

والى جانب المسجد كانت الكتاتيب يتعلم فيها الصبيان ، القراءة والكتابة ، والمكتب هو الموضع الذي يعلم فيه الاولاد(٧) وكان يطلق على المعلم الذي يعلم الصبيان بالمكتب(٨) ٠

وكانت عناية الامويين بالقراءة والكتابة وبالتعليم بصورة عامة كبيرة وكان الخلفاء من أكثر الناس اهتماما بالتعليم ونشره ، ومما يذكر عن الخليفة عمر بن عبدالعزيز انه قام بحملة على الامية ، كما كان

الحجاج بن يوسف الثقفي يقوم بتعليم الصبيان بالطائف(٩) ٠

وتابع الوليد بن عبدالملك الناس في تعلم القرآن وكان يعاقب الذين لايعرفون قراءته ويفرض عليهم العقاب حتى يقرأه ويكافيء الاخرين ويقضي ديون ممن عرفوا القراءة(١٠) ٠

وفي هذا العصر نجد اهتماما كبيرا بتوفير الكتب وايداعها في مكتبات خاصة ، وتذكر لنا النصوص التاريخية ان أول من عرفت له مكتبة هو خالد بن يزيد الذي توفى سنة ٨٥هـ/٧٠٤م وهو الذي عنى باخراج كتب القدماء وأول من ترجمت له كتب الطب والنجوم والكيمياء(١١) حتى سموه « حكيم آل مروان » ٠

كما كانت هناك كتب وصحف دينية يجمعها العلماء عن العرب وعن رجال الدين فقد روى أن أبا عمرو بن العلاء كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا له الى قريب من السقف ثم انه ( تقرا ) أي تنسك فاحرقها كلها »(١٢) ٠

أما في العصر العباسي فقد ازداد الاهتمام بالتعليم ونشر الثقافة والفنون ، ويعتبر العصر المذكور عصر النقل والترجمة ، اقيمت من أجلها الدواوين واستقدم العلماء واغدق عليهم المال والتكريم وترجمت العلوم عن اليونانية والسريانية والهندية ٠ وكان في مقدمة من اهتموا بهذا الجانب الخليفة العباسي محمد المهدي اذ تذكر الروايات التاريخية انه أول من عنى بجمع الكتب وتابع عملية نقل التراث الاجنبي ويعتبر عصر الرشيد والمأمون العصر الذهبي للترجمة وبلغ من حبهم للعلم ان وجدنا الخليفة المأمون يطلب عقب انتصاره على ميخائيل الثالث تسليمه جميع

المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة ولم تترجم الى العربية بعد تعويضا لخسارة الحرب(١٤) ٠

وعلى العموم فقد تميز العصر العباسي بحركة علمية متميزة اعتمدت على تأسيس متين للكتاب العربي وتأصيله ليعبر عن الهويه العربية الاسلامية متمثلا بمؤلفات أصحاب الحديث والفقهاء وعلماء المنطق والطب والفلك والعلوم والفنون ، وقد اتسعت دائرة التأليف بشكل خاص بعد القرن الرابع الهجري لتكون بمتناول الجميع وخاصة بعد انتشار المدارس والمكتبات الخاصة والعامة الامر الذي أدى الى انتشار صناعة الكتاب واستنساخه ، ومما شجع على ذلك ظهور صناعة الورق تداوله على نطاق واسع الامر الذي ساعد على نشوء حرفة خاصة هي « حرفه الوراقين ، وهم أصحاب المكتبات الادبية التي تبيع وتؤجر الكتب ، وكانت حوانيت الوراقين مجتمع الادباء والكتاب والظرفاء والشعراء »(١٥) ٠

اما مراكز التعليم في العصر العباسي فقد شهدت هي الاخرى تطورا كبيرا ، فالى جانب المسجد والمكتب ظهرت المدرسة والحلقات ودور العلم والحكمة فكان التلاميذ يترددون عليها بعد ان يختموا القران ويتعلموا مبادىء القراءة والكتابة والعلوم الدينية الاولية يوفدون الى المدارس والحلقات لتعلم العلوم الاخرى والتخصص في نوع منها أو التوسع في بعضها والوقوف على اخبار العرب وأيامهم ورواية الشعر والسيرة والتاريخ والحساب والفلك والعلوم الاخرى ، وتمثل هذه المرحلة مرحلة متقدمة في التعليم بعد الدراسة الاولية في الكتاتيب ٠

ومن اشهر مدارس بغداد في العصر العباسي المدرسة النظامية التي انشأها لوزير نظام الملك الذي قام بتشييدها سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م

وكانت جامعة بمعنى الكلمة ·

ومن اشهر مدارس القاهرة الازهر وفي الشام شيد نورالدين زنكي بالمدرسة البادرائية · وفي شمال افريقيا انشئت مدرسة في جامع الزيتونة
باجمدرسة البادرائية · وفي شمال افريقيا انشئت مدرسة في جامع الزيتونة
كما انشئت في فاس بالمغرب مدرسة القزويين(١٦) ·

وكانت هذه المدارس والجامعات مراكز اشعاع علمي وثقافي ·

ولأجل ان تؤدي هذه المؤسسات العلمية مهمتها كان لابد من توفير المستلزمات الضرورية لها ، ومن عنا جاء الاهتمام بانشاء المكتبات وخزائن الكتب ودور الحكمة لكي يرجع اليها الاساتذة والطلبة للتزود بالمعلومات العلمية بعد ان ادركوا قيمة المكتبات وفوائدها وشدة الاحتياج اليها لذلك اعتبروها أساسا ترتكز عليه قواعد الثقافة وركنا تتوثق به دعائم الحضارة ومرجعا لاحكام الدنيا والدين ·

ومع تقدم الحركة الفكرية امتلأت المكتبات بالمألوفات القيمة التي تتناول مختلف صنوف العلم والمعرفة وهكذا نشأت خزائن الكتب ودور الحكمة وانتشرت بطريقة لم تتعود عليها بقية الامم في ذلك التاريخ وبعده وتوزعت في الحواضر وكبريات المدن وتكاثرت فأصبحت تضم الالوف من المخطوطات تنافس في اقتنائها الخلفاء والامراء والاثرياء والادباء(١٧) · ويمكن ان نعتبر دور الحكمة مؤسسات علمية للثقافة العالمية أكثر كتبها في الحكمة والفلسفة والمنطق والطب والنجوم والرياضيات وغيرها من الكتب العلمية(١٨) وسنشير تباعا الى هذه الدور أو الخزائن ·

وكانت هذه الخزائن متنوعة الاغراض والوظائف منها الخاصة مثل مكتبة أو خزانة الجاحظ ، الذي كان له اهتمام باقتناء الكتب وجمعها

حتى صار له منها خزانة أدت الى موته ، فقد روى ان موته كان بوقوع مجلدات عليه . وكان عليلا فسقطت عليه وقتلته(١٩) .

وهنـاك خزانة حنين بن اسـحاق الذي تجاوزت مؤلفاته المائة والثلاثين مؤلفا ، وكانت خزانتـه حافلة بتصانيف الاغريق والعـرب والاراميين وغيرهم قل وجودها في أية مكتبة(٢٠) .

كما كان « لاسحاق الموصلي مكتبة فيها الف جزء من لغات العرب كلها سماعة »(٢١) .

كما كان لدى الكندي خزانة يطلق عليها اسم الكندرية(٢٢) .

والى جانب المكتبات الخاصة كانت هناك مكتبـات عامة كان الطـلاب وغيرهم يرتادون اليها للمطالعة والاستفادة مما تضم من أنواع المعـرفة وكان بعضها يقدم الورق وأدوات الكتابة للقـراء ، ومن خزائن الكتب المعروفة خزانة الانبار وخزانة الكتب بمدرسة الامام أبي حنيفة والخزانة الحيدرية في النجف ودار العلم بالموصل ونار العلم ببغداد .

وهناك أنواع أخـرى من المكتبات يمكن ان نطلق عليهـا المكتبات الجامعية ، ومن اشهرها مكتبة « بيت الحكمة أو خزانة الحكمة » التي انشأها الخليفة العباسي الرشيد في بغـداد حوالي سنة ١٨٥هـ/٨٠١م وذاع صيتها في عهد الخليفة المأمون . وبيت الحكمة كانت مكتبة واسعة رتبت فيها الكتب ونضدت على رفوف خاصة بحسب لغتها وفرع العلم الذي تبحث فيه . وكانت أيضا الى جانب ذلك تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ وقد عين الخليفة هارون الرشيد في تلك المكتبة يوحنا بن ماسوية مترجما للكتب الطبية القديمة التي تم نقلهـا من انقـرة وعمورية وقـد توسعت خزانة الحكمة وصار بها عدة خزانات ونساخ ، وكان النساخ

ينسخون الكتب اما لقاء جراية معلومة من الخليفـة ، أو ينسخون على حساب العلماء والاغنياء لقاء أجر معلوم(٢٣) .

وعندما تولى المأمون الخـلافة وجـه همـه الى توسيع دوائر بيت الحكمة العلمية ، وجعل « سهل بن هارون » مشرفا على المكتبة لما كان من أهمية في نظر الدولة وزادت محتويات هذه المكتبة . وقال ابن نباته عند الكلام على سهل بن هارون وجعله كاتبا على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وجعل سهل بن هارون خازنا لها(٢٤) .

فكان بيت الحكمة يحـوي كل غـريب ونادر من الكتب في مختلف العلوم ، اذ كثيرا ما يضطر الراغبون في الحصول على كتاب من الكتب ان ينسخوه من بيت الحكمة لانفرادها بـه . فأصبح بيت الحكمة زمن المأمون معهـدا علميا بالمعنى الدقيق للكلمة فهي تحوي اماكن للدرس ، وأخرى لخزن الكتب واماكن للترجمة والتأليف الى جانب المرصد الفلكي والنشاط الفلكي(٢٥) .

كما اسس الاغالبة « بيت الحكمة » في القيروان لتسهيل نشر علوم الفلسفة والحكمة بين كافة الطبقات وسعى الاغالبة بجلب الكتب العلمية من العراق والشام ومصر(٢٦) .

اما دار الحكمة في طرابلس فقـد اسسها آل عمـار وهي من الاسر الكبيرة العلمية التي كانت بطرابلس الشام ، وكانت رعايتهم لها كبيرة جدا فكانوا يصرفون على الدار بسخاء فأضافوا اليها آلاف الكتب المختلفة من علمية وفلسفية وأدبية وفقهية وغير ذلك .

فشجعوا المؤلفين وانفقـوا على النساخين الذين كانوا ينسـخون

الكتب المختلفة فيها ، وتذكر الروايات التاريخية انه كان يعمل بها مائة وثمانون نساخا ينسخون لها الكتب بالجراية ، والنفقة عليهم جارية(٢٧) .

ويمكن ان نستدل على حجم هذه الدار من خلال الاعداد الهائلة من الكتب التي كانت تضمها ، ويقال انه كان بها عند أول تأسيسها مائة ألف كتاب(٢٨) .

ويبدو ان بيت الحكمة كان مجموعة خزائن كل مجموعة من الكتب خزانة وان سهل بن هارون كان مشرفا على القسم الذي احضرته بعثة القسطنطينية كذلك يغلب على الظن ان كتب الرشيد قد افردت في خزانة وكتب المأمون قد افردت في أخرى(٢٩) .

كما اسست دار حكمة أخرى في مدينة مراغة ، وتذكر الروايات التاريخية انه نقل اليها من بلاد العراق والجزيرة والشام من الكتب ما يربو على (٤٠٠٠٠٠) مجلد في شتى العلوم والمعارف(٣٠) .

ولابد ان ننوه هنا بدور الاوقاف في تأسيس المدارس والمكتبات ولدينا شواهد كثيرة تؤكد الخدمات الجليلة التي أدتها « مؤسسة الاوقاف » على الصعيدين العلمي والثقافي من تأسيس المدارس والمكتبات ووقف الكتب والمخطوطات عليها فقد ذكر الصابي انه في شهر رجب من سنة ٤٥٢هـ وقف غرس النعمة دار كتب بشارع ابن ابي عوف من غربي مدينة السلام ونقل اليها نحو الف كتاب » . ويذكر ابن الجوزي « ان غرس النعمة وقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد في فنون العلوم ومما يذكر عن خزانة غرس النعمة هذه ( مباءة للعلماء والدارسين ومكانا حسنا لمناظراتهم ومباحثاتهم ، وقد ذكر أبو الوفاء علي بن عقيل الحنبلي المتوفى

سنة ٥١٣هـ/١١١٩م في كتابه الموسوم « الفنون » حضرنا يوما بدار الكتب بشارع ابن ابي عوف فتذاكرنا أمر العل وتحسنه وتقبيحه(٣١) ٠

على ان من اشهر المكتبات في العصر العباسي مكتبة المدرسة المستنصرية وهي ذات قاعات واسعة للمطالعة مجهزة بما يساعد القراء على القراءة ٠

ويذكر المؤرخون ان أوقاف المدرسة المستنصرية من الكتب كانت كثيرة جدا فقد ذكر الذهبي في حوادث سنة ٦٣١هـ نقلا عن الساعي قال فيها « تكامل بناء المدرسة المستنصرية في بغداد ونقل اليها الكثير يوم افتتاحها من الربعات الشريفات والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والادبية ما حمله مائة وستون حمالا وجعلت في خزانة الكتب سوى ما نقل اليها فيما بعد(٣٢) ٠

وجاء في كتاب الحوادث الجامعة « ان هذه الكتب رتبت أحسن ترتيب مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها » وكانت بعضها بالخطوط المنسوبة الى اشهر الخطاطين العرب(٣٣) ٠ وجاء في عمدة الطالب ان المستنصر « اودع خزانته في المستنصرية ٨٠ الف مجلدا »(٣٤) وجعلها على المذاهب الاربعة وانفق من المال ما يعجز عنه الحصر ٠ ووقف عليها وقفا جليلا وقد وضع المستنصر لدار كتب المستنصرية شروطا منها ان تجعل الخزانة برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء ورتب لهم الورق والاقلام لمن يريد النسخ(٣٥) ٠

كما نظمت المكتبة حسب شرط الواقف فأصبح لها خازن ومشرف ومناول ٠

اما « دار الحكمة » فقد انشأها الفاطميون في مصر وكان الخلفاء يغذونها دائما بما يحصلون عليه من الكتب حتى ناف عدد مجلداتها على المليون ونصف مجلد(٣٦) .

وتذكر لنا الروايات التاريخية « انه حملت الى هذه المكتبة الكتب من خزائن القصور وحمل اليها من خزائن الحاكم من الكتب ما لم ير مثله مجتمعا لاحد الملوك أو الخلفاء قطا(٣٧) .

ويتحفنا المقريزي بصورة واضحة وغنية بالتفاصيل عن « دار الحكمة » اذ يقول كان البناء عظيما جدا اذ كانت عدد الخزائن برسم الكتب في سائر العلوم أربعين خزانة تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر الف كتاب وكانت الرفوف مفتوحة والكتب في متناول الجميع(٣٨) . ثم ازدادت عدد الكتب حتى بلغ عددها مليون وستمائة الف مجلد .

ولابد ان ننوه هنا بدور مؤسسة الاوقاف في ميدان المكتبات فقد زودتنا حجج الوقفيات بمعلومات على جانب كبير من الاهمية تتعلق بفهرسة الكتب وتصنيفها وتنظيمها وطرق الاعارة وتسجيل الكتب والمحافظة عليها والعاملين فيها والشروط التي ينبغي ان تتوفر فيها وواجباتهم .

فقد حددت بعض الوقفيات مواصفات « خازن الكتب » أو « خازن الكتب والربعات الشريفة » حيث كان يشترط فيه ان يكون « ثقة خيرا أمينا يقظا ذكيا فطنا عاقلا مأمونا بالغا في الامانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بترتيبها »(٣٩) . ليكون عونا للطلبة والباحثين في ارشادهم الى ما يحتاجون اليه من

وحرص الواقفون على ان يتولى هذه الوظيفة أحد العلماء أو الادباء

مراجع(٤٠) ٠

كما حددت بعض الوقفيات مهمة خازن الكتب وتبدأ هذه المهمة بأن يقـوم الناظر بتسليم الكتب الى أمين المكتبة ويشهد عليـه بتسلمها ٠ ولغرض المحافظة على الكتب فقد حرص بعض الواقفين على ضرورة عزل « خازن الكتب » « ان بدا من الخازن المذكور تقصير أو خيانة في الكتب استبدل الناظر غيره »(٤١) ٠

كما تناولت بعض الوقفيات نظام الاطلاع والاستعارة فقد وضع الواقفون لها شروطا فكان بعضهم اذا وقف على مكتبة ابدى حرصه عليها فاشترط ان لا يخرج منها شيء خارج المدرسة ٠

كما امدتنا بذلك وثيقة وقف الابشادي على ان « لا يخرج شيئا من الاشياء عن الجامع الازهر برهن ولا بغيره ولا يعطي من ذلك شيئا لمن يعرف فيه التفريط »(٤٢) ٠

كما امدتنا وثيقة أخرى من العراق ما يشير الى مثل هذا الاجراء كما فعل سليمان باشا الجليلي عندما اوقف على المدرسة الامينية اربعمائة مجلد وهو خبر امدتنا به مخطوط الدر المكنون(٤٣) ٠

وبالاضافة الى ما تقدم فقد ورد خبرا آخر في احدى الوقفيات ما يلي « ومن طلب منه كتابا في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفعه له لينتفع به في المدرسة ولا يمكنه من الخروج من المدرسة ولو دفع اليه شيئا يساوي اضعاف قيمته ، فاذا انتفع كل منهما بما طلبه في نسـخ هـذه أو مطالعـة فيه أو مقابلة عليه بالمدرسة رده الخازن الى الخزانة »(٤٤) ٠

اما الاعارة الخارجية فقد اختلفت بين المكتبات بعضها كانت الاعارة الخارجية متاحة فقد جاء على لسان صاحب معجم البلدان ما نصه « من

انه قضى بضع سنوات في مرو وكانت الكتب سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد واكثره بغير رهن(٤٥) .

ويروى عن أبو حيان الغرناطي قوله « اذا اردت كتابا استعرته من الاوقاف وقضيت حاجتي اذ انه لم يشتر كتابا واكدا »(٤٦) .

في حين وضع بعض الواقفين شروطا محددة للاعارة الخارجية ، فمثلا ابن خلدون اوقف نسخة من كتابه « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » على خزانة جامع القيروان وقد نص في وثيقة الاهداء والوقف انه لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية الا اذا كان المستعير شخصا ذا سمعة جيدة وأمينا وشريطة ان يدفع رهنا مناسبا وان يعيد الكتاب في مدة أقصاها شهران(٤٧) .

في حين ان بعض الوقفيات حددت مدة الاعارة بشهر واحد فقد جاء في وثيقة وقف جمال الدين الاستادار ما يشير الى ذلك « ومن حضر اليه من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاه المذكور لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلم اليه ان كان ثقة وان كان ممن يخشى منه منعه الا ان يضمنه نفر من أهل الخانقاة المذكورة ولا يعر شيئا من الكتب المستعارة بيد المستعير أكثر من شهر واحد في حين استعارته بل يأخذه منه عند مضي الشهر ولا يمكن أحد من اخراج شيء من الكتب لخارج الخانقاة المذكور واذا كان المستعير من غير أهل الخانقاة المذكورة سلم اليه ما يريد استعارته يطالع فيه نهارا بالخانقاه المذكورة فيه ثم يبيتها عند الخازن ثم يستعيرها منه نهارا »(٤٨) .

وبالاضافة الى ما تقدم فقد الزمت تعليمات بعض الواقفين ان يقوم الخازن بكتابه أسماء من يطلب منه كراسا ويأخذ منه ، ثم اذا اعاده

مسح أسمه »(٤٩)٠

وقد امتدت العناية بالمكتبات لتشمل نظافة المكتبه و كتبها فقد جاء بوثيقة ازبك ان يقوم أمين الكتب « احراز الكتب المذكورة بالخزانه ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة »(٥٠) ٠

أو كما جاء في وثيقة وقف السلطان فرج « حفظها ونفضها ، ويتفقد أحوالها بالاصلاح ووضعها بمواضعها بالخزانة المرصدة لها »(٥١) ٠

ونجد مثل هذا النظام متبعا في مدارس الموصل ، فعندما انشأ الحاج حسن باشا الجليلي وزوجته فردوس خاتون مدرسة بالموصل اوقف عليها من كتبه تحوى مخطوطات متنوعة تبحث في مختلف العلوم والادب وجلب لها أول الكتب المطبوعة من الاستانة ، وقد جاءت الوقفية محتوية على شروط كان الواقفان قد اشترط ضرورة الالتزام بها مما يدل على ان الواقفين قد تنبها الى بعض المظاهر السلبية التي كانت في المكتبات الاخرى كتراكم الاتربة فوق الكتب دون ان تمد يد لتنظيفها فوضعا شرطا في ان يقوم « خازن الكتب بمسح الكتب كل ثلاثة أشهر مرة فضلا عن قيامه بكنس المكتبة »(٥٢) ٠

وورد الينا ما يعبر عن حرص الخلفاء والواقفين في المحافظة على التراث العلمي والثقافي عندما استخدموا ختما خاصا بالكتب ، فقد ذكر ابن أبي اصيبعة ان « المأمون كان له ختم خاص يوضع على أغلفة الكتب »(٥٣) وكذلك الامر بالنسبة للواقفين فقد اتخذ بعضهم ختما خاصا بالوقف يمنع ان تمتد اليه يد عابثة تحوزه الى نفسها وقد كان في نفوس الناس رهبة لكل أنواع الوقفيات فلا يتجرأ انسان ولا تسول له نفسه ان يمد يده بسوء الى أي نوع من أنواع الوقف حتى ان المعتقد

السائد بين الطبقات ان احتوى بين ما له شيئا يعود الى الوقف كان يحكم على ما له بالحرام والاثم ٠

وعلى الرغم من الوازع الديني فقد جرت محاولات الا انها قليله للعبث بالكتب والمخطوطات الموقوفة فقد نقل الصابي عن صاحب كتاب « الفنون ٠٠ حادثه حصلت في خزانة غرس النتمة جاء فيها « ورتب بها خازنا يقال له ابن الاقساسي العلوي وتكرر العلماء اليها سنين كثيرة ما لم تزل له اجرة ، فصرف الخازن وحك ذكر الوقف من الكتب وباعها فانكرت ذلك عليه فقال قد استغني عنها بدار الكتب النظامية قال المصنف فقلت بيع الكتب بعد وقتها محفوظة فقال قد صرفت ثمنها في الصدقات »(٥٤) ٠

كما حرص القوم على المحافظة على الكتب من التمزق لذا عمدوا الى تجليدها فرصدوا الاموال الطائلة للغرض المذكور ويذكر ابن النديم « ان ابن ابي الحريش كان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون »(٥٥) ٠

كما رصد الواقفون مبالغ على تجليد المصاحف بالجامع الازهر وهي رزقة مقدارها عشرة أفدنة بأراضي ناحية المنصورية(٥٦) ٠

ومن الابتكارات التي تنسب الى البغداديين في ميدان الكتب والمكتبات هو ما توصل اليه الآمدي الذي كان استاذا في المدرسة المستنصرية ، بما يعرف بالكتابة البارزة ٠ اما قصة استنباطها فهي انه كان يحرز كتبا كثيرة اذا طلب منه كتاب وكان يعلم انه عنده نهض الى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته وان كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الاول مثلا أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك اخرجه بعينه وأتى به وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول يشمل هذا الكتاب

على كذا وكذا كراسة فيكون الامر كما قال واذا امر يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا وفيها القلم الغليظ كذا وهذا الموضوع كتب به في الوجهة - اي في الجانب - وفيها بالحمرة هذا وهذه المواضيع كتبت فيها بالحمرة وان اتفق انها كتبت بخطين أو ثلاثة قال اختلف الخط من هذا الى هنا من غير اخلال بشيء مما يمتحن به » .

ويعرف أثمان جميع الكتب التي اقتناها بالشراء وذلك انه كان اذا اشترى كتابا بشيء معلوم اخذ قطعة ولـق خفيفة وفتل منها فتيلـة لطيفة وضعها حرفا أو أكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الحروف ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأبد فاذا شذ عن ذهنه ثمن كتاب ما من كتبه حس الموضع الذي علمه في ذلك الكتاب بيده فيعرف ثمنه من تنبيت العدد الملصق فيه »(٥٧) .

وهكذا يؤكد العرب والعراقيون بوجـه خاص قدرتهم على الابتكار والابداع وان ما يقال عن الذي ابتدع الكتابة البارزة للعميان رجل فرنسي اسمه برايل عام ١٨٢٩ هو ادعاء بعيد عن الحقيقة والواقع .

وكثيرا ما كانت الدراسة تقام في المكتبات نفسها ، وقد امدتنا بعض المخطوطات المصورة بنماذج من هذه المكتبات ويعرض لنا الواسطي مثالا لمكتبة تضم استاذا مع تلاميذه وقد جلس الاستاذ بينهم وكأنه واحد منهم وراح يقرأ ويشرح لهم ما في الكتاب والتلاميذ يصغون الى استاذهم والى قوله . وقد ظهرت خلف الجميع مكتبة واجهتها مفتوحة ومقسمة الى عدد من المربعـات صف فيهـا مجموعة من الكتب بعضها فوق بعض بطريقة افقية ( شكل ١ ) .

وفي تصويرة أخرى من نفس المخطوط نموذج آخر من المكتبات في

العصر العباسي ، حيث تعرض التصويرة المذكورة مشهدا يمثل درسا لاستاذ يشرح لتلاميذه ويمسك كل واحد منهم بتابه المفتوح وتستقر خلف صورة الاستاذ وتلاميذه مكتبة منفذة في هيئة دولاب حائطي له طرفان مغلقان وبقي الجزء الاوسط من المكتبة مكشوفا صفت فيه من الاسفل مجموعة من الكتب بطريقة قائمة ورأسية تبدو فيها كعوبها بينما صفت الكتب العليا بطريقة عرضية بعضها فوق بعض(٥٨) ( شكل ٢ ) ٠

وفي المتحف البريطاني بلندن تصويرة من مخطوط مقامات الحريري يرجح انها من بغداد يعود تاريخها الى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م تضم مكتبة واجهتها مفتوحة مؤلفة من صفين من الرفوف ومقسمة عموديا الى عدة أقسام صنفت في كل قسم فيها مجموعة من الكتب بعضها فوق بعض بطريقة افقية بينما جلس أسفل المكتبة مجموعة من الاشخاص ويمسك معظمهم كتبا تبدو عليها اثار كتابة بينما نرى أحدهم وقد مد يده اليمنى الى كتاب زميله المفتوح كأنه يطلب شيئا أو يستفسر عن شيء (شكل ٣) ٠

والصور المتقدمة تؤكد بان المدارس العربية كانت تضم مكتبات تحفظ فيها الكتب التي يمكن ان يرجع اليها الاستاذ أو الطالب عند الحاجة وفي متناول أيديهم ٠

ومثل هذا التقليد في استخدام المكتبة لدراسة معمولا به في معظم الجامعات الاوربية في الوقت الحاضر حيث تقام حلقات الدرس والبحث فيها والتي تقتصر على مجموعة قليلة من الطلبة وخاصة طلبة الماجستير والدكتوراه ٠

هذه لمحة بسيطة عن المكتبات في التراث العربي الاسلامي والدور الرائد الذي قدمته عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية حيث كان

العالم العربي مركز اشعاع لجميع العالم . ان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت ان تحقق لها منهجا علميا وتضع نظاما جامعيا في كيفية التعليم وتهيء للمتعلمين الوسائل الكفيلة باستمرار تعلمهم لتدفعهم الى أخذ العلم والتزود به . وقد استطاعت من خلال ذلك ان تؤكد وجودها الحضاري والثقافي في وقت كان فيه العالم بعيدا عن العلم والثقافة .

ان هذه الامة قادرة الآن على ان تستمر فيما بدأت به اسلوبا ومنهجا لتأخذ دورها في البناء الحضاري وتؤكد أصالتها في التعليم والتعلم ونرجو ان تتاح لنا الفرصة في بحث لاحق نناقش فيه جوانب أخرى من التعليم من تراثنا العلمي العربي .

**الهوامش :**

١ ــ قرآن كريم ، سورة العلق ١ــ٤ .

٢ ــ قرآن كريم ، سورة القلم الآية ١ .

٣ ــ قرآن كريم : سورة الزمر ٩ .

٤ ــ انظر الترغيب والترهيب للمنذري ( دار احياء التراث العربي ) ج١ ص٩٤ وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر ج١ ص٤٣ .

٥ ــ ابن عابدين ، رد المختار ج٣ ص٣٨٧ .

٦ ــ الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ، احياء علوم الدين ، مطبعة أحمد البابي (القاهرة ١٢٩٦هـ) ص٥ .

٧ ــ العسكري ، أبو هلال . كتاب التخليص في معرفة أسماء الاشياء . تحقيق د. عزة حسن (دمشق ١٣٨٩) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج٢ ص٧٠٥ . وانظر ابن منظور ، جمال الدين محمد بن بكر . لسان العرب مادة « كتب » .

٨ ـ ابن منظور ، المصدر السابق مادة « كتب » .
٩ ـ العبيدي ، صلاح ، التعليم ووسائله في الآثار العربية الاسلامية مجلة كلية الآداب ـ جمعة بغداد . العدد (٢٧) نيسان ١٩٧٩ . ص ٤ .
١٠ـ الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك ٦/٤٩٦ .
١١ـ علي ، كرد ، خطط الشام (دمشق ١٣٣٣) ج٦ ص١٨٤ .
١٢ـ البخاري ، كتاب العلم .
١٣ـ أحمد ، أمين ، ضحى الاسلام . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة (١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م) ج٢ ص٦١ .
١٤ـ هونكة . سيجريد . فضل العرب على اوربا ( شمس الله على الغرب ترجمه وحققه وعلق عليه الدكتور فؤاد حسنين ( دار النهضة بالقاهرة ) ص٢٨٠ ـ ٢٨٢ .
١٥ـ أمين ، أحمد ، المصدر السابق ج٢ ص٦١ .
١٦ـ العبيدي ، صلاح ، المصدر السابق ص٦ .
١٧ـ فتوحي ، ميري ، مكتبات العراق . الموسوعة الصغيرة (١٧٢) نشر وزارة الثقافة والاعلام في الجمهورية العراقية ص٦١ـ٦٢ .
١٨ـ ديوهجي ، سعيد ، بيت الحكمة ص٧ .
١٩ـ عواد ، كوركيس ، خزائن الكتب القديمة في العراق (بغداد ١٩٤٨) ص٢٠ .
٢٠ـ ابن النديم ، محمد بن اسحق (مصر ١٣٤٨) الفهرست ص٢٩٤ .
٢١ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان (مصر ١٣٦٧) ١/٩٢ .
٢٢ـ ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين أبو العباس ، عيون الابناء في طبقات

الاطباء شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا ( منشورات مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٥) ١/٢٠٧ ٠
٢٣ـ الرفاعي ، انور ، تاريخ العلوم في الاسلام ٠ دار الفكر ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م ص٥١ ٠
٢٤ـ ابن بناته ، سرح العيون ص١٣٢ ٠
٢٥ـ فتوحي ، ميري ، المصدر السابق ص٧٧ ٠
٢٦ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٤ ٠
٢٧ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٦ ٠
٢٨ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٦٧ ٠
٢٩ـ أمين ، أحمد ، المصدر السابق ج٢ ص٦٣ ٠
٣٠ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٣٧ ٠
٣١ـ الصابي ، أبو الحسين هلال بن المحسن ، رسوم دار الخلافة عني بتحقيقه والتعليق عليه ونشره ميخائيل عواد ص٢٤ ٠
٣٢ ابن الفوطي ، أبي الفضل عبدالرزاق بن الفوطي البغدادي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة عنيت بطبعه المكتبة العربية ببغداد ، مطبعة الفرات بغداد (١٣٥١هـ) ص٥٤ ٠
٣٣ـ ابن الفوطي ، المصدر السابق ص٥٤ ٠
٣٤ـ بن عنبة ، عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب (بومبي ١٣٨١هـ) ص١٨٢ ٠
٣٥ـ معروف ، ناجي ، تاريخ علماء المستنصرية ج٢ ص٢٣٣ ٠
٣٦ـ الرفاعي ، أنور ، المصدر السابق ص٥٢ ٠
٣٧ـ الرفاعي ، أنور ، المصدر السابق ص٥٢ ٠

٣٨ـ ديوهجي ، سعيد ، المصدر السابق ص٥٠ / الرفاعي ، انور ، المصدر السابق ص٥٣ ٠

٣٩ـ محمد أمين محمد ، الاوقاف ونظام التعليم في العصور الوسطى ، ندوة مؤسسه الاوقاف في العالم العربي الاسلامي ٠ منشورات المنظمة العربية للتربية الثقافه والعلوم (معهد البحوث والدراسات العربية بغداد) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م ص١٦٤ ٠

٤٠ـ محمد امين ، المصدر السابق ص١٦٤-١٦٥ ٠

٤١ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦-١٦٧ ٠

٤٢ـ وثيقة وقف الابشاري رقم ٢٧٨ محفظة ٣٤ بالمحكمه سطر ٨٩ ، ٩٠ ٠ وانظر محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ ٠

٤٣ـ العمري ، ياسين ، الدار المكنون في المآثر الماضية من القرون ص١٠٦ وانظر العبيدي ، صلاح ، مؤسسة الاوقاف ودورها في الحفاظ على الاثار الاسلامية والمخطوطات ندوة مؤسسة الاوقاف في العالم العربي الاسلامي ص١٨٧ ٠

٤٤ـ محمد أمين ، محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٤٥ـ الحموي ، ياقوت معجم البلدان ج١ ص٣٥-٣٦ ٠

٤٦ـ أحمد ، شلبي ، الفكر الاسلامي متابعة وآثاره ٠ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية (١٩٦٢) ص١٣٦ ، وانظر ، فتوحي ، ميري ، مكتبات العراق ص١٠٦ ٠

٤٧ـ فتوحي ، ميري ، المصدر السابق ص١٠٧ ٠

٤٨ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٤٩ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٦ ٠

٥٠ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ ٠

٥١ـ محمد أمين محمد ، المصدر السابق ص١٦٥ ٠

٥٢ـ العبيدي ، صلاح ، مؤسسة الاوقاف ودورها في الحفاظ على الاثار الاسلامية والمخطوطات ، مؤسسة الاوقاف ص١٨٦ ٠

٥٣ـ ماهر ، حمادة ، المكتبات ص ٦٤ ٠

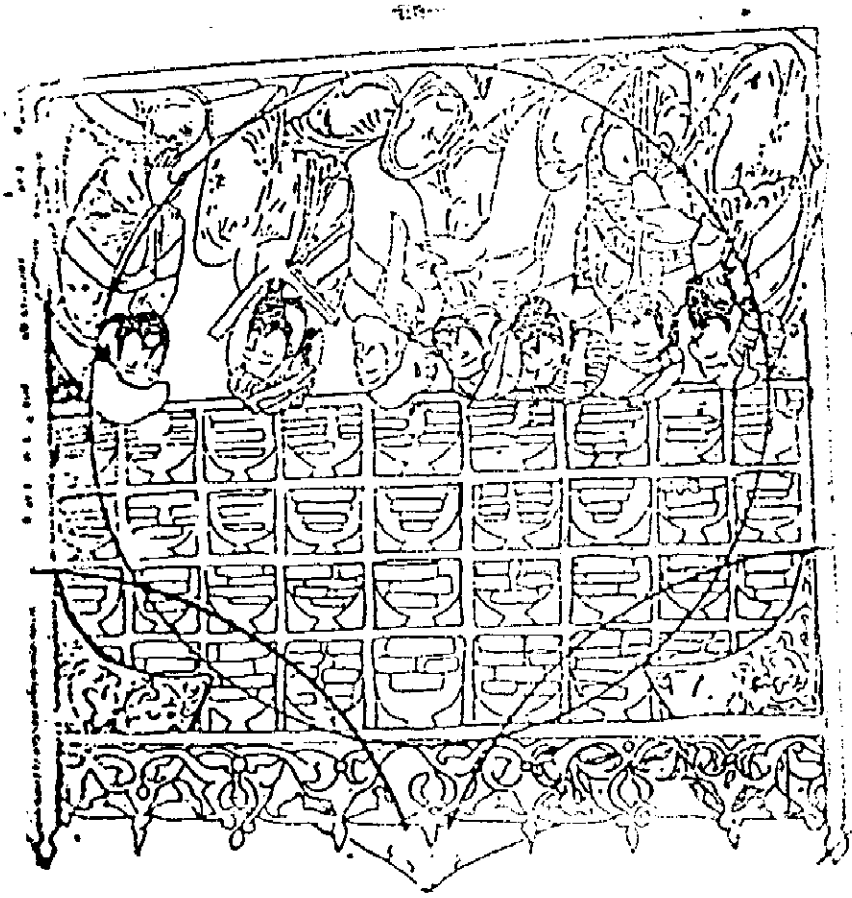
٥٤ـ الصابي ، رسوم دار الخلافة ص٢٤ـ٢٥ ٠

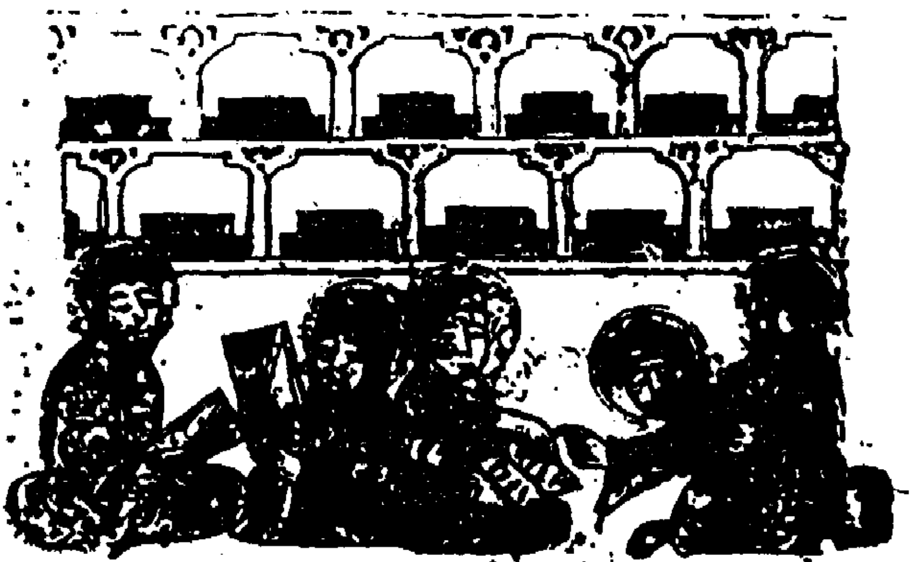
٥٥ـ ابن النديم ، الفهرست ص٤٩ ٠

٥٦ـ رمضان محمد مصطفى ، دورة الاوقاف في دعم الازهر كمؤسسة علمية اسلامية ، ندوة مؤسسة الاوقاف ص١٢٧ ٠

٥٧ـ الصفدي ، صلاح الدين ، نكت الهيمان في نكت العميان ٠ تحقيق أحمد زكي ٠ مصر ٠ المطبعة الجمالية ١٣٢٩هـ/١٩١١م ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ٠

٥٨ـ العبيدي ، صلاح ، المصدر السابق ص١١ ٠







# وثائق عثمانية غير منشورة
# عن المقاومة العربية في النجف
# أواسط القرن التاسع عشر

د. مهـدي جواد حبيب البستاني
كلية الفقه / جامعة الكوفة

حكم الاتراك العثمانيون العراق قرابة أربعة قرون (١٥٣٤-١٩١٧) وقسموه من الناحية الادارية الى ثلاث ولايات ، هي : بغداد ، البصرة ، الموصل . وكانت ولاية بغداد تعد الولاية الرئيسة التي غالبا ما تلحق بهـا كل من ولايتي البصـرة أو الموصل مع لواء ( سنجق ) شهرزور ، ويتحكم في تقرير ذلك مدى قـوة والي بغداد ونفاذ شخصيته ، وحجم الدور المطلوب منه تنفيذه ضمن سياق السياسة المركزية للدولة العثمانية كما كانت مقرا للجيش العثماني المرابط بالعراق ( الفيلق السادس ) . وكـان والي بغـداد يتولى - أحيـانا - قيـادة هـذا الجيش زيادة على مسؤولياته المدنية ، ويساعده في تصريف شؤون الولاية نائبه الذي يطلق عليه اسم « كتخدا » ، ومـدير المـال « دفتـردار » ، والقاضي ، ومـدير الخزينة « خزنه‌دار » ، ومجلس الولاية الذي يضم كبار موظفي الولاية المذكورين آنفا ، ووجهاء واعيان بغداد .

وبالرغم من وجود مجلس الولاية ، الذي تأسس لاول مرة في ولاية

علي رضا باشا اللاز (١٨٣١ ـ ١٨٤٢) سنة ١٨٤١ ، فان الوالي كان يمارس سلطات وصلاحيات غير محدودة ، كما ان الجهاز الاداري لم يكن يتمتع بالكفاية والنزاهة بصفة عامة ، لذا فان علاقة السلطة ورموزها بأبناء المجتمع كانت تتسم بالفتور والتوتر وعدم الثقة ، فبحكم كون غالبية الجهاز الاداري من العنصر التركي فقد كانت مشاعرهم ازاء مواطني الولاية لا تتسم بالعمق والصميمية ، بل على العكس من ذلك كانوا يظهرون التعالي عليهم ، والازدراء بهم ، ويعاملونهم بخشونة وجفاء ، زيادة على ان اهتمامات الادارة العثمانية في العراق كانت موجهة نحو تأمين طاعة المواطنين للسلطة ، استيفاء الضرائب ، والخدمة في الجيوش العثمانية فحسب ، من غير مراعاة ظروف أبناء البلاد وتأمين حاجاتهم وحقوقهم الطبيعية في الحياة ·

اما مستوى الخدمات العامة الذي كانت تقدمه ادارة الولاية فقد كان متدنيا وبائسا ، ان لم يكن معدوما في جوانب معينة من الحياة الاجتماعية كالخدمات البلدية والصحية والثقافية · وازاء سياسة القهر والكبت والحرمان التي انتهجتها الادارة العثمانية مع الاهالي تعالت صيحات المقاومة العربية واندلعت الانتفاضات في أماكن متعددة من ولاية بغداد ، لاسيما في الفرات الاوسط الذي تميز بكثافته الفلاحية وروابطه العشائرية المتينة ، وطبيعة أرضه الملائمة لحرب العصابات · ومما ساعد على استمرار ديمومة اندلاع هذه الانتفاضات الدور النشط الذي لعبه المتنورون والمفكرون العرب من رجال الدين في بغداد والنجف والحلة والموصل وغيرها · وقد ظهرت روح المقاومة والتحدي واضحة في النتاجات الفكرية والادبية لعلماء وأدباء هذه الفترة ، وبرزت اتجاهات ومواقف قومية

تعبيرا عن الهوية العربية تمثلت في الاهتمام بالدراسات اللغوية والدينية والثقافية(١) •

ومن الجدير بالذكر ان حركة التنظيمات (١٨٣٩ – ١٨٥٦) والحركة الدستورية (١٨٧٦ – ١٩٠٨) التي شهدتها الدولة العثمانية لم تحدث تغييرات عميقة في جوانب الحياة السياسية والادارية والاقتصادية في ولاية بغداد ، لذا لم تحدث تبعا لذلك تغييرات وتطورات بارزة في الجوانب الاجتماعية من حياة الناس ، وذلك بسبب عدم جذرية وشمولية هذه الحركات في الاساس ، وعدم توافر النوايا الجدية في تطبيق الانظمة والقوانين الجديدة • وتستثنى من هذا السياق فترة ولاية مدحة باشا (١٨٦٩ – ١٨٧٢) وما جرى فيها من اصلاحات وتغييرات عديدة وما تركته من آثار ملحوظة في حياة الناس الاجتماعية •

لقد عاش العراق – في القرن التاسع عشر خصوصا – أحداثا جساما ، وتعرض الى تحديات خطيرة ، كان من أهمها واخطرها على مستقبله السياسي والاجتماعي اشتداد الهجمة الايرانية التوسعية عليه وتمكن النظام الايراني من اقتطاع عبادان والمحمرة وأجزاء عزيزة أخرى من الارض العربية والحاقها بدولة الفرس ، مستفيدا من ضعف الدولة العثمانية وعدم مقدرتها العسكرية على المحافظة على املاكها ، ومن تاييد روسيا وانكلتره له في سياسته العدوانية التوسعية باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي • وكذلك تزايد النفوذ البريطاني في شؤون العراق الداخلية ونجاح قناصل بريطانيا ببغداد ووكلائهم في البصرة والموصل في ايجاد مصالح متنوعة لدولتهم في بعض مفاصله المهمة ( سراي الوالي ، النقل والتجارة ، التنقيب عن الآثار والمعادن ، البريد والتلغراف ، شؤون

العشـائر ، بعض المشاريع الزراعية والصناعية ٠٠ الخ ) ، زيادة على تعرض العراق للهجمات الوهابية وعجز الادارة العثمانية عن صدها(٢) ٠

وكان لهذه الاحداث والتحديات مع استمرار الهيمنة العثمانية على العراق وركونها الى معالجة مشاكلها بالقوة الغاشمة الاثر البالغ في ايقاظ همة العراقيين وبلورة مشاعرهم وأحاسيسهم الوطنية والقومية ، وقد تبدى ذلك في حملهم السلاح وتصديهم المتواصل طـوال القـرن المذكور للهيمنة الاجنبية ، فقـد شهدت جميـع ساحات العراق ومدنه وسـهوله وبواديه وجبـاله معـارك عنيفـة من أجـل كـرامة العراقيين وعزتهـم واستقلالهم ، لذا فأن الكشف عن نضال مدينة أو منطقة من مدن ومناطق العراق هـو كشف للهوية العراقية الثائرة ، وتعبير عن ارادة الصمود والتحدي والتواصل الحضاري لابنـاء العراق على مر العصور ، وتعبير عن وحدة النضال والمصير العربي في أرجاء الوطن العربي الكبير ٠

والنجف الاشرف احدى قصبات ولاية بغداد ، كانت مدينة مفتوحة بوجه العناصر والقوميات الاسلامية كافة ، حيث يؤمها ، ويشد الرحال اليها طلاب العلم ورواد المعرفة من أقصى أنحاء البلاد العربية والاسلامية دون انقطاع منـذ مارست دورها الاصيل قبل ما ينيف على الالف عام كمدرسة عربية الروح والهوية ، اسلامية الفكر والتوجه للشريعة والعلوم الاسلامية ٠ وبحكم توافـد طلاب العلـم والزوار الى هـذه المدينة التي تحتضن رفاة الرمز الخالد حيـدرة الـكرار ، فقد تعايشت ، وتفاعلت في بيئتها مختلف القوميات والثقافات الاسلامية ، ممثلة بنخبة من أبنائها العلماء ، وطلابهم الذين وفدوا الى النجف ، ومعهم عادات وتقاليد ومعارف وفنون وأخلاق شعوبهم ٠ وكما نهلوا من علوم النجف وآدابها وفنونها

وفلسفتها ومثلها وأخلاقها ، فانهم في الوقت ذاته تركوا في النجف بعض ما يحملون من علم وادب ، وفلسفه وسلوك ، وأخلاق وتقاليد المجتمعات التي انحدروا عنها . وبذلك اصبحت هذه المدينه التاريخيه احدى أنشط مراكز الاختلاط والتفاعل الحضاري في العالم الاسلامي(١) .

والنجف التي تعد الوارث الشرعي لحيرة المناذره وكوفة العرب والمسلمين ، اضافت الى ما ورثته من الحيرة والكوفه الشيء الكثير في جوانب الحياة العلميه والادبيه والفلسفية والاجتماعيه . وبرزت الظروف القاسية التي مرت عليها ، كالازمات الاقتصادية ، وشحه مياه الشرب ، وتعرضها للغارات والغزو والمنازعات المحليـة ، بصماتها الواضحه في البيئه النجفيه ، مما جعلت أهالي النجف يتميزون باليقظه ، والتحفز ، والمحن ، دون ان يدتابهم اليأس او يجد الاحباط الى نفوسهم سبيلا . ولذا عاش الفرد النجفي في مدينته معتزا بعراقيته وعروبته ودينه ، ثابتا .. م التحديات والتيارات الدخيلة ، متمعنا بقيم ومثل الاباء والاجداد ، فلا الفرس استطاعوا طمس معالم شخصيته ، واستلاب ولائه ، وتزوير وعيه ، ولا الاتراك والبريطانيون نجحوا في اخضاعه لهيمنتهم وسطوتهم.

ومن الجدير بالذكر ان النجف ، بحكم وقوعها على حافات البادية ، ونظرا لمكانتها الدينية والعلمية ، كانت قد تعرضت الى غارات القبائل البدوية ، وغزو القوى الدخيلة والطامعة بأرض العراق عموما ، لاسيما بعد سقوط بغداد على أيدي المغول في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد دفعت هذه الحال أهالي النجف – على اختلاف طبقاتهم وأصنافهم – الى الاستعداد بكل ما لديهم من قـوة لمواجهة التحديات ، وحماية أنفسهم ومدينتهم ومقدساتهم من دنس الغزاة والطامعين . ولم يقف الامر عند

حدود النجف البلدة بل امتد بحكم المصير المشترك والروابط الوطنيه والقومية الى المدن المجاورة لها ، مثل : كربلاء والحلة والقصبات الاخرى ٠

فقد حث النجفيون أهالي المدن والقصبات المذكورة وما يرتبط بها من قرى وأرياف على الاتحاد وحمل السلاح ، وتنظيم الفرق القتالية دفاعا عن أنفسهم وأعراضهم وممتلكاتهم ، ومدوا لهم يد العون والمساعدة والمشورة ، وحصلت النجف بالمقابل على مساعدتهم ودعمهم ، كما نجحت في كسب تأييد ونجدة العشائر العربية الساكنة في القرى والنواحي المجاورة لها(٤) ٠

وفي الفترة الزمنية التي خضع فيها العراق للحكم العثماني (١٥٣٤ - ١٩١٧) حدث فراغ اداري وسياسي في النجف نجم عن ضعف الادارة التركية في بغداد ، وعجزها عن تأمين النظام والاستقرار ، خصوصا في الاماكن البعيدة نسبيا عن المركز كالنجف وكربلاء ٠ وكانت المدن المقدسة تعتبر حرما آمنا يعصم الناس من الاذى والملاحقة ، ويجعلهم في منأى عن طائلة العقاب ، حتى أصبحت ملاذاً لبعض الشقاة والخارجين على النظام، نملجأ للعصاة والهاربين من وجه الحكومة ٠ وكان نفوذ والي بغداد ضعيفا ، ويكاد يكون معدوما في هاتين المدينتين بسبب احترامهم لهما ، وعدم رغبتهم في التدخل بشؤونهما ، الامر الذي أدى الى ان تمارس هاتين المدينتين نوعا من الحكم الذاتي(٥) ٠ فاستمرت النجف تعتمد على سواعد ابنائها في مواجهة الغارات والغزوات والتصدي لها ، مما أدى الى بروز نخبة طليعية من الرجال وعلماء الدين أخذوا على عاتقهم مسؤولية الزعامة السياسية والادارية بالاضافة الى الزعامة الدينية ٠ وكان من

أبرز هذه النخبة الشيخ جعفر خضر الجناجي(٦) صاحب كتاب « كشف الغطاء » • وقد ساند الشيخ المذكور والتف حوله رهط كبير من رجالات النجف ، وخصوصا المشتغلين منهم بالعلوم الدينية ، كالمشايخ : حسين نجف ، وخضر شلال ، ومهدي ملا كتاب ، والسيد جواد صاحب كتاب مفتاح الكرامة » •

وقام هؤلاء بجمع الاموال ، وشراء السلاح ، وتدريب الشباب والرجال القادرين على حمل السلاح من طلبة العلوم الدينية وغيرهم(٧) ، ورتبوا العيون ونظموا الخفارات ومراكز الحراسة في داخل النجف وخارجها(٨) ، وبذلك امتلكت هذه المدينة المقدسة المقدرة الذاتية على صد الهجمات وردع الغزاة والمغيرين ، وشهدت أزقتها وشوارعها ومحلاتها اولى تجارب « المليشيات » الشعبية المسلحة - وتجلت تلك القدرة الذاتية في نجاح النجفيين في تأمين وسائل وادارة الدفاع عن مدينتهم بوجه الغارات الوهابية المتكررة التي حدثت في سنوات ١٢١٤ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٥هـ/١٨٠٠ ، ١٨٠١ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠٦ ، ١٨١٠م • اذ من المعروف ان القوات الوهابية ، بعد احكام سيطرتها على أغلب جهات الجزيرة العربية ( قامت بشن الغارات على أطراف العراق بقصد السيطرة على منطقة غربي الفرات ، تمهيدا الى الامتداد نحو العراق بأسره ، فاستهدفت النجف وكربلاء في المقدمة ، لوقوعهما بمحاذاة الصحراء النجدية ، ولاهميتها السوقية والتعبوية في أطار الصراع الدائر بين الوهابيين وحلفائهم من العشائر العربية ، وبين القوى الدولية ذات المصالح الحيوية في العراق ، ومنطقة الخليج العربي ، وشبه الجزيرة العربية ، مما كالدولة العثمانية ، وايران وبريطانيا •

وفي سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م تعاظم خطر الوهابيين على النجف ، وظهر للعيان عجز الحكومة العثمانية في بغداد ، وعدم مقدرتها ، ليس على تأمين الحماية اللازمة لحدودها الشرقية فحسب ، وانما امتد ذلك العجز الى حدودها الجنوبية والغربية معا ، لذا ادرك اهالي النجف ان الوهابيين لا ينوون تركهم وشأنهم ، فاتخذوا التدابير والاجراءات الادارية والعسكرية اللازمة للمواجهة والتصدي ، وبادروا الى نقل خزانة المرقد العلوي الشريف الى بغداد تحسبا من أن تنالها ايدي المغيرين التي سبقت ان امتدت الى خزانة الحرم النبوي الشريف ، ثم باشروا بترميم سور البلد ، وأقاموا عليه الاستحكامات والتحصينات والربايا ، وبثوا الفرق الاستطلاعية والاستكشافية باتجاه البادية ، لرصد تحركات الوهابيين ، ومعرفة اتجاهاتهم بوقت مبكر(٩) .

وبمرور الزمن ، وتعدد التجارب الدفاعية الناجمة ، والتصدي المستمر للمغيرين والغزاة ، تجسدت في الشخصية النجفية اصالة ثورية مكتسبة بالممارسة القتالية الفعلية ، والتخطيط المدروس لكافة استعدادات الدفاع والحماية . وهكذا اكتسب النجفيون الخبرة الكافية في فنون الحرب وتمرسوا على مواجهة المخاطر والمحن بارادة لا تلين ، وتجسدت فيهم الروح الجهادية الصابرة ، وتحولوا الى فصائل مقاتلة دفاعا عن أسوار مدينتهم .. وبذلك تولدت في نفوسهم مفاهيم جديدة نستطيع أن نطلق عليها تسمية أولى المفاهيم الوطنية الضيقة المقتصرة على حماية المدينة وربما محيطها الاقرب(١٠) .

ويبدو أن زعماء النجف المقاتلين الذين اثبتوا جدارة فائقة واقتدارا عاليا في الدفاع عن مدينتهم وحمايتها صاروا يشعرون بأحقيتهم في

حكمهم ، وتدبير شؤونها ، بدلا من رموز الحكم الاجنبي الذين لا تربطهم بهذه الارض وشعبها سوى رابطة الهيمنة والتحكم فحسب . وقد تعزز هذا الشعور – أكثر من السابق – بعدما تأكد لهؤلاء الاخيارى عجز الادارة العثمانية في العراق عن توفير الأمن والحماية لمدينتهم من الغارات الخارجية والفتن والاضطرابات الداخلية .. ذلك العجز الناجم اساسا عن الضعف البنيوي للحكم العثماني في العراق ، يضاف الى ذلك بعد النجف – نسبيا – عن أماكن تمركز القوات العثمانية ( الحلة ، بغداد ، الموصل ) وانشغال هذه القوات بالتصدي للمداخلات العدوانية التوسعية الايرانية المتكررة ، وبقمع الثورات والانتفاضات التي اندلعت بصورة متواصلة في أغلب أنحاء العراق(١١) .. فبدأوا بالتفكير بأولى خطوات الانفصال عن الادارة العثمانية ، فأخذوا يتمردون على حكومة بغداد ، ويستولون على مقاليد السلطة في المدينة ، ويرفضون استقبال أي حاكم تركي ، أو أي قدر من القوات التركية ، ويمتنعون عن دفع الضرائب تعبيرا عن عدم اعترافهم بشرعية حكام بغداد الاتراك العاجزين عن حمايتهم(١٢) .

وكان من أبرز فتيان المقاومة النجفية كل من عباس جواد العبودي المعروف بالحداد الذي تولى متولية (مديرية) قصبة النجف ، وسدانة(١٣) الروضة الحيدرية المطهرة ، وعلي بن دبيس آل شكر رئيس فرقة الزقرت اللذان استمر عهدهما لمدة ست سنوات (١٢٢٨ – ١٢٣٤هـ/١٨١٣ – ١٨١٩م)(١٤) ، وسواد العكايشي وظاهر الملحة .

وفي خضم هذه الظروف نشأت فرقتا « الزقرت » و « الشمرت » ، انبثقتا من داخل الحركة الشعبية المسلحة التي كانت تحمي النجف ، وتصد الغارات عنها . ومن الاسباب الرئيسة التي كونت كلا منهما هو

اختلاف موقف كل من الزعامتين الدينية والدنيوية من الاحداث الجاريه حينذاك ، ولاسباب تتعلق بالصراعات الجانبيه والنزاعات القائمه بين محاور الزعامتين وأنصارهما . وكان سدنة الحرم العلوي من أسرة الملالي يحكمون البلدة باسم حكومة بغداد ، ويلتزمون جباية الضرائب والواردات الاخرى لها ، وقد مارسوا سياسة تعسفية ابتزازية مع الاهالي وناصبوا الاسر العلمية العربية العداء ، وأثاروا الفرقة والخصومات الدامية بين القبائل النجفية ووسعوها للاستئثار بحكم النجف دون منازع من ابنائها(١٥) . وعندما تعمقت الخلافات وتراكمت الخصومات بين الطرفين انتهزت الادارة العثمانية في بغداد من جهة ، والزعامات المحليه المتنافسة من جهة أخرى الفرصة ، فأججت نيران التناقضات الثانوية بينهما واستغلت كل فرقة لمحاربة الاخرى ، فكان أعوان السلطة يفتعلون الاحداث ، فينشب القتال بين أنصار الفرقتين ، وتجد القوات التركية المسوغ لاقتحام المدينة ، بحجة قمع الفتن والاضطرابات ، وقطع دابر الفساد ، فتقوم بضرب الطرفين ، وقمعهم بقسوة ، وانتزاع طاعتهم وولائهم بالاكراه ، ولو لحين من الوقت(١٦) .

**فرقتا الزقرت والشمرت :**

ذكرنا سابقا ان استمرار الغارات على النجف من قبل اعراب البوادي ، خصوصا الوهابيين ، أدى الى قيام الشيخ جعفر كاشف الغطاء باختيار مجموعة من شبان النجف بحدود المئة شاب ، وكان من بينم سواد العكايشي وعباس الحداد وخصص لهم المعاشات ، وجهزهم بالاسلحة وأمرهم بالمرابطة في حدود النجف من جميع جهاتها ، وعلى بعد

عدة أميال منها . وكان ينضم اليهم أثناء نشوب المعارك عدد من علماء الدين ، وطلبة العلوم الدينية ، بكامل أسلحتهم وعدتهم(١٧) . واستمرت الحال على هذا المنوال حتى انقطع الغزو ، وتوقفت الغارات على النجف مما أدى الى حدوث فراغ لدى المقاتلين ، فدب النزاع بينهم ، وانقسموا الى فرقتين متنازعتين هما فرقة ( الزقرت ) أو ( الزكرت ) وفرقة ( الشمرت ) .

والزقرت هو الصقر ، ولعلهم كانوا يتصيدون بالصقور أو يصطادونها ، أو شبهوا أنفسهم بالصقور(١٨) . وكان عباس الحداد ومجموعة من صبيان محلته يخرجون الى خارج النجف ، ويتصيدون الطيور والظباء ويلهون في الاباطح والاوديه ، وهم يلهجون بقول : « زقرت »(١٩) أو « زقرتات » يعني نحن عدة بلا سلاح نتصيد ونستأنس . ولاستمرار لهجتهم بها أصبحت لهم بمثابة العلمية أو اسم الشهرة ، وتطور مفهومها في الاوساط الشعبية الى ان اصبحت صفة ملازمة لكل شخص مجرد عن العائلة أو المسؤولية ، ومنه يقال فلان أو أنا « زقرتي » ، أي انا بنفسي ليس لي شيء . فلما عزم الشيخ جعفر على تهيئة المرابطين ، وجمع الشبان ، جعل عباس الحداد وجماعته منهم(٢٠) . ويقيم الزقرت في محلتي العمارة والحويش والشمرت في محلتي المشراق والبراق(٢١) .

أما فرقة « الشمرت » فهي تضم تجمعا آخر من أهالي النجف الذين تسموا مقابلا للزقرت بـ « الشمردل » ، أي الفتى الشجاع والسريع الحركة ، ثم تعرضت هذه التسمية للتحوير والاختصار ــ بمرور الايام ــ وصارت « شمرت » . وكان سبب ظهور هذه الفرقة هو حادثة اغتيال السيد محمود الرحباوي(٢٢) التي جرت بقصره في الرحبة(٢٣)

سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣ . والرحباوي رجل معروف بالكرم والنفوذ ، وقد ذاع صيته في البوادي والقصبات ، الا انه كان متهما بمخامرته للوهابيين الذين كانوا يحلون ضيوفا عليه أثناء قيامهم بشن الغارات والهجمات على النجف والمناطق الاخرى الواقعة غربي الفرات ، وكان يمتنع عن تقديم الاخبارات المتعلقة بوصولهم الى مشارف النجف الى الزعيم الديني الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، معللا اقتناعه بخشيته من انتقامهم . كما ثبتت عليه بعض التجاوزات الشرعية ، مما تطلب حضوره الى دار الشيخ جعفر بالنجف لمحاسبته شرعا . وعندما امتنع عن الحضور ارسل اليه الشيخ المذكور زمرة من رجاله المسلحين ، وعدتهم سبعون رجلا ، لاحضاره طوعا أو كرها ، بيد انه قتل غيلة في قصره ، واتهم اصحاب الشيخ بدمه . وقام ابن اخته حاكم النجف وسادن الروضة المطهرة ملا محمد طاهر بزعامة جماعة من المطالبين بدمه ، وأخذوا يتعرضون الى أصحاب الشيخ واغتالوا عددا منهم . ثم قتل ملا محمد نفسه من قبل رجل من الزقرت مما أدى الى هيجان الشمرت ، واشتداد غيضهم وسخطهم على الزقرت ، فتسلحوا ولزموا « الصناكر »(٢٤) ، وصاروا يفتحون نار بنادقهم على جهة الزقرت الذين كانوا يردون عليهم بالمثل(٢٥) .

وبعد مقتل متولي النجف ملا محمد تولى ادارة النجف ابنه ملا سلمان ، وفي عهده استمرت الفتن والمنازعات بين الفرقتين وظلت نارها تستعر بين حين وآخر حتى أدت هذه الحال الى انتشار الفوضى والاضطراب عشرات السنين ، ذهب ضحيتها العديد من الابرياء من أهل العلم وغيرهم ومن النساء والاطفال ، وتعطلت الاسواق . وهدمت الدور ونهبت الاموال حتى امست النجف مسرحا للشقاة والعابثين ، واضطر

العديد من العلماء والاغنياء الى الهجرة عن المدينة(٢٦) ، ونظرا للعلاقة الودية القائمة بين الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، الذي تولى الزعامة والمشيخة بعد وفاة أبيه ، وبين والي بغداد داود باشا (١٨١٧ - ١٨٣١) فقد افلح الشيخ المذكور في سنة ١٢٢٨ باستصدار أمرا بعزل ملا سلمان ، وتنصيب عباس الحداد متوليا على النجف بدلا منه على ان يقوم بأخماد الفتن والاضطرابات ونشر الامن والاستقرار في هذ المدينة الهائجة ٠ فقام الحداد من ساعته باستئصال شأفة فرقة الشمرت قتلا وتشريدا ، كما قام بنفي بعض من أصحابه الزقرت تمويها وخمدت الفتنة أياما ثم ما لبثت ان استعرت من جديد وبقيت كذلك تخمد وتستعر ، واشتد حنق الشمرت وسخطهم على عباس الحداد ٠ دسيسة او غيلة(٢٧) ٠ وقد سنحت لهم الفرصة عندما ثارت النجف واستحوذت على مشاعرهم نزعة الانتقام ٠ وصار هدفهم القضاء عليه ومنطقة الفرات الاوسط بأسرها على الحكم التركي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ٠

فقد تحقق خلال السنة المذكورة تصعيد واضح وخطير في نشاط حركة المقاومة العربية للحكم العثماني حيث تمكنت عشيرة الصقور التابعة لقبيلة عنزة من الحاق هزيمة نكراء بالقوات التركية التي كان يقودها الخزنة دار يحيى آغا وذلك بعد معركة عنيفة دارت بين الطرفين في المنطقة الواقعة قرب « جرف الصخر » ٠ وقد ألهب هذا الانتصار حماس العشائر العربية الاخرى ، ورفع من معنوياتها فنهضت عشيرة شمر بقيادة الشيخ مشكور الزوين واعلنت الثورة على الاتراك ، وراحت تناوش رموز السلطة وتقطع الطرق عليهم ٠ كما اندلعت نيران الثورة في

الحلة والنجف والشامية والحسكة وعفك ، وامتدت لتعم مناطق الفرات الاوسط والمنتفق والدليم بأسرها(٢٨) ٠

ففي النجف حدثت اضطرابات محلية بسبب النزاعات المستعرة بين فرقتي الزقرت والشمرت سرعان ما تحولت الى انتفاضة وطنية على الحكم التركي بقيادة متولي النجف عباس الحداد(٢٩) ٠ وكانت القوات الحكومية - بقيادة نائب الوالي محمد « كتخدا » - مشغولة بقمع انتفاضات العشائر العربية في الحلة والحسكة والشامية لذا أرسل القائد المذكور من مركز تجمع قواته في الكفل قوة فرعية بأمرة صالح آغا الاندروني ( الكردي ) لقمع تلك الانتفاضة والقاء القبض على عباس الحداد وجلبه حيا أو ميتا ٠ ولما وصل الاندروني الى النجف اوائل سنة ١٢٣٤هـ أواخر سنة ١٨١٨م وتعذر عليه القبض على عباس الحداد دبر قتله غيلة بمساعدة عناصر من فرقة الشمرت المناوئة له داخل المدينة ٠ وبعد معارك عنيفة مع ثوار النجف تمكن من قتل علي دبيس(٣٠) أحد رجال المقاومة العربية في النجف من فرقة الزقرت(٣١) ٠ وبتصفية هذين الزعيمين تشتت بقية الثوار ، وخفتت حدة النزاع بين الشمرت والزقرت وعاد الهدوء نسبيا الى تلك الديار ، وعين متوليا على النجف ملا يوسف بن ملا سليمان بن ملا محمد طاهر مع سدانة الحرم الغروي(٣٢) ٠

استمرت النجف متمسكة بموقفها التعرضي القائم على اسس راسخة في ضمائر أهاليها والمعبر عن وعيهم الوطني والقومي - حسب مؤشرات ومتطلبات المرحلة التاريخية المذكورة ٠ فقد تمسك زعماء النجف بسياسة عدم الاعتراف بشرعية الحكم العثماني ورفضوا قبول أي حاكم تركي أو قوات تركية داخل مدينتهم وكانوا مستعدين للمواجهة المسلحة مع

العساكر التركية وما تتطلبه هذه المواجهة من عناء وتضحيات • لذا كانت النجف تمثل احدى ساحات العراق القتالية المهمة مع قوى الهيمنة الاجنبية على مر العصور والمراحل التاريخية الحديثة والمعاصرة •

ففي منتصف القرن التاسع عشر اشتدت حدة الصراع بين حركة المقاومة الغربية المسلحة في النجف وأنصارها من أبناء العشائر العربية الموجودة في القرى والنواحي المجاورة ، وبين العساكر التركية المرابطة داخل المدينة – بصفة استثنائية مؤقتة – أو المرسلة من الحلة وبغداد لقمع انتفاضات أهالي النجف ومحاولة اخضاعهم بالقوة الغاشمة • وكان والي بغداد يجهز بين حين وآخر جيشا جرارا مزودا بالمدفعية ويرسله الى النجف لقمع حركة المقاومة المسلحة فيها ، فيأتي الجيش ويقبض – بعد معارك طاحنة تكبد خلالها خسائر فادحة – على بعض رؤساء الثوار ويقتل بعضهم الآخر ، ثم يعود بالاسرى الى سجن بغداد ، فيسود الهدوء في المدينة اياما معدودات ثم يعود الاضطراب والتدهور في الموقف الى أشد مما كان عليه سابقا • وذلك اما ان يتمكن زعماء الانتفاضة الفرار من السجون وأماكن الاحتجاز والاقامة الاجبارية ويعودوا سرا الى النجف لقيادة حركة المقاومة من جديد وبعزم اشد او يقوم بزعامة هذه الحركة قادة جدد من بين صفوفها لمواصلة مسيرتها النضالية(٣٣) •

ان سياسة الولاة الاتراك في بغداد القائمة على مبدأ تجاهل المشاعر الوطنية والقومية للعراقيين ، واستخدام اسلوب البطش والتنكيل والقوة الغاشمة في معالجة مشاكلهم ومطالبهم المشروعة أدت الى تصليب عود المقاتلين من أبناء المدن العراقية ورجال العشائر العربية ، ونضج أهدافهم ووضوحها ، وحصول حالات من الاتصال والتنسيق والعمل المشترك بين

ثوار المدن وثوار البادية والقرى والارياف مما يشعر بارتقاء حركة المقاومة العربية في العراق الى مستوى تنظيمي جيد . وقد أشارت تقارير ولاة بغداد المرفوعة الى الباب العالي الى حصول مثل هذه الاحوال . وسوف نستعرض فيما بعد تقرير الوالي محمد رشيد باشا الذي أشار فيه الى ضبطه مراسلات بين زعماء النجف وزعماء المدن العراقية الاخرى ومشايخ العشائر العربية الثائرة بقصد القيام بثورة شملة في العراق على الحكم العثماني .

ومع تميز البيوت النجفية باحتوائها على سراديب عميقة واحتواء هذه السراديب على آبار أكثر عمقا في جوف الارض يرتبط الواحد بالاخر بواسطة قنوات وممرات سرية تسهل انتقال المقاتلين وغيرهم من بيت لآخر ومن محلة لاخرى الا ان اندلاع المنازعات المحلية بين رجال فرقتي الزقرت والشمرت او بينهم مجتمعين وبين القوات التركية عرضت الاهالي الى المضايقات والمكابدات الشديدة والمحاصرة داخل البيوت لمدة امتدت أحيانا لعدة أسابيع وما ترتبت على ذلك من شحة الماء وفقدان المواد الغذائية زيادة على الرعب والهلع الذي أصاب العوائل بسبب دوي المدافع وأزيز الرصاص حيث يتحصن المقاتلون في الاماكن المرتفعة المشرفة على محلات المدينة وشوارعها كالمنارتين الموجودتين في المرقد الحيدري المطهر ومنارة المسجد الهندي وسطوح الصحن الشريف والدور العالية ويتبادلون اطلاق النار بغزارة وبصورة عشوائية ـ أحيانا ـ(٣٤) .

يستفاد من التقرير المرفوع الى الباب العالي ( الصدارة العظمى ) في اسطنبول في التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ١٢٦٨هـ ( ٢٢ مايس ١٨٥٢م ) من قبل مشير جيش الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد

نامق باشا ، ان عددا من زعماء فرقة « الشمرت » الموقوفين في بغداد تمكنوا من الفرار الى النجف بحجة حماية أعوانهم وانصارهم من تسلط وتعديات مخالفيهم من فرقة « الزقرت » ، ثم باشروا بحشد اتباعهم والعمل على زعزعة الاستقرار . ومن أجل تقصي الحقائق والاطلاع على جلية الموقف أرسل نامق باشا الى النجف القائممقام صالح بك وقائممقام كربلاء قربي أفندي وبمشاركة مدير قصبة النجف شاكر افندي . وبعد استجواب رؤشاء « الشمرت » الفارين من بغداد بدون علم الحكومة وموافقتها وبعد تعهدهم بصرف اتباعهم وعدم الاخلال بالامن تمت الموافقة على ابقائهم في بلدتهم لحين سنوح الوقت المناسب لاتخاذ الاجراءات الرادعة بحقهم . وقد انحى الوالي باللائمة على وادي الشفلح شيخ عشيرة زبيد وحمله مسؤولية الاضطرابات في منطقة الفرات الاوسط(٣٥) .

وكان ظاهر الملحة وهو أحد أبرز رؤساء فرقة « الشمرت » في منتصف القرن التاسع عشر وقد وصفه نامق باشا في تقرير آخر مرفوع للصدارة في التاسع من شهر ذي القعدة للسنة ذاتها ( ٢٥ آب ١٨٥٢م ) بانه رجل « مفسد ومحرك » ممن جلب الى بغداد لاحتجازه وخلال اندلاع انتفاضة عشائر الهندية بقيادة الشيخ وادي تمكن الموما اليه من الفرار الى النجف وقاد أنصاره ومؤيديه وباشر من جديد مقاومة الحكم العثماني(٣٦) .

ومنذ ذلك الوقت أخذت مجاميع مسلحة مؤلفة من ٤٠ ـ ٥٠ رجل بالتجوال في شوارع وأسواق ومحلات المدينة ، وجمع الاموال من اصحاب الثروة بعد تخويفهم ، ووضعت نقاط للحراسة والسيطرة ليلا في أطراف البيوت التي تجمعوا فيها . وأقاموا المتاريس أمامها استعدادا للمنازلة ،

وللحيلولة دون القاء القبض عليهم من قبـل القوات الحكومية · وهنـا أدرك نامق باشا خطورة الموقف وما يحمله من مضاعفات ومداخلات ، وبعد تهدئة الانتفاضة وعودة الاستقرار الى منطقـة الهندية ، بادر الى ارسال قوة عسكرية الى النجف قوامها طابورين من لواء ( آلاى ) المشاة الثاني — وهي من الوحدات العسكرية المرابطه بالديوانية — بقيادة أمير اللواء ( مير آلايى ) بكر بك ، واندمجت هذه القوة بالطابور الموجود بالنجف مسبقا · وقد اثارت هذه التعزيزات العسكرية حماس الجماعات المناوئة للحكـم العثماني ودفعتهم الى اعـلان التمـرد والقيـام بأنواع الاعمـال والممارسات المضادة للسلطة ·

وعلى الرغم من كفاية القوات العسكرية ومقدرتها على ضرب وقمـع التمرد الشعبي المذكور — حسب ما ورد في التقرير الرسمي — الا ان القائد العسكري بكر بك ومدير القصبة شاكر أفندي قررا بعد التشاور ، وتجنبا لحدوث أي ضرر قـد يلحـق بحـق الابرياء من الاهالي وأفراد التبعـة الاجنبية ، استئذان الوالي نامق باشا بخصوص كيفية معالجة الموقف · ولدى مذاكرة الموضوع في مجلس بغداد الكبير وجد ان تركه على تلك الحال من « العصيان والطغيان » مغاير « للعدالة السنية » ، لذا تقـرر اتخاذ التدابير والاجراءات المقتضية والعاجلة ·

ونظرا لاحتضان النجف مشهد الامام علي ، وعدد كبير من التبعـة الاجنبية واحتوائها على عشرين ألف بيت ، ومن أجل تجنب اراقة دمـاء الابرياء وعـدم اثارة الشكاوى الاجنبيـة اوصى مجلس الولاية باتبـاع الوسائل السلمية وعـدم استخدام القوة العسكرية الا عنـد الضـرورة القصوى · وقد اسندت هذه المهمـة الى أحد الضباط الكبار من قيـادة

أركان فيلق الاناضول السلطاني الفـريق سليم باشـا وبصحبته نقيب اشراف بغداد السيد علي وقائممقام كربلاء وبعض السادة والعلماء ، وزود بأمر اداري ( بيورلدي ) موجه الى أهالي النجف ، كما اعطي التعليمات اللازمة المتعلقة بمهمته والتي تضمنت التأكيد علي عدم المساس بأموال وأملاك اي شخص في حـال اللجـوء الى استخدام القـوة . وطلب مـن القنصلين الايراني والبريطاني المقيمين ببغداد ابلاغ تبعتهم بالابتعاد عن مواقع الخطر وعدم الاختلاط بالمشاغبين(٣٧) .

اما القوات العسكرية التي اصطحبها معه سليم باشا في حملته على النجف فلم يحدد نامق باشا تعدادها ، وانما اكتفى بقوله : « فقد تنسب ارسـاله الى النجف على رأس قـوة عسكرية وافية » ، في حين ذكـرت المصادر المحلية غير الرسمية ان قوام الحملة خمسة آلاف جندي مع عدة كثيرة من الاسلحة والمدافع(٣٨) .

دخل سليم باشا المدينة والطبول تقرع أمامه والمدافع تصم الآذان بدويهـا ، لتخويف الاهالي وارهابهم ولاظهار هيبـة السلطة ، ومر على دار(٣٩) آل كاشف الغطاء الذين كانوا يمثلون الزعامة الدينية والأبوية في النجف ، وكان الشيخ محمد جعفر يتبوأ مسـند المشيخة المذكورة ، فخرج لاستقبالهم امام باب داره ، ثم ذهبوا الى القشلة ونزلوا بها ، ونزل نقيب الاشراف وجماعة من الضباط ورجالات الحملة ضيوفا في دار آل كاشف الغطاء(٤٠) ، وبادر سليم باشا الى جمع مسؤولي المدينة وأعيانها ووجهائها وعلمائهـا وأهاليهـا وتلى على مسامعهم أمر وتوجيهات الوالي وطلب من الاهالي نبذ الشغب والعصيان واعلان الطاعـة والولاء لجنـد السلطان مقابل منحهم العفو والامان ، وجاء ظاهر الملحة مسلما نفسـه

بين يديه ، فعين له حراسا وأخرجه وعائلته وعدد من رفاقه من النجف للاقامة في أطراف الحلة(٤١) .

وبحكم تمتع دار آل كاشف الغطاء بالحصانة والاحترام والتقدير من قبل الاهالي والسلطة الحاكمة صارت ملجأ لطالبي الامن والنجاة وللهاربين من بطش السلطات الحكومية والشقاة على حد سواء ، فازدحمت الناس وتدافعت على اعتابها ومداخلها ، حتى زاد عدد من لاذ بها على الالف رجل وامرأة . فلما صار العصر جاء سليم باشا مع جميع أركانه للسلام على الشيخ محمد ، وتحدث معه في كيفية معالجة حال التمرد المزمن على الحكم العثماني في النجف . وقد انحى القائد التركي بالائمة علي المشايخ وعلماء الدين ، وقال في معرض كلامه : « يا شيخ محمد أفندي ليس الفساد الا منك ، فأنك تؤمن المفسدين وتؤيهم اليك » ، فرد عليه الشيخ محمد بقوله : « يا وزير ليس هو الا منكم » . وهنا تدخل النقيب في الجدال مخاطبا الشيخ محمد بقوله : « يا شيخ محمد اسأت جوابا » ، فأجابه الشيخ محمد : « اسأت فهما » . وطال الجدل بينهما وتشعب ، ثم خرج سليم باشا من دار الشيخ على ان لا يتعرض لمن بداخلها من المستجيرين ، بيد انه كان في قرارة نفسه يعتقد بان هؤلاء الرجال ليسوا من الفقراء والمساكين بل هم من العصاة والاشقياء المطلوبين للمثول امام حكومته في بغداد(٤٢) .

وبعد يومين القى القبض على خمسة أشخاص من رفاق الملحمة ورؤساء المقاومة ووضعهم في الحبس بوسيلة ما ، واعقب ذلك هجوم أنصارهم على السجن من أجل انقاذهم بالقوة ، فضربوا وجرحوا جنديين من القوات الحكومية مما حدا بالقائد سليم باشا الى اصدار أوامره بفتح

النار على الاهالي ، فاندلع القتال داخل المدينة من الساعة العاشرة بعد العصر حتى الساعة الرابعة ليلا ، وتحصن المقاومون في عدد من البيوت ، وعقبتهم القوات الحكومية وفرضت عليهم الحصار واضطرتهم الى الهرب بعد شعورهم بعدم القدرة على الاستمرار في المقاومة . وفي اليوم التالي القي القبض على اثنين وسبعين رجلا من الذين لم يتمكنوا من الهرب خارج المدينة وفضلوا الاختفاء في بعض البيوت ، ومنها بيت آل كاشف الغطاء ، وتم ارسالهم الى بغداد(٤٣) .

ذكرت المصادر المحلية غير الرسمية ان سليم باشا أمر أحد ضباطه المدعو بكر بك بمهاجمة دار آل كاشف الغطاء والقبض على من فيها من الرجال فقام الضابط بمهاجمتها صباحا ، واقتحمها منتهكا حرمتها ، وقبض على جملة من الرجال ينيف عددهم على المئة ، وجاء بهم الى القشلة ، ثم تقرر نفيهم الى بغداد والبصرة وغيرهما من الاماكن ، كما القي القبض على جماعة من الاشراف والافاضل كان من بينهم السيدان علي ومحمد تقي الطباطبائيين ، واقتيدوا مكبلين بالاصفاد ، وحبسوا في القشلة . قد أدت هذه الحادثة المروعة الى اصابة الشيخ محمد كاشف الغطاء بالقرحة المعدية ، وأخذ ينزف دماً من فمه وأنفه حتى وافاه الاجل في اليوم الثاني والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ١٢٦٨هـ / ٢٦ ايلول ١٨٥٢م(٤٤) .

اعترف نامق باشا في تقريره الرسمي المذكور بقيام بعض جنوده بنهب وسلب البيوت التي داهموها خلال عملية البحث والتحري عن رجال المقاومة من أجل القبض عليهم ، بيد انه استدرك وأشار الى ان جميع المنهوبات والمسلوبات اعيدت الى أصحابها باشراف مجلس المدينة وعلمائها

وساداتها • وقد نظمت المضابط – كما هي العـادة الجارية يومذاك – المتضمنة ادانة العصيان واعـلان الولاء لوالي بغـداد وجناب السلطان ، وأرسلت الى بغداد • وبعد ابقاء قوة عسكرية مناسبه في النجف تحرك الفريق سليم باشا الى منطقة كربلاء والمسيب للقضاء على حركه الشيخ وادي •

وبالرغم من التعقيبات الشديدة والاجراءات القمعية الصارمة التي انتهجتها الادارة العثمانية في العـراق في مواجهـة مسلسل الانتفاضـات العراقية بجميع حلقاتها وفصولها المتواصلة والمتصاعدة ، الا ان جـذوة نار المقاومة العراقية للحـكم العثماني لم تخمـد أو تسـتكين ، بل كانت تستعر في النجف تارة ، وتتوهج في الهندية والشامية والحله والديوانية والرمادي أحيانا أخرى ، ثم تنطلق تارة ثالثة من البصرة وديرة المنتفك والموصل ومنطقـة الجزيرة ، وفي السهل والجبل ، في الاهوار والبوادي على حد سواء • ومع وجود اتصالات ومراسلات مع زعماء العشائر العربية الرافضة للهيمنة الاجنبية ورجالات المقاومة في المـدن ، بيـد ان سلسلة الانتفاضات هذه كانت تفتقر الى وحدة القيادة والمنهج النضالي ، ممـا ساعد القوات الحكومية على قمعهـا الواحدة تلو الاخـرى ، وقلل من خطورتها على مستقبل استمرارية الحكم العثماني في العراق •

ذكر مشير جيش العراق والحجاز ووالي بغداد محمد رشيد باشا (١٨٥٢ – ١٨٥٧) في تقريره(٤٥) المرفوع الى الصدارة بتاريخ ١٩ رجب ١٢٧٠ / ١٧ نيسان ١٨٥٤ ان أهالي قصبة النجف الاشرف ينقسمون على ثلاثة أصناف من العشائر ، الشمرت والزقرت والعـامة • وان طائفتي الشمرت والزقرت مشهورتان في ايالة بغداد منـذ زمن قـديم بالشقاوة

والمفسدة ، ويتميز ابناؤهما بين العشائر بالجرأة والجسارة · وعلى الرغم من حدوث نزاعات دامية ـ أحيانا ـ بين عشائر وأفراد الفريقين الا ان رجال الشمرت والزقرت كانوا يتحدون معا ، ويتفقون على مقومة الحكم التركي في النجف ، ومنطقة الفرات الاوسط برمتها ، مما دعا الوالي السابق الى ارسال حملة عسكرية كبيرة معززة بالمدفعية الى النجف ، وبعد قتال عنيف تمكنت القوات التركية من طرد الثوار ، وابعادهم خارج المدينة ، ولمنع عودتهم اليها فيما بعد ، وضع الوالي المذكور قوة عسكرية ثابتة في قلعة المدينة · وعند تسلم الوالي محمد رشيد باشا مقاليد ايالة بغداد ، تقرر منح هؤلاء الثوار العفو والموافقة على اقامتهم في منطقة السماوة ، وكاجراء احتياطي بوجه التحركات العسكرية الايرانية التي ظهرت بوادرها منذ بداية ذلك العام (١٢٧٠هـ) قرر الوالي تعزيز قاطع خانقين بقوات عسكرية اضافية ، وكانت نصف القوات النظامية حينذاك موجودة في السماوة ، والنصف الباقي كان منشغلا بالحركات القمعية مع عشائر بني لام في جنوب العراق · ونظرا لعدم وجود قوات تركية قريبة يمكن تحريكها بسرعة نحو خانقين سوى القوات المرابطة في النجف وكربلاء ، لذا فقد اضطر الوالي المذكور الى ابقاء قوات رمزية هناك ، وسحب القوات الاخرى الى خانقين · وقد استغل مقاتلو النجف المبعدون في السماوة هذه الفرصة ، وتسللوا ليلا ، عن طريق الصحراء ، ووصلوا الى باب قلعة النجف مع خيوط الفجر الاول ، وعندما فتحت باب القلعة صباحا ـ كالمعتاد ـ دخل المدينة فجأة حوالي ١٥٠٠ مقاتل ، واتجهوا مباشرة الى مقر مدير المدينة ( مدير قوناغي ) ومقر الحامية العسكرية ( عساكر شاهانه قشلة سي ) ، وفرضوا الحصار

عليهما • وقد أصيب المدير بالذهول من هول المفاجأة ، وأصبح عاجزا لا يدري ماذا يفعل • أما القوات العسكرية التركية المرابطه في الحاميه ، والمكونة من بلوكين ، فانها لم تقم بهجوم معاكس ، أو اطلاق النار خوفا من تعقد الوضع الامني وتأزمه داخل المدينة • فقام المدير وآمر الحاميــة ( عساكر شاهانه قول اغا سي ) بمقاومة امتصاص زخم حماس القوات النجفية المهاجمة عن طريق اغراء رؤسائهم بأنهما سوف يطلبان من الوالي العفو عنهم ، وعدم محاسبتهم •

وعنــدما وصل الخبر الى الوالي ، أصدر أمره بالعفو عــن رؤساء النجف ، وأرسل أحد الوجوه من بغداد وهو المدعو سيد أحمد أفندي مع منشــور ( بويرلدي ) باللغــة العربيــة يتضمن الامان لاهالي النجف ، وضرورة اطاعتهــم للادارة والعساكر الشاهانية ، وفي الوقت ذاته أمــر القــوات العسكرية المرابطة بالحلــة ، والمتكونة من طــابور بالحركة الى النجف على وجه السرعة • وكقوة احتياطيــة وظهيرة أرســل من بغــداد طابورين مع مدفع واحــد الى الحلة ، بقيادة ميري آلاي طاهر بك • وحالما وصل أحمد أفندي الى النجف ، قرأ منشور الوالي على الاهالي ، وقام بنصح رؤساء العشائر الثائرة ، ونبههم الى مخاطر استمرار الثورة على أمن المدينة ، وضرورة الحفاظ على أرواح الناس وممتلكاتهم ، وحثهم على المحافظــة على ما يحتويه ضريح الامام علي من تحف وجواهر ثمينــة • واتفق معهم على ارسال ممثلين عنهم الى مجلس بغــداد الكبير ، لعرض قضيتهم على المجلس الكبير ، ودرست القضية بالمجلس ، ووجد المجلس ان دخولهم مدينــة النجف بدون اذن الحكومة يســتلزم اخراجهم بقــوة السلاح ــ كمــا حصل سابقا ــ وتأديبهم ليكونوا عبرة لغيرهم ، ولكــن

ألمجلس في الوقت نفسه وجد ان تنفيذ ذلك أمر صعب ، ويكلف غاليا ، لان النجف مدينة محاطة بالاسوار ، وطراز بيوتها يختلف عن طراز بيوت المدن العراقيه الاخرى ، فهي تحتوي على سراديب في أبعاد عميقة تحت الارض ، وتتصل هذه السراديب مع بعضها بواسطة قنوات وآبار أكثر عمقا منها(٤٦) · وكانت هذه السراديب ، وما تحويه من آبار وقنوات تشكل وسائل الانتقال السريه بين بيت وآخر ، وبين محلة وأخرى ، أو تؤدي الى خارج السور من جهة بحر النجف · وفي فترات اندلاع حركات المقاومة النجفية للحكم التركي كانت القوات التركية معرضة على الدوام الى ضربات القناصة الذين برعوا في دقة الاصابة ، وسرعة الانسحاب الى أوكارهم وانفاقهم المشيدة تحت الارض ، بمهارة واحكام بالغين ، وكان لهذا الاسلوب من المقاومة المسلحة أثره الكبير في نشر الهلع والذعر في صفوف العساكر التركية التي وجدت نفسها في حالة عجز تام ، وعدم قدرة علي مواجهة الثوار · وقد خسر الاتراك أعدادا كبيرة من جنودهم في شوارع النجف وأزقتها ، ولذا وجد الوالي ان استخدام القوة سوف يؤدي الى سفك مزيد من الدماء – كما حصل في السابق – وانفلات زمام السيطرة على المدينة وتعريض أموال الناس وأرواحهم الى الخطر ، فانحاز الى طريق المعالجة السلمية ، وأعطى الامان للثائرين ، ووافق على اقامتهم في النجف مقابل تسليمهم أسلحتهم ، وربطهم بكفالات تضمن عدم تمردهم في المستقبل · وقام الوالي بالباس الرؤساء منهم الخلع ، لترضيتهم وتهدئتهم ، وأعادهم الى اماكنهم · ولاجل تنفيذ قرار نزع أسلحة الثوار وربطهم بكفالات ضامنة · أرسل الوالي الى النجف أحد موظفيه المعروفين بمعلوماتهم السابقة ، ودرايتهم الكاملة بأمور النجف ، وهو ويسي بك ،

محاسب جيش العراق والحجاز السلطاني مع طابور من العساكر النظامية المرابطة بمدينة الحلة . وعندما وصل الموظف المذكور مع قواته الى النجف ، باشر بجمع السلاح بدون ردود فعل سلبية ، وتسلم حوالي عشرة بنادق ، ولكنه لم يتمكن من نزع سلاح النجفيين فعليا ، كما أخفق في الحصول على الكفالات المقرر تقديمها اليه حسب الاتفاق مع الوالي ، وبعد تقييمه للموقف الامني والعسكري داخل المدينة قرر ابقاء الطابور العسكري بالموقع المخصص لاقامته في ( القشلة ) ، وعاد الى بغداد .

وقد قرر الوالي تلطيف الثوار ، وعدم التدخل في أمورهم لعدة أيام على أمل قيامهم بأصلاح ذاتهم بأنفسهم ، واستكناه ما يدور في خلدهم من أفكار ونوايا مبيتة على الحكم التركي . ولكن رجال المقاومة العربية في النجف الذين رفضوا تسليم سلاحهم ، وتقديم الكفالات للسلطات التركية لم يركنوا للهدوء والسكينة ، والخضوع للحكم الاجنبي ، بل استمروا في تحديهم ومقاومتهم للقوات التركية ، وقاموا بجباية الاموال من أغنياء المدينة ، وتنظيم أمور الادارة والامن ، في حين أمسى مدير النجف وقواته عاجزين عن ممارسة صلاحياتهم الادارية والعسكرية ، مكتفين بالتفرج على ما يدور داخل النجف انتظارا لاوامر جديدة من والي بغداد . ونظرا لمهارة النجفيين وشهرتهم بحفر الانفاق تحت الارض ، وثقب الجدران ، فقد كان مدير النجف وضباط العساكر التركية يتوقعون هجوم الثوار عليهم في أي وقت ، وتعرضهم للهلاك بصورة لا تخطر على بال أو خيال ، ويعتقدون ان هدف الثوار هو القضاء على الحكم التركي ، وتحرير النجف من العساكر التركية . وكان الثوار يعملون ليل نهار لحفر نفق تحت الارض ، من منبع دار النروة الى القشلة العسكرية ، لاستخدامه في

الهجوم المباغت على القوات التركية ، في ذات الوقت الذي كانت فيه الاتصالات تجري على قدم وساق مع العشائر العربية المجاورة للنجف ، للاتحاد مع ثوار النجف والالتحاق بهم . وعندما وصلت الوالي أخبار هذه التطورات الخطيرة ، التي بدت تهدد بشكل جدي الهيمنة التركية ليس في النجف فحسب ، وانما في منطقة الفرات الاوسط بأسرها ، لما للنجف من تأثير فعال على أهالي وعشائر المنطقة المذكورة ، بسبب زعامتها الدينية والفكرية والادبيه ، سارع الى اتخاذ التدابير الجديه المكنة لمعالجة الوضع المتدهور في النجف بما يكفل ابقاء السيطرة التركية على البلاد . فتحرك بنفسه في أواسط شهر جمادي الآخرة ١٢٧٠ على رأس قوة عسكرية كبيرة الى الحلة ، وأشاع بين الناس انه يقصد سنجق الديوانية ، لتسوية الاموال الاميرية ، والديون القديمة المتراكمة. ووجد الوالي ان ارسال ضابط من الامراء العسكريين الكبار من رتبة فريق أو لواء الى النجف سوف يؤدي الى تشكك الاهالي وتوحدهم ، وتعقيد مهمة القبض على رؤسائهم واخماد الثورة ، كما سيؤدي الى حدوث مشكلات جديدة . لذلك لجأ الى اسلوب المكر والخديعة ، للقضاء على رؤساء الثوار بدون قتال ، فأرسل آمر فوج الفرسان الاول في جيش العراق والحجاز السلطاني المدعو عمر بك الى النجف بحجة الاطلاع على حسابات بعض الملتزمين ، وتحصيل ما بذمتهم من أموال المقاطعات ، واعطاء معاشات العساكر ، وزوده بمنشور باللغة العربية يتضمن عبارات تمويهية من قبيل : ان مهمة عمر بك هي الاشراف على الامور المالية ، وتنظيم جباية الضرائب بما يمنع الزيادة والنقصان في تأديتها ، ويحقق العدالة للجميع ... وما شابه ذلك من الطروحات التمويهية التي اشاعوها بين الاهالي .

وحال وصول عمـر بك الى النجف ، دعـا أعضاء مجلس المدينـة ووجوهها ورؤسـاء العشائر – ومن بينهم قـادة الانتفاضة – الى حضور اجتماع يعقد لغرض قراءة اوامر الوالي ، والتداول في كيفية تنفيذهـا بمـا يحقق المصلحة العـامة ، في ذات الوقت الذي رتب فيه وضع بعض القوات العسكريه في أماكن مختارة للانقضاض فجأة على المجتمعين والقبض على رؤساء الانتفاضة ، وفي حال مقاومتهم واستعمالهم السلاح ، مقابلتهم بالمثل حسب الخطة الموضوعة من قبل والي بغداد ٠ وكان انعقاد الاجتماع بمقـر مدير القصبـة في مسـاء يوم الاثنين ٢٧ جمـادى الاخـرة سـنة ١٢٧٠هـ(٤٧) ، وقد تم وضع بلوكين من العساكر بغاية من السرية في محلات قريبة من مقر المدير ، كما تموضع ١٨٠ عسكريا حول مرقد الامام علي ، ومجموعة أخرى مناسبة أخذت مواقعها في محلات مختارة من السوق الرئيس في المدينة ٠ وفي الوقت الذي تكامل فيه حضور المدعوين ، اعطيت الاشارة للعساكر التي تحركت حسب الخطة المرسومة ، وطوقت مقـر المدير ، وحينذاك نهض مير آلاري عمر بك وخاطب رؤساء الانتفاضـة بقوله : ان ظلمكم وتعديكم وسوء أدبكم المنافي بكل الوجوه لمقام الحكومة العالي ، ولعلماء المسلمين ، جعل جميع الاهالي – هنـا – في حـال من الاضطراب والفزع ، ولم تثمر معكم لحد الان سياسة التأمين والتلطيف ولا التهـديد والتخويف ، بل ازددتم مفسـدة وملعنة ، ولاجل استرداد حقوق المظلومين ، واجراء محاكمتكم شرعا وقانونا ، فقد أمرت باحضاركم أمام المشير باشا ٠ وعندما لفظ الضابط التركي كلماته الاخيرة انتفض ثمانية رجال مسلحين من رؤساء الانتفاضة ( احدهم يحمل قامة والآخرون بشتو ) ، وهاجموا الضابط المذكور ، بقصد الفتك به ، ولكن الحرس تمكنوا من مسكهم ٠

أما الحضور الآخرون من الاهالي ، فأنهم نهضوا جميعا ، نهضة رجل واحد ، ووقفوا بوجه القائد التركي ؛ وتناخوا لانقاذ اخوانهم الثمانية ، وساد الهرج والمرج داخل مقر المدير ، وكاد الزمام يفلت من أيدي الاتراك ، لولا وصول تعزيزات اضافية الى مكان الاجتماع . واقتيد الزعماء الثمانية واودعو السجن في القشلة . وبقصد امتصاص نقمة الاهالي ، والحيلولة دون التفافهم حول الثوار ، ولتطويق المضاعفات المحتملة ، أمر مدير القصبة بعض المنادين ( الدلالين ) بالتجوال في الاسواق والشوارع ، والاعلان عن قيام السلطة باحتجاز رؤساء « الاشقياء » ، وأنها ستصدر عفوا عن جميع أنصارهم وتابعيهم ، وغيرهم من « أصحاب القباحة » ، لينعم الجميع بالامن والاطمئنان . بيد ان هذه التدابير لم تفت عضد الثوار وأنصارهم المتواجدين قرب مقر المدير ، فهاجم مئة وخمسون مسلحا منهم القوات التركية المتموضعة أمام باب المقر المذكور ، ودارت معركة حامية بين الطرفين ، وحالما سمع الاهالي أصوات اطلاقات البنادق ، تجمع في آن واحد حوالي الف وخمس مئة مقاتل مسلح ، وقاموا بالهجوم على مقر المدير انتصاراً لاخوانهم الذين سبقوهم في الهجوم ، ولمحاولة انقاذ الزعماء الثمانية من قبضة القوات التركية . وقد استعر الحقد والغضب في قلوب العساكر التركية حينما قتل من بين أفرادهم ستة أنفار ، بينهم ضابط برتبة ملازم وجاوش ، وحينما شعروا بتصاعد حدة المقاومة الوطنية عليهم وعدم تمكنهم من الاحتفاظ بالمحتجزين الثمانية ، قاموا بعمل خسيس وجبان حيث طعنوهم بحربات البنادق ـ وهم أسرى ، وعزل من السلاح ـ وهاجموا الاهالي بكل وحشية وقساوة ، وفتحوا نيران المدفعية لتدك المحلات والبيوت ، وامتد القتال

من عصر ذلك اليوم حتى يوم الاربعاء ٢٩ جمادى الاخرة ١٢٧٠هـ ، وكان بحق قتال محلات وشوارع وبيوت اتسم بالضراوة من قبل العدو ، والاستبسال والصمود والتضحية من قبل العراقيين الاماجد ، ابناء النجف والعشائر العربية المجاورة للمدينة المقدسة ٠ وقد اعترف والي بغداد في تقريره المرفوع الى الصدارة بضراوة القتال ، وقيام الثوار بشن ثلاث هجمات رئيسة خلال تلك الساعات المحدودة ٠ وقد تمكنت القوات التركية من حسم المعركة لصالحها ، بفعل تفوقها العددي والتسليحي ٠ وبسبب التعزيزات العسكرية التي وصلت الى النجف من الحلة ، ولما احدثته نيران المدفعية من دمار وهلع ورعب بين الناس ، فاضطر الثوار الى الانسحاب خارج المدينة عن طريق الآبار والانفاق المنحوتة في أعماق الارض ٠ وقد استسلم رئيس فرقة « الزقرت » قاسم الحداد الى القوات التركية ، وطلب الامان من القائد العسكري التركي عمر بك ، وقد وافق القائد المذكور على اعطاء الامان الى جميع المقاتلين بشرط القاء سلاحهم ، والخروج من القلعة ، والاقامة في أماكن مناسبة تعينها الحكومة ٠ واعترف والي بغداد بعدم حصول أية عملية نهب ، أو تجاسر من قبل الثوار على ممتلكات الناس والاجانب المقيمين بالنجف ، كما لم تتعرض محتويات المرقد العلوي المطهر الى أية غارة أو تجاسر ٠ وأشار الى عودة حوالي خمس مئة عائلة كانت قد هجرت النجف أثناء اندلاع القتال بين الثوار والقوات التركية ٠ كما تضمن التقرير المذكور الاشارة الى استشهاد سبعة من الزعماء الثمانية الذين تعرضوا للطعن بحراب حراسهم من الجنود الاتراك متأثرين بجراحهم وهم : ١ـ مهدي الفيخراني ٠ ٢ـ عبود الفيخراني ٠ ٣ـ ظاهر الملحه ٠ ٤ـ سيد سعد ٠ ٥ـ ظاهر الحجي ٠

٦ـ علي وهب ٠ ٧ـ سليمون ٠ وقد رتب القائد العسكري التركي عمر بك مضابط وقعها أعضاء مجلس المدينة ومشايخها وعلماؤها ، ووثقهـا بتقرير طبي عسكري يتضمن الكيفية التي أدت الى استشهاد هؤلاء الابطال حسب الرواية الرسمية ٠

وبعد قمع هذه الانتفاضة الشعبية المسلحة استولت القوات التركية على بعض رسائل وأوراق الثوار ، وكانت هذه الرسائل والاوراق تشير الى حدوث اتصالات بين زعماء الثورة في النجف وزعماء العشائر العربية في العراق ، وتهدف الى اعلان الثورة على الحكم التركي في جميع أنحـاء العراق ٠ واعترف الوالي في تقريره بأن القضاء على انتفاضة النجف أنقذ الحكم التركي في العراق من كارثة ماحقة كانت ستلحق به(٤٨) ٠

وهكذا تطور التفكير بتحرير النجف وحمايتهـا الى اشراك المحيط الاقرب الى النجف في استعدادات واستحضارات الحمـاية ، والتصدي للاعداء ، ثم اتسع هذا التفكير ليشمل القطر العراقي بأسره ، والوطن العربي برمته ٠ وتبلورت المفاهيم الوطنية والقومية ، وتطورت من أحوال عفوية وارتجالية حتى بلغت ، في مطلع القرن العشرين ، مستوى الجمعيات والاحزاب السياسية الثورية ٠ فأصبحت حاضرة العلم والادب مركزا ثوريا وقياديا ، ومصهرا لصياغة المفاهيم الوطنية والقومية الاصيلة ٠٠ تتصدى ببسالة للاتراك مذ وطئت أقدامهم أرض العراق حتى ثورة الثامن من شهر رجب ١٣٣٣هـ (٢٢ مايس ١٩١٥م) ، حيث سـيطر الثوار على المدينة ، مراكز الحكومة ، واجبروا الحاميـة التركية على الاستسلام ، وطردوها ، وشكلوا حكومة محلية استمر حكمها أكثر من عامين ، وتثور على الاحتلال البريطاني الغاشم في السادس من شهر جمادى الثانية سنة

١٣٣٦هـ ( ١٩ مارت ١٩١٨م ) ، وبدور متميز ومؤثر تحارك العـراق بأسره في تفجير ثورة العشرين المجيدة ، وادامة روحها العراقية والعربية، وتتعمق في هذه المدينة الصعبة المراس أهداف النضال الوطني ، وتتسع ساحاته وميادينه من المطالبة باستقلال العـراق الى المطالبـة باستقلال الوطن العربي ، والدعوة الى اقامة الدولة العربية الموحدة(٤٩) .

**الوثائق :**

## الوثيقة الاولى

معروض عبدكم :

ان عدة انفار من رؤساء اشقياء « طائفة الشمرت » من أهالي قصبة النجف الموقوفين في بغداد تمكنوا من الفرار الى النجف وتجـرأوا على احداث الفساد هناك ، وقد تضمنت احدى فقرات تقريري المرفوع بالبريد السابق الى مقام الصدارة العالي كيفية مواجهة ودفع غائلتهم . وعنـد الاستفسار من الافـراد المرقومين عن سبب مغادرتهم بغداد ومجيئهم الى النجف بلا رخصة ، وجمعهم زمرة من الاوغاد استعدادا للقتال اجـابوا بأنهم وصلوا النجف ودخلوها بلا استئذان بناء على سماعهم أخبارا تفيـد بتسلط مخالفيهم من « طائفـة الزقرت » على أعوانهـم وأنصـارهم من « طائفة الشمرت » ، وقد تملكهم الخوف على مصير رفاقهم بسبب ذلك ، وبعد مرور عدة أيام من الاستعداد لمحاربة أعدائهم تأكدوا من عدم صحة المعلومات التي وصلتهم في بغداد ، ولكونهم جاءوا الى مدينتهم فعلا فقـد التمسوا السماح لهم بالبقاء في بيوتهم ، وانهم صرفوا زمرة الاوغاد التى

جمعوها تحت زعامتهم ، وان أهل القصبة متشغولون الآن بكسب عيشهم، وقد استتب الامن والاستقرار من جديد ، حسب المستفاد من مآل التحريرات الواردة من المبعوث الخاص الى النجف القائممقام صالح بك ومدير القصبة شاكر أفندي وقائممقام كربلاء قربي افندي .

ونظرا لكونهم على تلك الحال فأن ما يجب اتخاذه من اجراءات رادعة سينظر فيها في الوقت المناسب ، وتبقى الاوضاع الان كما هي قائمة ، وفي حال تجاسرهم على احداث المخالفات فسوف توجه نحوهم قوة جنودية وافية من أجل القبض عليهم ، وقد ارسلت التعليمات والتوجيهات المناسبة بهذا الخصوص الى القادة العسكريين في الحلة والديوانية . اما محرك ومسبب كافة هذه الاضطرابات هو الشقي وادي ، وانشاء الله تعالى سوف تزول جميع الاضطرابات ويستتب الامن ويسود الاستقرار حال حصول تربيته .. لاطلاع مقام الصدارة العالي ، وفي كل حال فأن الامر والفرمان لحضرة من له الامر(٥٠) .

٢٩ رجب ١٢٦٨هـ /

ختم

مشير جيش الحجاز والعراق

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق باشا

## الوثيقة الثانية

معروض عبدكم :

سبق وان عرض على مقام وكالة الداخلية العالي ان المدعو ظاهر الملحة ، وهو أحد رؤساء طائفة « الشمرت » في قصبة النجف الاشرف ،

رجل مفسد ومحرك ، لذا جلب مقدما الى بغداد ، وخلال فساد وادي هرب الى النجف مؤخرا ، وقام بجمع زمرة المفسدين تحت زعامته ، وتجاسر بممارسة الطغيان · ونظرا لكون غائلة المرقوم وادي لا تزال مستعرة في ذلك الوقت فقد تقرر تأجيل معاقبة الاشقياء المذكورين الى وقت آخر مناسب · ومنذ ذلك الوقت أخذت زمر من الاشقياء المذكورين مؤلفة من ٤٠ ـ ٥٠ رجل مسلح تتجول وتقوم بالحراسة ليلا في أطراف البيوت التي تجمعوا فيها ، وتجبي الاموال من أصحاب الثروة بعد تخويفهم ، وعندما راودتهم الشكوك باحتمال القبض عليهم وضعوا المتارس على أطراف البيوت المذكورة استعدادا للمقاومة المسلحة ·

ومن الجانب الآخر أيضا اعطيت لهم التأمينات والاستمالة من أجل كسب الوقت ، وخلال ذلك وبفضل التوفيقات السلطانية اكتسبت أطراف الديوانية الامن المطلوب ، فتم ارسال طابورين من لواء ( آلاى ) المشاة الثاني الموجود في الديوانية والمنسوب الى فيلق العراق السلطانى ( الهمايوني ) بصحبة أمير اللواء ( مير آلايي ) صاحب العزة بكر بك الى النجف ملتحقا بالطابور الآخر الموجود مسبقا في القصبة المذكورة ، فنشأ من جراء ذلك عصيان المفسدين وقيامهم بارتكاب أنواع الفساد والفوضى وعلى الرغم من ان العساكر السلطانية الموجودة على درجة من الكفاية لضربهم والتنكيل بهم ، الا ان ملاحظة ما سوف يتعرض له الابرياء ورعايا التبعة الاجنبية من اضرار بسبب اندلاع القتال جعل امير اللواء الموما اليه ومدير القصبة المذكورة شاكر أفندي يطلبا الاستئذان بخصوص كيفية معالجة الموقف الراهن ·

ولدى مذاكرة الموضوع في المجلس الكبير وجد ان ترك الاشقياء

المرقومين على تلك الهيئة من العصيان والطغيان مغاير للعدالة السنية ، لذا تقـرر اتخاذ ما يقتضيه الموقف من تدابير بأسرع وقت ممكن · ولا يخفى على مقام الصدارة العالي ان قصبة النجف تحتضن مشهد افندينا الامام علي رضي الله عنه ، ويسكنها عدد كبير من التبعة الاجنبية ، وهي مدينة معظمة تحتوي على عشرين ألف بيت ، ففي حـال وقوع القتـال داخلها سيصاب بعض الابرياء بالاضرار ، ويترتب على ذلك اثارة عدد من الشكاوى الاجنبية ، لذا ينبغي تجنب ذلك قـدر الامكان في حال اندلاع القتال ، مع الاخذ بنظر الاعتبار ازالة مضرات الاشقياء المرقومين الحالية والآتية كليا ، وتأمين الاستقرار الكامل ـ حسب مطلوب المقام العالي ·

ولما كان حصول هذا الامر منوط بوجود قوة وافية مع شخص مناسب من الاركان العسكرية ، وبما ان حضرة صاحب السعادة الفريق سليم باشا من أركان فيلق الاناضول السلطاني هـو الشخص المناسب لهـذه المهمة ، فقد تنسب ارساله الى النجف على رأس قـوة عسكرية وافية ، وبصحبته نقيب بغداد وقائممقام كربلاء وبعض السادات والعلماء ، وزود بأمر اداري ( بيورلدى ) موجه الى الاهالي كمـا أعطى التعليمات اللازمة أي شخص في حال الاضطرار الى استعمال القوة ، وطلب من القنصلين المتضمنة كيفية معالجة الموقف ، والتأكد على عدم المساس بأموال واملاك الايراني والبريطاني المقيمين ببغداد اخبار تبعتهم والعمل على فرزهـم عن زمرة الاشقياء ·

وبمنة الله تعالى ولدى وصول الفريق المشار اليه ان هناك عرضت وتليت تحريراتي وأمري على الاهالي والاشقياء المرقومين ، وجاء المرقوم ظاهر الملحة مسلما نفسه بين يديه بعد شعوره بالامان ، فعين له حراسا

للمحافظة عليه وأخرجه وعائلته وعـدد من رفاقـه من النجف للاقامة في أطراف الحلة ، وبعد يومين القي القبض على خمسة أنفار من رفاق المرقوم ورؤساء الفساد ومثيري الفوضى والاضطراب ووضعهم في الحبس بوسيلة ما ، لان بقاءهم في النجف مضـر بالامن • واعقب ذلك هجـوم انصارهم البغاة على السجن بأمل اخذهم بالقـوة ، فضربوا وجرحـوا جنديين من العساكر السلطانية ، مما حدا بالطرف الآخر الى المقابلة بالمثل ، فاندلع القتال داخل المدينة منذ الساعة العاشرة بعد العصر ، وتحصن الشـقاة في عـدد من البيوت ، وعقبتهـم العسـاكر وفرضت عليهـم الحصـار ، واستمرت المعركة حتى الساعة الرابعة ليلا ، وبعد ذلك لم يستطع الاشقياء الاستمرار في المقـاومة ، فألقوا انفسهم من البيوت وهربوا ، وفي اليوم التالي القي القبض على اثنين وسبعين نفرا من الذين لم يتمكنوا من الهرب وفضلوا الاختفاء في بعض البيوت ، وتم ارسالهم الى بغداد • وعلى الرغم من قيام بعض العساكر بنهب أشياء وأموال قليلة من البيوت التي اختفى بها هؤلاء ، أثناء التحري والقاء القبض عليهم ، الا ان هذه المنهوبات جمعت فيما بعد ودون ضياع اي شيء منها واعيدت الى أصحابها بأشراف مجلس المدينة وعلمائها وساداتها ، ونظمت بهذا الخصوص المضابط وارسلت الى بغـداد •

وحمدا لله تعالى وبفضل القدرة السلطانية اندفعت الغائلة المزبورة، وحصل الاستقرار الكامل في القصبة المذكورة • وبعد ترك مقدار مناسب من العساكر اتجه مع العساكر الى أطراف كربلاء والمسيب للقضاء بعون الله تعالى على عصيان وادي الذي يتجول في تلك الاطراف •

ونظرا لمـا اظهره الفريق المشار اليه من سعي واقدام جميلين فأن

نلطيفه محط علم الصدارة العالي ، وبهذا الخصوص وعلى أي حال فأن الامر والفرمان لحضرة من له الامر(٥١) ٠

٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ

ختم

مشير جيش الحجاز والعراق

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق باشا

## الوثيقة الثالثة

### عريضة علماء النجف الاشرف الى والي بغداد محمد رشيد باشا »(٥٢)

معروض الدعوات الخيرية لدى مراحم الحضرة المشيرية أيدها رب البرية آمين :

هو انه يوم الاثنين المبارك سابع وعشرين من شهر الحال حضر في المجلس صاحب العزة ميري آلاي العساكر الشاهانه عمر بك لاجل تمييز رسم العبورات واحضر العلماء والاعضاء ووجوه التجار وأمر أيضا باحضار رؤساء الشمرت فحضر فيهم مهدي الفيخراني وظاهر الملحة وعبود الفيخراني والسيد سعد وظاهر الحجي وبعض اتباعهم وبعد انعقاد المجلس على هذا الوجه دخل مقدار بلك من العسكر المنصور فأمرهم حضرة البك المذكور بأن يقبضوا على المغرورين من رؤساء الشمرت المذكورين فقبضوا عليهم بأقل من لمحة طرف وادخلوهم الى القشلة ، وحين سمع بذلك رفقاء الاشقياء المزبورين ثاروا للمحاربة وثوروا التفنك وأرادوا الهجوم على صحن الحضرة الشريفة وبعض الاماكن الحصينة فوجدوا

العسكر المنصور قد سبقهم اليها وغلبهم عليهما واستمرت محاربتهم الى الليل فجاء قاسم الحداد الزمرتي ودخل على حضرة البك الموما اليه وهو في القشلة المعمورة وطلب الامان لنفسه ورفقائه وتعهد بالاطاعة والمتابعة للعسكر المنصور فأعطاه الامان وخلع عليه فبلغ ذلك طائفة الشمرت فانحلت كلمتهم وتفرقت جماعتهم وتبرت منهم الاقارب وأخذهم الخوف من كل جانب وجعلوا يهربون خفية شيئا فشيئا الى حين الصبح من هذا اليوم المبارك وهو يوم الاربعاء تاسع وعشرين من شهر الحال لم يبق للمذكورين في البلدة خبر ولا عين ولا أثر . وقد انقطع دابر الذين ظلموا وذاقوا وبال امرهم بما قدموا واستراحت منهم البلاد وامنت مكرهم العباد ولم يقع بحمد الله تعالى وساية الدولة العلية وبركات انفاس الحضرة المشيرية أدنى ضرر أو اذية على احد من الرعية بل لم يفقد لاحد منهم شيء بالمرة ولا بقدر الذرة وعند ذلك ضج العلماء وكافة أصناف الفقراء لدى حضرة ابن عم سيد الانبياء بالدعاء للدولة الغراء وقد ادوا فروض الادعية الخيرية للحضرة المشيرية واظهروا كمال الفرح لوقوع القضية بهذه الكيفية حتى كان ذلك عندهم من أجل الاعياد السنية وقد أكثروا أيضا من شكر حضرة البك المشار اليه دامت نعم الله تعالى عليه لحسن تدبيره وسياسته ووفور عقله وشجاعته وبذل مجهوده في صيانة الحضرة الغراء وحفظ كافة الفقراء وحمايتهم من جميع الاسواء ووقوع المادة على يده بهذه الحالة الحسنة لم تيسر لغيره من قديم الزمان وذلك بالحقيقة كله من بركات أنفاس الحضرة الآصفية أيدها رب البرية . ثم لاجل اشعار المسامع الشريفة بوقوع القضية المذكورة على هذه الصورة وكون الاهالي جميعا قد أصبحوا في كمال الراحة وتمام الامنية والاستراحة تحررت

عريضة الدعاء ولا زلتم افندم بحراسة فاطر السماء ٠

الداعي لدوام حضرتكم السيد جعفر الخرسان

الداعي لدوام حضرتكم عبدالحسين ابن شيخ محمد حسن

الداعي لدوام حضرتكم مهدي ابن الشيخ علي الشيخ جعفر ( كاشف الغطاء )

الداعي لدوام حضرتكم السيد محمد تقي بن محمد رضا لطباطبائي

الداعي لدوام حضرتكم الشيخ ابراهيم العاملي ٠

## الوثيقة الرابعة

### « عريضة مجلس النجف الاشرف الى والي بغداد »(٥٣)

معروض الدعوات الخيرية لدى مراحم الحضرة المشيرية ايدها رب البرية آمين ٠

هو انه يوم الاثنين المبارك سابع وعشرين من شهر الحال حضر في المجلس صاحب العزة ميرآلاي العساكر الشاهانه الوارية عمر بك لاجل تمييز رسم العبورات واحضر العلماء والاعضاء ووجوه التجار وامر ايضا باحضار رؤساء الشمرت فحضر منهم مهدي الفيخراني وظاهر الملحه وعبود الفيخراني والسيد سعد وظاهر الحجي وبعض اتباعهم وبعد انعقاد المجلس على هذا الوجه دخل مقدار بلك من العسكر المنصور فأمرهم حضرة البك المذكور بأن يقبضوا على المغرورين من رؤساء الشمرت المذكورين فقبضوا عليهم بأقل من لمحة طرف وادخلوهم في القشلة وحين سمع بذلك رفقاء الاشقياء المزبورين ثاروا للمحاربة وثوروا التفك وارادوا الهجوم على صحن الحضرة الشريفة وبعض الاماكن الحصينة فوجدوا العسكر المنصور

قد سبقهم اليها وغلبهم عليها واستمرت محاربتهم الى الليل فجاء قاسم الحداد الزقرتي ودخل على حضرة البك الموما اليه وهو في القشلة المعمورة وطلب الامان لنفسه ورفقائه وتعهد بالاطاعة والمتابعة للعسكر المنصور فأعطاه الامان وخلع عليه فبلغ ذلك طائفة الشمرت فانحلت كلمتهم وتفرقت جماعتهم وتبرت منهم الاقارب واخذهم الخوف من كل جانب وجعلوا يهربون خفية شيئا فشيئا الى حين الصبح من هذا اليوم المبارك وهو يوم الاربعاء تاسع وعشرين من شهر الحال لم يبق للمذكورين في البلد خبر ولا عين ولا أثر وقد انقطع دابر الذين ظلموا وذاقوا وبال أمرهم بما قدموا واستراحت منهم البلاد وأمنت مكرهم البلاد والعباد ولم يقع بحمد الله تعالى وساية الدولة العلية وبركات انفاس الحضرة المشيرية أدنى ضرر أو أذية على أحد من الرعية بل لم يفقد لاحد منهم شيء بالمره ولا بقدر الذرة ، وعند ذلك ضج العلماء وكافة الفقراء لدى حضرة ابن عم سيد الانبياء بالدعاء للدولة الغراء ، وقد أدوا فروض الادعية الخيرية للحضرة المشيرية واظهروا كمال الفرح لوقوع القضية بهذه الكيفية حتى كأن ذلك عندهم من اجل الاعياد السنية ، وقد اكثروا أيضا من شكر حضرة البك المشار اليه دامت نعم الله تعالى عليه لحسن تدبيره وسياسته ووفور عقله وشجاعته وبذل مجهوده في صيانة الحضرة الغراء وحفظ كافة الفقراء حمايتهم من جميع الاسواء ووقوع المادة على يده بهذه الحالة الحسنة لم تتيسر لغيره من قديم الزمان وذلك بالحقيقة كله من بركات انفاس الحضرة الآصفية أيدها رب البرية ثم لاجل اشعار المسامع الشريفة بوقوع القضية المذكورة على هذه الصورة وكون الاهالي جميعا قد اصبحوا في كمال الراحة وتمام الامنية والاستراحة تحررت عريضة الدعاء ولا زلتم

أفندم بحراسة فاطر السماء . في الثاني من شهر رجب سنة ١٢٧٠هـ / ٣١ مارت ١٨٥٤م .

| | | |
|---|---|---|
| نائب النجف | كليتدار (سادن) | مدير النجف |
| سيد علي بن سيد حسين | صابر الموسوي | عثمان بك |
| عضـــو | عضـــو | عضـــو |
| غائب | علـــي | علي الحسيني |
| عضـــو | عضـــو | عضـــو |
| ناصر حسين | عبدالعزيز | محمد جواد عبد |

## الوثيقة الخامسة

### « مضبطة مجلس النجف الاشرف الى والي بغداد »(٥٤)

المعروض لدى الحضرة المشيرية ايدها رب البرية

من خصوصي طائفة الشمرت لما تمادت معصيتهم لله عز وجل وولاة الامر ، وتجاهروا بعمل الفســاد وأذية العباد ، وعلى الخصوص أهالي النجف الاشرف وسائر الفقراء والمجاورين في ذلك المكان المشرف ، واستمر عدم سماعهم لانذار الوالي واعذاره لهم مرة بعد مرة وكرة بعد كرة اقتضت ارادة الحضرة المشيرية باخراجهم من تلك القصبة الحيدرية لاجل استراحة الاهالي من غائلتهم وسوء عاقبتهم فأرسل صاحب العزة ميرآلاي العساكر النظامية السواريه عمر بك لاعمال سياسة جميلة يخرج بها المذكورين من دون محاربة ولا صيحة تخيف السكنة والمجاورين وتعــود بالضــرر على الفقراء المساكين فعقد حضرة الامير الموما اليه مجلسا جمع فيه العلماء والاعضاء والتجار ووجوه الاخيار وأظهر في ذلك المجلس انه يريد تحقيق

متسلة عبورات النجف الاشرف كي لا يتجاوز الملتزم لها سبيل المعتاد ولا يحصل مغدوريه على العباد ، وانه لابد في هذا المجلس من احضار رؤساء طائفة الشمرت لاعمال الرابطة المذكورة بأحسن صورة فجاء جماعة من رؤساء الفرقة المزبورة وهم مهدي وظاهر وعبود والسيد سعد وعلي وهب وسليمون وظاهر الحاجي ولما حصل اجتماعهم على هذا الوجه اشار الى بعض ضباط العسكرية ان يأتي بطائفة من العسكر المنصور للقبض على الاشخاص المذكورين فما كان بأسرع من ان هجمت فرقة العسكر المنصور على المجلس المسطور فأحس الاشخاص المرقومين بارادة القبض عليهم فثاروا من امكنتهم ووضعوا ايديهم على اسلحتهم وهجموا على الامير المومى اليه وعلى العسكر المنصور ، وحين رأى العسكر المنصور ذلك منهم وثبوا عليهم وجعلوا يضربونهم بالايدي والارجل وقناديق التفك وحرابها فأدى ذلك الى موت الاشخاص المزبورين بسبب جراحات اصابتهم عجز الجراحون عن علاجها ومداواتها ، وهذا الذي حل فيهم بسبب ما كسبت أيديهم ، ولاجل بيان كيفية الحال بهذا المنوال تحررت المضبطة وقدمت لدى الحضرة المشيرية دامها رب البرية والامر لمن له الامر افندم .. في الرابع من شهر رجب سنة ١٢٧٠هـ ( ٢ نيسان ١٨٥٤م ) .

| | | |
|---|---|---|
| كليتدار (السادن) | نائب النجف | مدير النجف |
| صابر الموسوي | سيد علي بن سيد حسين | عثمان بك |
| عضو | عضو | عضو |
| غائب | علي | علي الحسيني |
| عضو | عضو | عضو |
| ناصر حسين | عبدالعزيز | محمد جواد عبد |

## الوثيقة السادسة

### « شهادة وفاة زعماء الانتفاضة مترجمة عن اللغة التركية القديمة »(٥٥)

نظرا الى قيام رؤساء أشقياء الشمرت من أهالي النجف الاشرف . ومنهم الاشخاص : مهدي فخراني(٥٦) وعبود فخراني(٥٧) وظاهر الملحه ، وسيد سعيد(٥٨) وطاهر الماجد(٥٩) وعلي الوهاب(٦٠) وسليمون بالفساد منذ مدة طويلة فقد تقرر القاء القبض عليهم لاجل تأديبهم وتربيتهم بالوجه النظامي والاسلوب المستحسن استنادا الى شريعة الدين والدولة . وحين المباشرة بالقاء القبض عليهم لم يظهروا الطاعة لاولي الامر ، بل قاوموا وسحبوا سلاحهم توجه العساكر السلطانية وهجموا عليهم . لذا وجدت العساكر السلطانية نفسها مضطرة الى طعنهم بالسلاح الابيض ( حراب البنادق ) ، مما أدى الى اصابة الاشقياء السبعة المذكورة اسماؤهم أعلاه بجروح بليغة . ومن أجل الكشف عليهم طبيا ومعالجتهم وضعوا تحت ادارتنا واشرافنا بتوجيه من القادة العسكريين وسائر المأمورين . وقد ظهر لنا بعد الكشف والمعاينة الطبية ان جروحهم غير قابلة للالتئام ، وبعد عدة أيام من المعالجة حدثت وفاتهم بأمر الله تعالى وهذه شهادتنا حررت وختمت من قبلنا .

٥ رجب ١٢٧٠هـ / ٣ نيسان ١٨٥٤م

| ختم | ختم | ختم |
| --- | --- | --- |
| جراح لواء الفرسان | طبيب لواء الفرسان الاول | طبيب اللواء الرابع |
| مصطفى بهجت | يوسف | عارف |

## الوثيقة السابعة(٦١)

### « تقرير والي بغداد الى الصدارة مترجم عن اللغة التركية القديمة »

المعروض لجنابكم :

ينقسم سكان النجف الاشرف ، المسمى بقصبة الحيدرية ، والملحق بسنجق كربلاء ، والذي يضم المشهد المبارك لحضرة الامام علي رضي الله تعالى عنه – الذي لا يحتاج الى بيان لدى مقامكم العالي – الى ثلاثة أصناف من العشائر ، يمثل الصنف الاول عامة الناس من غير المتحزبين والمتكتلين « اهل عرض » ، والصنف الثاني « الشمرت » ، أما الصنف الثالث فهم « الزقرت » ، وهاتان الطائفتان المنجوستان اللتان يقال لهما : شمرت وزقرت ، كانتا منذ قديم الزمان مشهورتين في أيالة بغداد بالشر والشقاوة والمفسدة ، ومعروفتين بالجرأة والجسارة بين العشائر . ولذا فأنهما كانتا سبب الشر والمضرة التي لحقت بالناس ، وسبب ازالة الاستقرار ، وانعدام الامن العام ، نظرا للحروب والنزاعات الدامية التي نشبت بينهما من جهة ، ولاتفاق الفرقتين وقيامهما بحركات باغية على الحكومة ، وتجاسرهما بتعريض أرواح الناس الابرياء والتجار وأموالهم الى الغدر والضرر من جهة أخرى ، حتى انه في عهد سلفي صاحب الدولة الباشا ازدادت ملعنتهم ومفسدتهم ، مما اضطره الى ارسال قوات كثيرة من العساكر النظامية ، والنفرات الموظفة ، والمدافع الى القصبة المذكورة ، وأخرجتهم منها حربا وجبرا ، ووضع وجدة من القوات النظامية في النجف للاقامة بصورة دائمة فيها من أجل منع عودة العناصر المطرودة والمبعدة ، والمحافظة على أمنها واستقرارها .

وحين ورودي الى هذا الطرف ( بغداد ) ، وبناء على التماسهم

واسترحامهم ، منحوا الرأي والامان ، وتقرر اقامتهم في أطراف السماوة : وتوفير ما يؤدي الى رفاه احوالهم • قبل أربعة أو خمسة شهور وبناء على سائر الاشعارات والمسموعات المرفوعة من قبل السافرة السنية بطهران : حول ما قيل عن قيام الايرانيين بتحركات عسكرية ، وما أعقب ذلك من ضرورة سوق قـوة عسكرية كافيـة الى منطقـة خانقين المقابلة للحـدود الايرانية ، لاجل الاختباء ، ونظرا لكون نصف موجود القوات العسكرية النظامية كانت تتواجد حينذاك في منطقـة السماوة ، والنصف الباقي في منطقة بني لام ، ولعدم وجود قوات عسكرية نظامية في مواقع قريبـة ، سوى التي في كربلاء والنجف ، لذا تقرر ابقـاء قوات رمزية تتألف من بلوكين ، أو ثلاث في كل من المدينتين المذكورتين ، وسحب بقية القوات منهما وارسالهما الى خانقين • وقد اهتبلت الطائفتان المرقومتان فرصـة تقليـل القـوة العسكرية للقصبة المذكورة ، وتسللت من السماوة الى النجف سالكة الطريق الصحراوي وحينما فتحت باب قلعة النجف صباح أحد الايام هجم فجأة خوالي ألف وخمسمائة مسلح « سرسري » ، واندفعوا الى الداخل ، وتوجهوا مباشرة الى مدير القصبة ، ومقر القوات العسكرية ( القشلة ) وقـد وجـد المدير نفسه عاجزا عن اتخاذ أي تدبير مقابل ، واضطرت القوات العسكرية النظامية المتألفة من بلوكين الى عدم استخدام السلاح خوفا من تعرض البلد الى أعمال النهب • وتعهد المدير ، وآمر الوحدة العسكرية الى رؤساء الاشـقياء المذكورين ، بأنهما سيعملان على منحهم العفو من الحكومة ، وعدم اتخاذ أي اجراء بحقهم ، وحال اخباري بالكيفية ، أرسلت أحد وجوه اشراف بغداد ، صاحب الفضيلة سيد أحمد أفندي الى النجف ، يحمل اليهم أمرا ( بويرلدي ) يتضمن الامان للرؤساء

المذكورين ، وجلبهم للمثول أمامي ، وفي نفس الوقت أشعرت بأرسال طابور عساكر نظامية من الحلة الى النجف على وجه السرعة ، كما وجهت من بغداد طابورين عساكر « شاهانه » ، مع مدفع بقيادة صاحب العزة ميرآلاي طاهر بك الى الحلة ، كقوة احتياطية ٠

وحين وصول الموما اليه السيد أحمد أفندي الى هناك قرأ أمري الذي كان يحمله معه ، وبذل مجهودا كبيرا في وعظ ونصح رؤساء الاشقياء ، وأخذ عهـدا بعدم التعرض الى الاهالي ، وما تحتويه تربة أفندينا الامام المشار اليه رضي الله تعالى عنـه من تحف وجواهر ، ومعلقات نفيسـة ومباركة ، ودعا رؤساء الاشقياء الى المجيء معه الى هذا الطرف ( بغداد ) ، لعرض قضيتهم على مجلس بغداد الكبير ولكنهم لم يرسلوا من عناصرهم المهمة أحدا ، وانما اكتفوا بأرسال عدة أنفار ثانويين ، بصفة وكلاء عنهم الى هذا الطرف ، برفقة الموما اليه أحمد أفندي ٠ وبعد مناقشة مستفيضة لهذه المسألة ، دارت في المجلس الكبير ، وجد أن دخول الاشقياء المذكورين الى القصـبة الحيدرية بدون اذن الحكـومة يستلزم تأديبهم وتربيتهم ، ليكونوا عبـرة للسائرين ، وذلك بأخراجهم بقـوة السلاح ـ كما حدث سابقا ـ دفعا للاضرار الناجمة عن بقائهم داخل القصبة ٠ بيد ان الوضعية الداخلية للقصبة المذكورة تختلف عما متعارف عليه في سائر الاماكن والمدن الاخرى ، حيث توجد السراديب تحت كافة البيوت ، وفي كل سرداب بئر عميق يتصل بالآبار الاخرى بواسطة أنفاق وقنوات مصنعة ، مما يوفـر امكانية الانتقال والمرور من بيت لآخر ٠ والهرب الى المكان المطلوب ٠ وفي وقت الحرب تجـد الاشقياء المذكورين يستخدمون تلك المخابيء والاوكار السرية بصورة دائمية ٠ ففي الوقت الذي لا يشاهد أحدهم في الميدان ،

يظهر البعض منهم فجأة كالجرذ الذي يخرج من حفـرة ، ويقـوم بقتـل الواحد ، والاثنين من العساكر النظامية في هـذا المكان ، أو ذاك ، ثم يعود الى مخبأه دون التمكن من القبض عليه ، أو حتى تشخيصه ، وقـد أدت هذه الحالة الى تلف عدد كبير من العساكر • وفي حالة الدخول في حرب معهم الآن ، فسوف يؤدي ذلك أيضا الى سـفك الدماء ونهب البلد ـ كما حصل سابقا ـ لذا تقرر ترجيح منح هؤلاء الامان ، والموافقة على اقامتهم في القصبة المذكورة مقابل تسليم سلاحهم وربطهم بكفالة • وتم البأس الرؤساء المذكورين الخلع ، واعيدوا الى مكانهم مكرمين • وتقرر ارسال محاسب جيش العراق والحجاز صاحب العزة ويس بك الى القصبة المذكورة ، لـمـا يتمتع بـه من معلومات سابقة ، ودراية كاملة ، بصحبة طابور العساكر النظامية الذي سبقت الاشارة الى صدور ايعاز بحركته من الحلة الى النجف ، وذلك للاشراف على قيام المذكورين بتنفيذ قرار نزع أسلحتهم ، وربطهم بكفالة ، ومسألة اقامتهم • وعند وصوله الى هناك مع العساكر ، وبسبب حسن تدبيره لم يحدث أي رد فعل سلبي من قبلهم ، وانما جلبوا خمسا الى عشر بنادق ، وسلموها الى ويس بك ، ولكنهـم امتنعوا عن تقديم الكفالات المطلوبة حسب القرار السابق وقد شعر الموما اليه أنهم غير جادين في مسألة نزع سلاحهم فأبقى القوات التي جلبهـا معه مرابطة في القشلة ، ونهض عائدا الى بغداد • وهكذا تركت المسألة على هذه الحالة لعدة أيام ، على أمل ان يثوبوا الى رشـدهم • ولكـن بمقتضى الملعنة والشقاوة المركوزة في ضمائرهم الرديئة ، قام الاشقياء المذكورون ـ حسب عادتهـم السابقة ـ بتخويف عـدد من أغنياء البلد وأخذوا منهم ما طلبوا من الاموال ، والحقوا الظلم والاعتساف بالتجار

والاصناف والفقراء والمهاجرين ، ولم يشعروا أصلا بوجـود الحكومة ، وقـد شاهد كل شخص هـذه التصرفات والتعديات ، حتى ان الفقراء والمظلومين من الاهـالي بدأوا بالهجـرة من القصـبة المذكـورة وحـدانا وزرافات . اما مدير القصبة وكبار ضباط الحامية العسكرية ، فأنهـم لم يألوا جهدا في نصح هؤلاء ، ومحاولة منع تماديهم بالرفق واللين ، الا انهم بدلا من ان يرعووا ازدادوا شقاوة وطغيانا . ونظرا لكون الاشقياء المذكورين ماهرين ومشهورين بحفر الآبار ، وثقب الجدران ، فأن القوات السلطانية الموجودة هناك معرضة للابادة والفناء الماحق ، بشكل لا يسطر على بال ، كما ان التربة المطهرة ، والاهالي معرضون للنهب بلا مانع ، وان نيتهم الفاسدة اخراج النجف من يد الحكومة ، وانهم قاموا بحفـر نفق مباشر من منبع مقرهم المعروف بدار الندوة ( مجمع المفسدة ) الى القشلة العسكرية ، واتصلوا بالعربان المجاورين ، بقصد الاتحاد معهم ، وبسماع هذه الاخبار الموحشة أصبح التحرك بسرعة أمرا لابد منه لمعالجة وضعهم الذي بدا ينذر بخطر جدي وحقيقي .

وفي أواسط الشهر السابق توجهت بنفسي الى الحلـة المجـاورة للقصـبة المذكورة ، وعلى وجـه السـرعة ، بذريعة الذهاب الى سنجق الديوانية ، لتسوية أموال الميري ، واستيفاء الديون القديمـة . ولدى تأمل مستلزمات الموقف واحتمالات مضاعفاته وجد ان ارســال ذات من كبار الامراء العسكريين برتبة فريق أو لواء الى هناك ، بأي صورة ، أو ذائعة ، سوف يؤدي بالتأكيد الى توحش الاشقياء المذكورين استنادا الى مقولة « الخائن خائف » ، وضياع فرصة القبض على رؤسـائهم الذين يعدون أصل الفساد والعصيان ، وكسب مشكلات اضافية . لذا تقرر

ارسال آمر لواء الفرسان الاول ( سواري برنجي الابي ميرالاي ) من جيش العراق والحجاز السلطاني صاحب العزة عمر بك الى القصبة المذكورة ، بحجة رؤية حسابات بعض الملتزمين وتحصيل ما بذمتهم من ارسال آمر لواء الفرسان الاول ( سواري برنجي الابي ميرالاي ) من بأمر « بويرلدي » من قبلي ، وتمت صياغته بشكل مناسب ، وباللغة العربية . وجرى الاتفاق أن يشيع حال وصوله الى هناك بأنه جاء من أجل تنظيم الرسوم والضرائب ، ومنع تجاوز الملتزمين ، ورفع الغبن عن كاهل المواطنين ، وما شابه ذلك من الامور التي يتضمنها المنشور المذكور وانه سوف يقرأه أمام الجميع ، ويطلب احضار رؤساء الاشقياء ، واعضاء مجلس القصبة المذكورة وسائر وجوه الاهالي . وكان قد أفهم وبشكل تفصيلي ، باستحضار مقدار من العساكر والانقضاض بغتة على الرؤساء المذكورين واعتقالهم ، وفي حالة مقاومتهم ، واستعمالهم السلاح ، فينبغي المبادرة الى مقابلتهم بالمثل بالوجه النظامي .

وعند وصول الضابط المومأ اليه الى هناك ، اعلن مأموريته حسب الخطة التي وضعتها له ، ففي يوم الاربعاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة ، وبدعوة جميع أعضاء المجلس السالف الذكر ، ورؤساء الاشقياء المرقومين للاجتماع بمقر المدير ، من أجل قراءة المنشور ، والاطلاع على مواده ، ثم وضع بلوكين بالاماكن القريبة من مقر المدير ، ومئة وثمانين نفراً في صحن التربة المطهرة ، ومقدار مناسب في أماكن مختارة داخل السوق ، بصورة سريعة للغاية ، وفي وقت الشفق ، في اليوم المذكور ، وبتكامل حضور المدعوين المذكورين للمجلس ، وبموجب الاشارة المعطاة بعد المساء ، جلبت العساكر خفية الى مقر المدير ، وحينذاك نهض آمر

اللواء المشار اليه مخاطبا رؤساء الاشقياء بقوله : ان ظلمكم وتعديكم ، وسوء أدبكم اللامحدود ، والمنافي ــ بأي وجه من الوجوه ــ لشأن الحكومة العالي ، ولعلماء الدين ، جعل جميع الناس هنا في حالة اضطراب وهلع ، ولم تثمر معكــم ــ لحــد الآن ــ وســائل التأمين والتلطيف ، والتهديد والتخويف . ازددتم ــ مع الايام ــ فساداً وماعنة ، ولاجل اجراء محاكمتكم شرعا وقانونا مع المظلومين المطالبين بحقوقهم منكم ، فأني مأمور بأحضاركم أمام المستر باشا ( الوالي ) .

وحينذاك نهض ثمانية(٦٢) رجال مسلحون من الرؤساء ، احدهم يحمل قامة والآخرين بشتو ، وهجموا على الآمر الموما اليه ، ولكن حراسه تمكنوا من مسكهم من الخلف ، وحالوا دون الحاق أي ضرر بــه . اما الاخرون فقد نهضوا جملة واعلنوا التمرد ، وأثناء هذه الحالة من العربدة وصلت العساكر السلطانية ، والقت القبض على جميع الانفار الثمانية المذكورين أحياء ، وانزلوا من مقر المدير الى الاسفل من اجل أخذهم الى القشلة .

وأثناء قيام المنادين ( الدلالين ) بأبلاغ الناس بمسك وأخذ المخلين بالامن رؤساء الاشقياء الاشخاص الثمانية سالفي الذكر ، وأنــه سوف يعفى عن جميع تابعي الاشقياء ، وأصحاب القباحة ، وسوف تتخذ الكيفية التي تجعل كل شخص أمينا ومطمئنا ، تجمع حوالي مئة وخمسين مسلح من تابعي وأعوان الرؤساء المذكورين وباشروا فتح النــار على العساكر السلطانية .

عندما اندلعت نيران البنادق من الطــرفين ، ووصلت الى مسامع زمرة الاشقياء الموجودين داخل القصبة ، هجم في آن واحد حوالي الف

وخمس مئة شخص على مقر المدير ، لانقاذ رؤسائهم . وتنفيذ تصميمهم الخبيث على ابادة العساكر السلطانية ٠ وعلى الرغم من الجهد والعناية الفائقة المبذولين ، من أجل مدافعة هؤلاء ، ونقل المقبوض عليهم الى القشلة لحبسهم ، فقد بات من غير الممكن السيطرة على المحبوسين المذكورين ، وضبطهم في هذا الجو المضطرب ، لذا اندفعت العساكر السلطانية ـ خصوصا عندما سقط ستة شهداء من بين صفوفها ، بينهم ملازم وجاوش ـ نحو الانفار الثمانية المقبوض عليهم وطعنهم بالحراب ، وهاجمت جميع الاشقياء ، وباشرت بفتح نيران المدفعية على المحلات والبيوت التي تعتبر مراكز لتجمعاتهم ٠ وامتدت المحاربة من وقت عصر اليوم المذكور ، وهي تجري من محل الى محل آخر ، حتى الساعة السابعة مساء ٠ وعلى الرغم من قيام الاشقياء المذكورين بشن ثلاث هجومات على السوق والمرقد الشريف ، لاجل الغارة ، الا انهم لم يستطيعوا تحقيق الظفر ولله الحمد والمنة ٠

أثناء المحاربة جاء رئيس فرقة الزقرت جاسم الحداد الى أمير اللواء المموما اليه معلنا دخالته ، فمنحت فرقة الزقرت المذكورة الرأي والامان من قبل أمير اللواء المموما اليه ٠ وحينذاك لم يجد الاشقياء المرقومون بدأ من القاء سلاحهم ، وطلب العفو والامان ، وأخرجوا جميعا من القلعة ،

وبذلك تم دفع وطرد هؤلاء مع الزقرت ، يعني جميع الاشقياء الذين دخلوا القلعة عنوة وقتذاك ، بشرط اقامتهم في محل مناسب بعد الان ٠ وعلى كل حال فأن تحقيق هذه الموفقية الجليلة التي نفتخر بها ، والتى تعد من الاثار النافعة للسلطان قديم دون أن نتعرض أموال التجار والزوار والمهاجرين ، وسائر عامة الاهالي « اهل عرض » ، وخصوصا

موجودات المرقد الشريف التي تعتبر مطمح نظر الاشقياء ، الى الضياع والتلف والنهب لحد الدرهم والحبة . كما لم يمس بأذى أي فرد من التبعة الاجنبية ، وصنف العامة من الاهالي ، ولم تحدث أية حادثة قد تؤدي الى مداخلات أجنبية .. والشكر لله فقد تم تطهير القصبة الحيدرية المذكورة من لوث وجود الاشقياء بالوجه المطلوب ، وبات كل شخص آمنا على ماله وروحه وعرضه وناموسه ، وعادت الى بيوتهم جميع العوائل التي هاجرت من النجف سابقا . بسبب تعدي ومضرة الاشقياء المرقومين ، والتي قيل انها تقدر بخمس مئة عائلة . وفي هذا الباب فأن كافة أهالي الخطة العراقية مواظبون على التشكر والدعاء بدوام أيام عمر ، واقبال وشوكة حضرة السلطان . ولاطلاع المقام العالي حول كيفية تأديب وتربية الاشقياء المرقومين . والخدمة الرائعة الموافقة للشأن والناموس العسكري متشكرين وممتنين من حالة وحركته ، وعدم تلف ونهب أي مقدار من العالي التي أبديت من قبل امير اللواء الموما اليه ، والتي جعلت الجميع أمتعتهم وممتلكاتهم . واضطرار العساكر السلطانية الى طعن الرؤساء المرقومين بالحراب ، ووفاتهم متأثرين بجروحهم بعد مرور عدة أيام ، بسبب عدم تقبلهم المداواة .. نظمت المضابط المحررة باللغة العربية من قبل مجلس وعلماء ومشايخ النجف ، وشهادة الوفاة الممهورة من قبل الاطباء . واتضح من مآل بعض الرسائل والاوراق التي وقعت في اليد ، بعد قمع حركة الاشقياء المرقومين والتنكيل بهم ، ان فريقا من العصاة والمفسدين من عربان وعشائر الخطة العراقية كانوا وراء هذه القضية التي كادت أن تؤدي الى حدوث غائلة عظيمة معاذ الله تعالى ، لذا فأن تأديب الاشقياء المرقومين وتدميرهم بهذه الصورة جعلهم عبرة للجميع .

ويتواجد الان كل شخص بمكانه ، منشغلا بعمله وكسبه في عل حالة أمن وانضباط كاملة .

وختاما ينبغي التأكيد على ان الباعث لتقديم عريضة عبدكم هو مجرد عرض وبيان الكيفية .. وفي هذا الباب وبكل حال فأن الامر لأولي الامر .

١٩ رجب ١٢٧٠هـ / ١٧ نيسان ١٨٥٤

ختم

مشير جيش العراق والحجاز

ووالي ايالة بغداد

محمد رشيد باشا

## الوثيقة الثامنة(٦٣)

معروض عبدكم

هو ان واديا شيخ عشيرة زبيد افسد واضل العشائر والقبائل كافة الساكنة في الخطة العراقية ، وعمد كذلك الى ارسال عدد من الرسائل والاشخاص الى عشيرة الدليم ، فأثار نخوتهم وشوش اذهانهم ولما كان هؤلاء الناس مستعدين للفساد تصادف قيام فتح‌الله بك مدير الدليم بالقاء القبض على بعض الافراد من العشيرة المذكورة واودعهم الحبس بناءا على وقوع جنحتهم . وقد اتخذت هذه الحادثة وسيلة لاظهار الفساد علنا ، فتمردت العشيرة المذكورة وهاجمت قلعة الرمادي التي يقيم فيها المدير الموما اليه ، وبعد مقتل عدة أنفار من الطرفين ، ونظرا لكون الحراس غير كافين لحماية القلعة فقد تمكن المهاجمون من اقتحامها ، وقيامهم مع عساكر

عشـيرة العقيـل بنهب أموال وممتلكات المـدير واستولوا على مدفعين والقوهما في نهر الفرات ، كما تجاسروا واغاروا على ستة مراكب محملة بالدقيق والشعير كانت مرسلة الى الجيش السلطاني المرابط بالحلة .

كما معروض في عريضتي الاخرى المفصلة فقد تم تشتيت جمعيـة وادي المضرة الباغية التي اغترت بحركاتها الافسادية ، وقدمت عائلتـه الى بغداد لاجل الدخالة ، وعندما علمـوا بذلك دب الفتـور في نفوسـهم فندموا على ما قاموا به من حركات فانطفأت نار فسادهم وبحوله تعـالى فقد تم اتخاذ التدابير والاجراءات اللازمة لتأمينهم وتهدئتهم لحين ازالة اثار تمرد الشقي المذكور ، ومن ثم اتخاذ ما يلزم من اجراءات رادعة فيما بعد .. وبالطافه تعالى عند علم المقام العالي للوكالة الموقرة فان الامـر والفرمان في هذا الموضوع وفي كل حال لحضرة من له الامر .

١٣ شعبان ١٢٦٨هـ

مشير جيش العراق والحجاز

ووالي ايالة بغداد

محمد نامق

١ ـ تنظر بحوث المؤلف التالية : الوعي القومي العربي في العراق خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مجلة كلية الفقه ، العدد الثاني لسنة ١٩٨٤ · مواقف قومية في الادب النجفي الحديث ، العدد الثالث لسنة ١٩٨٨ ، مدرسة النجف أدوارها العلمية وأطوارها الفكرية ( ضمن بحوث المؤتمر العلمي الثالث في كلية الفقه لعام ١٩٨٨ ) ·

٢ ـ د· مهدي جواد حبيب : الصراع العثماني ـ الفارسي وأثره في العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ضمن كتاب الحدود الشرقية للوطن العربي ، اصدار جمعية المؤرخين والآثاريين العراقيين ( بغداد ١٩٨١ ) الفصل الثالث ·

٣ ـ جعفر باقر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ( النجف ١٩٥٨ ) ج١ ص٣٨٨ وما بعدها · كاظم محمد علي شكر : مكونات عبقرية الاديب النجفي ( صحيفة العدل النجفية ، العدد الاول ، ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ ) ص ٧ ·

٤ ـ جعفر باقر آل محبوبة : المصدر السابق ، ج١ ص٤٠٠ـ٤٠٢ · علي الخاقاني : شعراء الغري ( النجف ١٩٥٤ ) ج٢ ص١١٥ـ١١٧ حسن الاسدي : ثورة النجف على الانكليز ، أو الشرارة الاولى لثورة العشرين ( بغداد ١٧٩٥ ) ص ٤٣ وما بعدها ·

٥ ـ رحلة فريزر الى بغداد في سنة ١٨٣٤ ( ترجمة جعفر خياط ) ، ( ، ) ص ١٧٤ · عبدالرزاق الحسني : تسخير كربلاء ( بيروت ١٩٧٨ ) ص ٤ـ٧ · عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٦ ص ٢٨٧ـ٢٨٨ ·

٦ ـ توفي في شهر رجب من عام ١٢٢٨هـ/تموز ١٨١٣م · وهو جد الاسرة العلمية العربية المعروفة في النجف بـ « ال كاشف الغطاء » ·

٧ ـ كان تدريب الرجـال على استعمال السـلاح واكتساب المهـارة في الرماية ودقة التصويب يجـري في المناطق الخاليـة من السكان في ضواحي النجف قرب مسجد السهلة ·

٨ ـ محمد حسين كاشف الغطاء : العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية ( مخطـوطة مكتبـة كاشـف الغطاء بالنجف الاشرف ) ج١ ورقة ٥٤ ـ ٥٥ · وانظر أيضا : محسن الامين العاملي : اعيان الشيعة (دمشق ١٩٤٠) ج ١٥ ص ٤١٨ · علي الخاقاني : شعراء الغري ج٢ ص ١١١ـ١١٧ ·

٩ ـ عندما وصل عبدالله بن سعود الى النجف وجدها مسورة ومستعدة للتصدي والدفاع ، فبـات ليلة قرب أسوارها على أمل مهاجمتهـا اقتحامها فجرا · وكان الشيخ جعفر قد امر باحكام غلق أبواب المدينة ، ثم وضع احجارا كبيرة خلف الابواب منعا لمحاولات دفعها أو قلعها ، وعين لحراسة كل باب عددا من المقاتلين المسلحين ، وأحاط باقي المقاتلين بسور المدينة من الداخل · وكان ما بين كل أربعين أو خمسين ذراع من السور حجرة تسمى « قولة » ، وكان قد وظف في كل « قولة » مجموعة من المقاتلين المسلحين · وكان جميع من في المدينة من المقاتلين لا يزيدون على مئتي مقاتل ، لان أغلب الناس خرجوا منها ، واستجاروا بالعشائر العربية المجاورة ، لما أصابهم من الرعب والهلع من سيرة الوهابيين · ولم يبق مع الشيخ جعفر الا الصفوة من علماء الدين كالمشايخ حسين نجف ،

خضر شلال ، مهدي ملا كتاب ، السيد جواد العاملي ، وطليعة من عامة الاهالي .

ومما يجدر ذكره ان الشيخ جعفر كان قد حفر في داره الكبيرة سردابا ينزل في عمق الارض مقدار أربعين درجا ، ويتصل بطرق وقنوات ومداخل سرية لاخفاء عائلته عند الضرورة ، وكذلك فعل أغلب أهالي النجف . ويبدو ان القائد الوهابي وجد من المتعذر اقتحام المدينة ، او أن ذلك سيكلفه غاليا ، فرفع الحصار ، وانسحب باتجاه كربلاء التي تمكن من اقتحامها ، وفعل ما فعل بأهلها وممتلكاتها وعتباتها المقدسة .

انظر :- محمد حسين كاشف الغطاء : العقبات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٥٥ وما بعدها .

جعفر باقر آل محبوبة : ماضي النجف وحاضرها ج١ ص٢١٩ وما بعدها .

محمد حرزالدين : معارف الرجال في تراجم العلماء والادباء ( النجف ١٩٦٥ ) ج٢ ص٩٢ .

كاظم محمد علي شكر : الاصالة والتطور في المفاهيم الثورية والوطنية والقومية في العقلية النجفية ( مقال منشور في صحيفة العدل النجفية ، العدد : ١١ ، في الاول من شباط ١٩٧٥ ، ص ٤ ) .

١٠- كاظم محمد علي شكر : الاصالة والتطور ، المصدر السابق ، العدد : ١٣ في ١٥ شباط سنة ١٩٧٥ ، ص ٥ .

١١- د. مهدي جواد حبيب البستاني : الوعي القومي العربي في العراق

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مجلة تحلية الفقه ، العدد الثاني لسنة ١٩٨٣ – ١٩٨٤ ، ص ٦٦٥ وما بعدها ٠

١٢ـ رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء ( بيروت ١٩٦٣ ؛ ص ٢٨٩ـ٢٩٠ ٠

محمد حرز الدين : معارف الرجال ( النجف ١٩٦٤ ) ج١ ص٨٣ ٠

كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ٠

٤ ـ السادن أو ( الكليتدار ) : هو الشخص المكلف بخدمة وتنظيم شؤون الحضرة الحيدرية المطهرة ٠ والسدانة من المناصب الرفيعة والوظائف الشريفة ، تعقدها الحكومة لأحد علماء النجف وأشرافها بموجب بيورلدي يصدر من والي بغداد بموافقة السلطان ٠ وهي شبه حكومة وراثية مطلقة ، خاصة عندما يكون السادن علويا فيجمع بين منصبي السدانة ونقابة العلويين ٠ في حين تقتصر سلطة السادن على الشؤون الخاصة بالحرم الشريف حينما يتقلد النقابة أحد العلويين فيكون هو الحاكم الفعلي في البلد ٠ وبمرور الزمن ضعف منصب النقابة حتى آل الى وسام فخري تمنحه الحكومة لشريف من السادات دون سلطة أو زعامة ٠ ومن أشهر الاسر التي تولت السدانة في النجف منذ القرن السابع الهجري : آل شهريار والملالي وآل الرفيعي ٠ وفي عهد المماليك (١٧٥٠ ـ ١٨٣١) تولى بعض السدنة حكومة النجف بدرجة متولي أو مدير القصبة ، ففي سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩م قلد داود باشا ملا محمد طاهر بن ملا محمود بن الملا عبدالله ـ صاحب الحاشية في المنطق ـ بن حسين اليزدي ، وبعد مقتل ملا محمد طاهر سنة ١٢٢٢هـ صار ابنه

سليمان نقيب حرم الامام علي (ع) وخازنه ورئيس السدنة ، وقد خولته السلطات التركية حكومة النجف ، فأخذ يثير المنازعات بين القبائل النجفية وانحاز الى فرقة الشمرت واضطهد الزكرت فقتله أحد رؤسائهم المدعو عباس الحداد سنة ١٢٢٨هـ في الصحن الغروي بالقرب من تكية البكتاشية . وتولى ملا يوسف بن ملا سليمان نقابة الحرم والسدانة أيضا ، وتم عزله سنة ١٢٥٥هـ بعد ارتكابه لمزيد من الاعمال الوحشية والتعسفية بحق مواطني النجف وخاصة من فرقة الزكرت ، فأوجب ذلك سخط العلماء وطلبة العلم والمتدينين والمعارضين ، فأوعز الشيخ محمد علي جعفر كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٦٢٨هـ بأن يكتبوا مضابطا في فساد الملا يوسف في النجف ، وارسالها الى والي بغداد حتى تم عزله وتفويض الشيخ محمد كاشف الغطاء رئاسة السدنة ومفاتيح خزانة الحرم الغروي . وجعل كاشف الغطاء نائبه السيد رضا الرفيعي . وبعد ان باءت جميع محاولات ملا يوسف باستعادة مكانته بالفشل عاد الى النجف ودخل مجلس الشيخ محمد معلنا ندمه وتوبته فرد عليه الشيخ مفاتيح الحرم مجردا عن كل سلطة . ولكن الاهالي رفضوا عودته وهاجموا قصره بهدف قتله ، فهرب الى كربلاء ومات هناك سنة ١٢٧٠هـ ، وتولى ابنه ملا محمود رئاسة السدانة والخازنية مدة ستة أشهر ثم عزل . وهكذا تولى الملالي نقابة الحرم في النجف حدود القرنين ونصف وكان أول نقيب لهم هو جدهم ملا عبدالله اليزدي صاحب الحاشية في المنطق ، وقد أتى بـه الشاه الصفوي عباس الاول من ايران الى العراق ليتولى نقابة الحرم المقدس وسلمه

المفاتيح والخزانة ، ولما فتح السلطان العثماني مراد الرابع العراق وزار النجف أقر ملا عبدالله على ولايته للحرم ، وبقيت نقابة الحرم الغروي بأيدي أولاده وأحفاده الى زمن ملا يوسف • وعن أصل الملالي قيل نهم من « آل بويه » وقيل من عنزه – الروله سكن أحد أجدادهم في ايران – ثم تولى السدانة بعد الملالي آل الرفيعي الى يومنا هذا • محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٢ ص ٤–٧ • ج٣ ص ٢٧٩–٣٠٥ •

٥ – علي الخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١٦١–١١٧ • كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق •

٦ – محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٧–٣٠٥ •

٧ – ارشيف رئاسة الوزراء في اسطنبول : ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٥٦٥٣ ، لف ٤ ، ( من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٢٩ رجب ١٢٦٨هـ/٢٢ مايس ١٨٥٢م ) •

٨ – كان عميد الاسرة في بيت الشيخ كاشف الغطاء يشتري لطلبته ومقلديه عدة كاملة من السلاح ، توضع في مكان أمين تحت الارض في الدار الكبيرة مع البنادق والرصاص والبارود ، وتوزع عليهم عند الحاجة لاستعمال السلاح • العتبات العنبرية ج١ ورقة ٦٦ •

١٨– محسن الامين العاملي : اعيان الشيعة ، ج١٥ ص٤٢٥–٤٢٦ •

١٩– الزقر : هو الصقر • وفي اللهجة العامية الدارجة اذا قال الرجل أنا « زقرتي » يعني خفيف المؤونة لا عدة لي ولا عيال • ويحتمل ان هؤلاء كانوا بدء أمرهم كذلك لا سلاح لهم ولا عدة • ومن الامثال

الشعبية الدارجة : « أنا زكرتي ما لحكتني غير تفكتي » • أي « أنا لا أملك غير سلاحي » • انظر : ماضي النجف وحاضرها ، ج ١ ص ٣٣١ ، حاشية ٢ •

٢٠ـ محمد حسين كاشف الغطاء : العقبات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٩٤ •
علي الخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١١٧ •

٢١ـ محسن الامين العاملي : المصدر السابق ، ج١٥ ص٤٢٦ •

٢٢ـ ينتمي السيد محمود أحمد الرحباوي الى اسرة علوية تعرف بـ « بيت أغا جمال » ، هاجرت من ايران الى النجف طلبا للعلم ، ولهذه الاسرة دور كثيرة في النجف منها الدار المعروفة بـ « دار الايرواني » الواقعة في محلة العمارة مع الدور التي حولها • وكان السيد محمود ذا ثروة كبيرة ، فأخبره بدوي ان في الرحبة عين ماء انهال عليها الرمل فطمرها ، وهي عين غزيرة تكون عليها مزارع كثيرة ، ورغبه في الصرف عليها واستغلالها ، فبذل السيد المذكور وتدفقت العين ماء عذبا ، وبنى عليها قصرا كبيرا ، وسكن فيه ١١٩١هـ/١٧٧٧م ، وبعد زمن أصبحت الرحبة كبغداد لكثرة ما فيها من البساتين المملوءة بأشجار الفواكه من عنب ورمان ، وتين وغير ذلك من البقول والخضر : كالبطيخ والرقي ، ومن الحبوب : الحنطة والشعير والارز ، وصارت تمون النجف والمناطق المجاورة بالمحاصيل كافة •
أنظر : العبقات العنبرية ، ج ١ ورقة ٦٤ • محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص٢٩٩ـ٣٠٠ •
حسن الاسدي : ثورة النجف ، ص٤٥ •

٢٣ـ الرحبة : قرية بحذاء القادسية على مرحلة من الكوفة على يسار الحجاج اذا أرادوا مكة ، تقع على ضفة البرنيس بعدها عمارة ٠
ياقوت الحموي : معجظ البلدان ، ( بيروت ١٩٧٥ ) ج٣ ص٣٣ ٠
٢٤ـ الصناكر : هي الاماكن العالية من المآذن والدور المرتفعة ٠
٢٥ـ العبقات العتبرية ، ج١ ، ورقة ٦٤ـ٦٦ ٠ حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص٤٤ـ٤٥ ٠ محسن الامين العاملي : المصدر السابق ، ج١٥ ص٤٦٢ـ٤٢٨ ٠
علي الخاقاني : شعراء الغري : ج٢ ص١١ ٠
٦٢ـ محمد بن ونس الشويهي : براهين العقول في كشف أسرار تهذيب الاصول ، ميزان العقول ٠
أحمد زوين : المسالك ج١ ٠ خضر شلال : التحفة الغروية ٠
علي الخرقاني : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٠ـ١٢٢ ٠
(٢٧) محمد حسين كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ورقة ٦٦ـ٦٧ ٠
ماضي النجف وحاضرها ، ج١ ص٣٣٢ـ٣٣٣ ٠
علي لخاقاني : شعراء الغري ، ج٢ ص١٢٠ ٠ حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص٤٦ ٠
(٢٨) رسول حاوي : دوحة الوزراء ، ص٢٨٨ـ٢٨٩ ٠
د٠ مهدي البستاني : الوعي القومي العربي ، ص٦٦٥ـ٦٦٧ ٠
(٢٩) وهو جد عشيرة « الحداحدة » المعروفة في النجف والكوفة ، وكان يتولى سدانة الروضة الحيدرية المطهرة ، ومتولية قصبة النجف ٠
انظر ق كاظم محمد علي شكر : قبيلة الفضول اللامية وتفرعاتها العشائرية ( النجف ١٩٧٥ ) ص١٥٩ـ١٦٠ ٠

(٣٠) كان علي بن دبيس بن شكر بن حمود « محمد » بن علي « الاحسائي » آل يوسف حديد بن عروج من ابرز رجال الزقرت ، ذاع صيته في الآفاق ، وأصبح من أقوى خصوم الدولة العثمانية في منطقته . انظر : كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ، ص ١٥٨ـ١٦٠ .

(٣١) رسول حاوي : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

محمد حسين كاشف الغطاء : العبقات العنبرية ، ج١ ، ورقة ٦٤ - ٦٧ .

محمد حرزالدين : المصدر السابق ، ج٣ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣٢) رسول حاوي : المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ . عثمان بن سند البصري : مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود ، اختصار حسن بن أمين خلواني المدني ، ( بومباي ١٣٠٤هـ ) ص٥٠ـ٥١ .

عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين ( بغداد ١٩٥٤ ) ج ٦ ، ص ٢٥٩ .

جعفر باقر آل محبوبة : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٤ - ٣٣٨ .

كاظم محمد علي شكر : المصدر السابق ، ص ١٦٠ـ١٦٨ .

(٣٣) ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) الوثيقة السابقة .

محمد حسين كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٢٣ .

(٣٤) كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٣ـ١٢٤ .

(٣٥) ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : نفس الوثيقة السابقة .

٣٦ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٥٩٨٢ ، لف ٢ ، ( من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة

بغداد محمد نامق باشا الى وكيل الداخلية ، ٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ/ ٢٥ آب ١٨٥٢م ) .

٣٧ـ نفس **الوثيقة** .

٣٨ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٤ .

٣٩ـ وهي دار كبيرة تقع في محلة العمارة ، تحتوي على مكتبة عامرة بالكتب والرسائل المطبوعة والمخطوطة . ومن الجدير بالذكر ان والي بغداد الاسبق نجيب باشا (١٨٤٢ - ١٨٤٨) أقام بهذه الدار ثلاثة أيام بضيافة الشيخ حسن بن جعفر كاشف الغطاء ، وذلك عند مروره بالنجف بعد قمعه انتفاضة كربلاء سنة ١٨٤٣ .

كاشف الغطاء : العبقات العنبرية ، ج٢ ورقة ٧٥ - ٧٧ ، ١٢٤ .

٤٠ـ نفس المصدر ، ج٢ ورقة ١٢٤ - ١٢٥ .

٤١ـ الوثيقة السابقة .

٤٢ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٥ .

٤٣ـ الوثيقة السابقة .

٤٤ـ كاشف الغطاء : المصدر السابق ، ج٢ ورقة ١٢٥ .

٤٥ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٩١٥٧ ، لف ٢ عسكرية ، ( من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد محمد رشيد باشا الى الصدارة ، ١٩ رجب ١٢٧٠هـ/١٧ نيسان ١٨٥٤م ) .

٤٦ـ للاطلاع على تفصيلات طبيعة أرض النجف ، وكيفية قيام النجفيين بحفر السراديب والآبار ، انظر : عبدالمحسن شلاش : آبار النجف ومجاريها ( النجف ١٩٤٧ ) ص ٥ وما بعدها .

حسن الاسدي : ثورة النجف على الانكليز . ص١٦ وما بعدها .

٤٧ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : رقم الوثيقة ١٩١٥٧ لف ٤ ، ٦ ( عسكرية ) .

٤٨ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٩١٥٧ .

٤٩ـ عبدالرزاق الحسني : ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال ( صيدا ١٩٧٢ ) ص ٣ وما بعدها . حسن الاسدي : المصدر السابق ، ص ٥ وما بعدها .

كاظم شكر : الاصالة والتطور ، صحيفة العدل النجفية ، العدد : ١٠ ، ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص٤ . العدد : ١١ ، الاول من شباط ١٩٧٥ ، ص٤ .

ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : ارادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٥٦٥٣ ، لف ٤ ( من مشير فيلق الحجاز والعراء ووالي ايالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٢٩ رجب ١٢٦٨هـ / ٢٢ مايس ١٨٥٢م ) .

٥١ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) رقم الوثيقة ١٥٩٨٢ ، لف ٢ ، ( من مشير فيلق الحجاز والعراق ووالي أيالة بغداد محمد نامق باشا الى الصدارة ، ٩ ذي القعدة ١٢٦٨هـ / ٢٥ آب ١٨٢٥م ) .

٥٢ـ ارشيف رئاسة الوزراء ( اسطنبول ) : ارادة / داخلية ، رقم : ١٩١٥٧ ، لف ٦ ( عسكرية ) .

٥٣ـ ارشيف رئاسة الوزراء التركي : ارادة / داخلية رقم : ١٩١٥٧ لف ٤ ( عسكرية ) .

٥٤ـ الارشـيف التركي : ارادة / داخليـة ، رقم : ١٩١٧٥ ، لف د ( عسكرية ) .

٥٥ـ ارشيف رئاسة الوزراء التركي : تصنيف الارادة / داخلية رقـم ١٩١٥٧ ، لف ٣ ( عسكرية ) .

٥٦ـ الصواب « فيخراني » وليس « فخراني » .

٥٧ـ كذلك .

٥٨ـ الصواب « سعد » وليس « سعيد » .

٥٩ـ الصواب « الحجي » وليس « المساجد » .

٦٠ـ الصواب « وهب » وليس « الوهاب » .

٦١ـ ارشيف رئاسة أوزراء ( اسطنبول ) ارادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٩١٥٧ ، لف ٢ ( عسكرية ) .

٦٢ـ تضمنت الوثائق السابقة أسماء سبعة منهم فقط .

٦٣ـ ارشيف الباب العالي : ارادة / داخلية رقم ١٥٦٧٣ ( داخلية ، لف ٣ ) ( من مشير جيش الحجاز والعراق ووالي ايالة بغداد نامق باشـا الى وكالة الداخليـة ، ١٣ شـعبان ١٢٦٨هـ / ٢ حزيران ١٨٥٢م ) .

# مفهـوم العصبية القبلية
# عند ابـن خلـــدون

اعـــداد الدكتــور
حبيب عبـدالقادر الشاوي
الجامعة المستنصرية ـ معهد الدراسات القومية والاشتراكية

## المقدمـــة :ـ

لقد اكدت اغلب الدراسات التي تناولت فكر ابن خلدون على اصالة وعمق هذا الفكر ، وما وصل اليه من نتائج باهرة ، تستحق التأمل والبحث، ثم الاشادة به كمفكر ابدع في الكثير من ارائه التى تـطرق اليها في شــتى ميادين الحياة من خلال ماورد في مقدمته المعروفة من مفاهيم ونظـريات في مجال الاجتماع والاقتصاد والسياسة والقوانين المنظمة لها ٠

فدراسة الفكر الخلدوني في اطار تحديد مفاهيمه ونظرياته حــول الكثير من الظـواهر الاجتماعية انما يـؤدى الى تقييـم مثل هـذه المفاهيم والنظريات بالاتجاه العلمي الصحيح ٠ فأبن خلدون حاول من خلال ظروف تجربته الحياتية التى عاشها في واقع معين ان يعطي تصورات ذات ابعـــاد خاصة للتاريخ العربي الاسلامي والعصور التى تعاقبت عليه ٠ وكجزء من هذه التصورات فقد ابتدع نظرية العصبية التى ورد ذكرها بشكل مفصـل في مقدمته فأعتبرت من اهم النظريات التى وضعها . ونستطيع القول بأنها اصبحت المحور الذى تدور حوله معظم المباحث الاجتماعية ، حيث نجد ان العصبية في تفسير ابن خلدون ليست مجرد رابطة سايكولوجية اجتماعية انما تتحول باستمرار الى قوة للمواجهة والمطالبة ومـن ثم تأسـيس الملك

والدولة ، وبالتالي تضعف وتتلاشى بمجرد بلوغ غايتها ، وبعد أن تسقط الدولة بفساد عصبيتها تقوم عصبية جديدة لتأسيس دولة جديدة وهكذا ٠

ان محاولتنا للبحث في نظرية العصبية جاء من منطلق اهمية الموضوع بالنسبة لما توصل اليه أبن خلدون من تعليلات مهمة حول هذه النظرية وربط هذه التعليلات بحقبة طويلة من التاريخ العربي الاسلامي ٠ وعلى هذا الاساس فقد تضمن البحث المحاور الآتية :ـ

**المقدمـــة :**

١ ٠ منطلق الرابطة العصبية :

١ ــ ١ ــ ما المقصود بمصطلح العصبية ٠

٢ ــ ١ ــ الاساس الذى تقوم عليه العصبية القبلية ٠

٣ ــ ١ ــ غاية العصبية القبلية ٠

٢ ٠ فاعلية العصبية القبلية :

١ ــ ٢ ــ علاقة العصبية بالدولة ٠

٢ ــ ٢ ــ علاقة العصبية بالدين ٠

**الخلاصـــة :**

تلك هى خطوات البحث التى نأمل ان تسهم على نحوما في القاء الضوء على مفهوم العصبية بالشكل المطلوب ٠

**١ ــ منطلق الرابطة العصبية ٠**

**١ ــ ١ ــ ماالمقصود بمصطلح العصبية ٠**

ان كلمة العصبية من المصطلحات التى كانت شائعة خاصة بعد ظهور الدين الاسلامي ، فهى اذن ليست من المصطلحات التى استخدمها ابن

خلدون في كتاباته لاول مرة ، ومما يؤكد على ذلك :

« ان اللغة العربية تسمي ذوي القربى باسم ( العصبة ) وهذه الكلمة تمت بصلة الاشتقاق الى كلمة ( العصب ) بمعنى الشد والربط وكلمة ( العصابة ) بمعنى الرابطة « كما انها تسمي الخصال والافعال الناجمة عن ذلك ـ من تعاضد وتشجيع ـ باسم العصبية »(١) فالعصبة تعني بذلك الجماعة . وهذه الجماعة تتكون بالضبط من اقارب الشخص الذين يرتبطون به وان جميع هؤلاء الاقارب ليسوا بالضرورة عصبة له ، بل هم الذين يرتبطون به فعلا . ونفهم من هذا ان شرطا القرابة والارتباط يعدان ضروريان الى وجود العصبة ، حيث ان هذين العنصرين يميزانها من غيرها من الجماعات الاخرى . فالعصبة بهذا الاعتبار جماعة دائمة .

فهي اذن تعد من الجماعات المؤقتة التي تتكون بشكل تلقائي وليست من الجماعات ( التعاقدية ) التي تقوم على اساس وجود اتفاق بين اعضائها، ووفق نظام خاص ، لغرض تحقيق احد الاهداف المطلوبة التي تبتغيها هذه الجماعة ، والتي قد تنفرط بعد تحقيق هدفها المطلوب ، أو لاى سبب آخر .(٢)

والتعصب لغة ، يعني كما ذكرنا التجمع ، ويعني هنا التجمع ( المعنوى ) وليس التجمع ( الحسي ) . أي شعور الفرد بأنه جزء لايتجزأ

---

(١) ـ ابو خلدون ساطع الحصري ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ ط ٣ ـ ١٩٦٧ـص٣٣٤ .

(٢) د. محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ـ دار الشؤون الثقافية ( آفاق عربية ) ـ بغداد ص٢٥٣ .

من العصبة التى ينتمي اليها(٣)٠ وان هذا الشعور العصبي يظهر بشكل جلي وواضح عندما يتعرض وجود العصبة الى الخطر الخارجي لينال من كيانها المادي والمعنوى ، وبذلك يصبح هذا الشعور فاعلا ومؤثرا ٠

فمثل هذا ( الوعي العصبي ) الذى يشد افراد العصبة الواحدة بعضهم الى بعض ويجعل منهم كيانا واحدا تذوب فيه جميع كيانات الافراد ماهو الا العصبية القبلية بذاتها ٠

فالعصبية هنا ( رابطة اجتماعية - سيكولوجية ، شعورية ولاشعورية معا ، تربط افراد جماعة ما ، قائمة على القرابة ، ربطا مستمرا يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر دهدد اولئك الافراد ، كافراد او كجماعة(٤)٠

وفي هذا المعنى ورد في لسان العرب أن العصبية هى ( أن يدعو الرجل الى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوؤهم ، ظالمين كانوا أو مظلومين (٥)٠

العصبية كانت قد استقرت في أذهان الجميع بعد ظهور الاسلام على اساس انها دعوة ونصرة لغرض التفرقة والتنازع والاعتداد بالانساب وتقوم على مناصرة فريق ضد فريق آخر في حالة النزاع والخصام الحاصل بينهما ، وهذا بدوره يؤدى الى أثارة الفتنة واشعال فتيل الحرب بين القبائل ٠ بينما يقابل ذلك كله في مبادىء الدين الاسلامي الدعوة الى الوحدة والتأخي والتآلف ونكران الذات ٠

---

(٣) نفس المصدر - ص٢٥٣ ٠
(٤) نفس المصدر - ص٢٥٤ ٠
(٥) نفس المصدر - ص٢٥١

فجميع التفاسير المختلفة لمصطلح ( العصبية ) لايمكن أن تكون كافية بطريقة ما للاعتراف بها عن طريق الاقناع ، فنجد هناك الكثير من وجهات النظر الجوهرية في هذا المعنى الا أنها تنتهي الى تفسيرات ثلاثة اساسية لمصطلح العصبية : وجهة نظر تؤكد على اساس كون العصبية مفهوما اجتماعيا ، يدل على ( الروح الطبقي ) و ( التضامن ) و ( التكامل الاجتماعي ) كما أوضح ذلك ( دى سلان ، وبوتول ، وعيساوى ) . ويؤيد وجهة النظر هذه كل من كامل عباد ، ومحمد عبدالله عنان و أ . روزينتال وهم الذين بحثوا في العصبية على اساس انها ( قوة حيوية ) ،

اما أ. كريمر ، ور . مونييه وف سيكاس ، وطه حسين فيفسرون العصبية بانها ( القومية ) و ( الاحساس العنصرى ) الذى يحدد النشاط السياسي للناس ، وكذلك تاريخ الشعوب . وقد وضح ف . جابر بيلى الحل الوسط لتفسير معنى العصبية بانها قوة روحية منظورة عن ( روح القبلية ) ، لكنها عاجزة عن أن تتحول الى « شعور قومي » ، لان شعوب الشرق ( بخصائصها التى لاتقهر ) غير قادرة على هذا الاحساس(٦) . الا ان موقف ابن خلدون من ذلك يعطي اساسا المفهوم الصحيح لمضمون مصطلح ( العصبية ) فجوهرها واشكالها ظاهرة تتضح عنده في العديد من فصول مقدمته : فهى اذن تتلخص بما يلي :ــ

١ ــ العصبية هى صلة الدم ، وهى بذلك تكون وراثية في المراحل الاخيرة من وجودها .

---

(٦) دكتورة سفيتلانا باتسيينا ــ العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون ــ ترجمه عن الروسية رضوان ابراهيم ــ الدار العربية للكتاب ــ ليبيا ــ تونس ــ ١٩٧٨ ــ ص ٢٤٤ــ٢٤٥ .

٢ ـ العصبية خاصة للمجتمع البدوى فحسب ، تحفظ نظام صلة الدم، وتحكم شكل علاقات القرابة الناشئة عن التنظيم الاجتماعي البدوى، والمجتمع الحضرى ( المتمدن ) ٠

٣ ـ العصبية اساس التنظيم السياسي للمجتمع البدوى ، واساس النفوذ السياسي لزعماء القبائل وشيوخها ، والسلطة المحددة التي تتحقق كاملة في انسابهم ٠

٤ ـ واصطلاح ( العصبية ) يستعمل لبيان كيفية الارتباط داخل العشيرة والقبيلة ، وكذلك مجموعات الاقرباء الذين في نفس الدرجة تماما(٧) ٠

فأبن خلدون بهذا الاتجاه يتخذ من رابطة العصبية كونها موضوعا لدراسة شاملة وعميقة يستعرض اشكالها وصورها المختلفة ويتتبع الادوار التى في حياة المجتمعات بوجه عام ٠ وفي حياة الدول بوجه خاص ٠ فهى تعني لديه اساسا القوة الجماعية التى تمنح القدرة على المواجهة سواء كانت هذه المواجهة مطالبة بشيء أو دفاعا عن شيء ٠

### ٢ ـ ١ ـ الاساس الذى تقوم عليه العصبية القبلية :

ان ابن خلدون تكلم اول ماتكلم ، عن العصبية وهذا يتضح عنده في العديد من فصول مقدمته ٠ فهو يقدر ( ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ماقي معناه ، وذلك لان صلة الرحم طبيعي في البشر الا في الاقل ٠ ومن صلتها النصرة على ذوى القربى واهل الارحام ان ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكه ، فأن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه

---

(٧) ـ نفس المصدر ـ ص ٢٤٨ـ٢٤٩ ٠

أو العداء عليه ، ويود لو يحول بينه وبين مايصله من المعاطب والمهالك : نزعه طبيعية في البشر منذ كانوا(٨) » فمثل هذا القول يكشف لنا بوضوح عن رأى ابن خلدون في مصدر العصبية فالعصبية مما تقدم تتولد وتنشأ ـ من حيث الاساس ـ من القرابة ، وهي تستند في هذا الى وحدة النسب في الدرجة الاولى · الا ان موضوع القرابة والنسب من المواضيع التي تحتاج الى تفسير من وجوه عديدة ، فقوة العصبية المتولدة من القرابة ، نجدها تختلف باختلاف درجة هذه القرابة ، فالالتحام ، الحاصل من وحدة النسب الخاص يكون بطبيعة الحال اقوى من الالتحام الذي يأتي من وحدة النسب العام : ( والنعرة تقع من اهل نسبهم المخصوص ومن اهل النسب العام ، الا انها في النسب الخاص اشد لقرب اللحمة )(٩) ثم ان رابطة النسب لاتنحصر في نطاق القرابة وحدها ، ذلك لان الفرد في المجتمع قد ينفصل عن نسبه الاصلي ، وينضم الى نسب آخر ، لاسباب عديدة ، وبصور شتى اهمها :

(١) ـ القرابة · ـ (٢) ـ الحلف · ـ (٣) ـ الولاء · ـ (٤) الدخالة (١٠) · ( من البين أن بعضا من اهل الانساب الى اهل نسب آخر · بقرابة اليهم ، أو حلف ، أو ولاء ، أو لفرار من قومه بجناية اصابها ، فيدعو بنسب هؤلاء ويعد منهم في ثمرانه

(٨) مقدمة ابن خلدون ـ بتحقيق المستشرق الفرنسي أ·م كاترمير ـ عن طبعة باريس سنة ١٩٥٨ ـ الجزء الاول ـ المجلد الاول ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٧٠ ص٢٣٥ ·

(٩) د· محمد عابد الجابري اخذت من مقدمة ابن خلدون ص٤٢٨ ـ ج٢ ·

(١٠) ـ ابو خلدون ساطع الحصري ـ نفس المصدر ـ ص٣٣٦ ·

من الثغرة والقود وحمل الديات وسائر الاحوال ) (١١)٠ وبهذا نجد بأن ابن خلدون لايكتفي بسرد هذه الاراء بصورة اختيارية ، بل انه يسعى الى ايجاد التفسير والتعليل العلمي لها ٠ حيث نلاحظ بانه قد توسع من ناحية المفهوم الخاص بالنسب من معناه الضيق الدارج الى حاله ان يدخل في اطار هذا النسب جميع الروابط التي قد تنشأ بين الافراد من خلال طول واستمرار المعاشرة بينهم ٠

لذلك ، نرى ابن خلدون يقول في عنوان احد الفصول ( ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب أو مافي معناه ) (١٢)٠ كما يوضح في الفصل المذكور بأن ، ( اللحمة الحاصلة من الولاء ، مثل لحمة النسب ، او قريبا منها )(١٣)٠ فهو بهذا لايربط العصبية بالنسب بشكل مطلق ، اى لايجعل العصبية بالنسب بشكل مطلق ، أى لايجعل العصبية ملازمة للقرابة ذات، الصلة بالدم بشكل مباشر ، فيرى ان العصبية هي نتيجة مايسميه ب ( ثمرة النسب ) وليست نتيجة للنسب نفسه (١٤)٠ ( واذا وجدت ثمرات النسب فكأنه وجد ) (١٥)٠

وهو يعني هنا بثمرة النسب ، أو فائدته : ( هذا الالتحام الذى يوجب صلة الارحام حتى تقع المناصرة والنعرة )(١٦)٠ وبذلك نجد ابن ابن خلدون لايقيد العصبية بالنسب بل بالالتحام الحاصل بسببه٠ ولايكتفي ابن خلدون بسرد هذه الاراء بل انه يستمر بتوضيحها عندما يقول « ان

(١١) ـ المقدمة ـ ص٢٣٨ ـ جـ١
(١٢) ـ المقدمة ـ ص٢٣٥ ـ جـ١ ٠
(١٣) ـ المقدمة ـ ص٢٣٥ ـ جـ١ ٠
(١٤) ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٩ ٠
(١٥) ـ المقدمة ـ ص٢٣٨ ـ جـ١ ٠
(١٦) ـ المقدمة ـ ص٢٣٦ ـ جـ١ ٠

النسب أمر وهمي ( أي ذهني ومعنوى ) لاحقيقة له » (١٧)٠

والحالة هذه فليست هناك في نظرة ، دماء صافية تنتقل من الخلف الى السلف ، بل ان اختلاط الانساب هو الظاهرة السائدة « ومازالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بأخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم(١٨)٠ وبهذا يتضح ان الاساس الحقيقي والفعلي الذى تقوم عليه العصبية انما هو شيء اخر غير النسب ، الا وهو المصلحة المشتركة الدائمة للجماعة(١٩)٠ وهذا لايعني بالضرورة وجود صله القرابة بالدم ضمن العصبة الواحدة بل انه العلاقة التى تميز جماعة معينة فقط ٠ ومن ذلك ينتج ان تعصب الفرد لعصبته انما يرجع الى تشبعه بعاداتها وتقاليدها ، وبروح الجماعة السائدة فيها.ومن ارتباط مصلحته بمصلحتها ويكون بذلك وجوده من وجودها أي انه ( لامعنى لكونه من هؤلاء أو هؤلاء ألا جريان احكامهم واحوالهم عليه ٠ وكأنما التحم بهم )(٢٠)٠

### ٣ ـ ١ ـ غاية العصبية :

فكما عرفنا ان العصبيه تقوم على اساس النسب الذى يجمع افراد العصبية الواحدة او عصائب القبيله الواحدة ومن اجل المصالح الواحده المشتركة ، نجده يعمل في الوقت نفسه عى اشاعة الفرقه والتناحر بين مصالح العصبات ٠ فالصراع العصبي هنا ، لايعد صراعا قائما بين صلة الدم الواحدة ، ولا كونه يرجع امر مجرد حاله من الاعتداد بالانساب ٠

---

(١٧) ـ المقدمة ـ ص٢٣٦ ـ جـ١ ٠

(١٨) ـ المقدمة ـ ص٢٣٨ ـ ٢٣٩ ـ جـ١ ٠

(١٩) ـ د٠ محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٦٠ ٠

(٢٠) ـ المقدمة ـ ص٢٣٨ ـ جـ١ ٠

بل هو صراع من اجل البقاء والعيش ، وبهذا نجد ان هذه المصالح تعـد بمثابة المحرك لقوة العصبية ، خاصة ونحـن نعلم بأن التفرقة والتوحيـد قائمة باستمرار في المجتمع العصـبي وان ذلك كله يعـود الى جـملة امور ومعطيات تكتنف وتحيط بحياة مجتمع القبيلة او البداوة ، حيث نجد كيف أن ، العصبية تتحول من مجرد رابـطة قبلية معينـة ، الى قوة للمطالبـة والسعي وراء السلطة ، والعمل على تكوين الدولة وتأسيس الملك،فالادوار التي تلعبها العصبية في الحياة الاجتماعيـة كثيـرة ومتنوعة وذات اهمية معينة ويتضح ذلك من ، خلال مايقدمه ابن خلدون من تصور حوله وهـو مستمد من تصوره العام ل ( طبائع العمران )(٢١)٠

حيث نجد بانه يقرر في ذلك ( الملك انما يحصل بالتغلب ، والتغلب انما يكون بالعصبية )(٢٢) ٠ ( أن المطالبات كلهـا والمدافعـات لاتتـم الا بالعصبية )(٢٣) ٠ ( ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك )(٢٤)٠ ثم يقول بأن ( الملك غاية طبيعية للعصبية ، ليس وقوعـه عنهـا باختيار انما هو بضرورة الوجود وترتيبه )(٢٥)٠ فعبارة (ضرورة الوجود وترتيبه) معناه عند ابن خلدون الكيفية التي اجرى الله بها العادة في الكـون(٢٦)٠ فهذه العادة قد استقرت واصبحت من الطبائع التي تلائم المجتمع ولاتفارقه ابدا ، وبذلك اصبح حدوثها من الامور الطبيعية السائدة داخل المجتمعات٠

(٢١) ــ د٠ محمد عابد الجابري ــ نفس المصدر ــ ص٢٧١ ٠
(٢٢ ــ المقدمة ــ ص٢٨٤ ــ جـ١ ٠
(٢٣) ــ المقدمة ــ ص٣٣٨ ــ جـ١٠
(٢٤) ــ المقدمة ــ ص٢٥٣٢ ــ جـ١ ٠
(٢٥) ــ المقدمة ــ ص٣٦٤ ــ جـ١ ٠
(٢٦) ــ د٠ محمد عابد الجابري ــ نفس المصدر ــ ص٢٧٢ ٠

والملاحظ ان قوة العصبية تنزع بطبعها الى الحكم والسيادة ، والتوسع فيها ( وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب مافوقها ، فاذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ، ووجد السبيل الى التغلب والقهر ، لايتركه ٠ لانه مطلوب للنفس ٠ ولايتم اقتدارها عليه الا بالعصبية التى يكون بها متبوعا ٠ فالتغلب الملكي غاية العصبية )(٢٧) ٠ وان ابن خلدون قد شرح جميع هذه الامور والتأثيرات بتفصيل يفي بالغرض المطلوب منها من خلال فصول مختلفة ، وانه قد توسع بشكل خاص في تأثير العصبية في تكوين الدولة التى سنأتي على ذكرها لاحقا وخلاصة القول هنا : ( ان الملك هو غاية العصبية وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للقبيلة الملك ، اما بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب مايسعه الوقت المقارن لذلك ٠ وان اعاقها عن بلوغ الغاية عوائق وقفت في مقامها )(٢٨)٠

فالملك اذن يحصل بهذه الصورة ، حيث يظهر من ذلك كله : أن العصبية ضرورية لتأسيس الملك والدولة ، وأن هذه الضرورة تنحصر في دور التأسيس والتمهيد ٠

**٢ ـ فاعلية العصبية القبلية :ـ**

**١ ـ ٢ ـ علاقة العصبية بالدولة ٠**

أن مفهوم الدولة عند ابن خلدون يرتبط ارتباطا عضويا بمفهوم العصبية لديه ، وعلى هذا الاساس فانه يتوسع بتعليلاته نحو تأثير العصبية في تكوين الدول ، فالدولة كما حددها ابن خلدون هى ( الامتداد

---

(٢٧) ـ المقدمة ـ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣ ـ جـ١ ٠
(٢٨) ـ المقدمة ـ ص ٢٥٤ ـ جـ١ ٠

المكاني والزماني لحكم عصبية ما )(٢٩)٠ وفي محاولتنا للوقوف على تفسير ابن خلدون في نشأة المجتمع والدولة ، نجده وقد كشف لنا على أن الدولة كمنظمة اجتماعية لها خصائص متميزة لاتتوفر في غيرها ٠ ومن ابرز تلك الخصائص ان يكون لها من القدرة والسلطة والسيطرة مالا يملكها غيرها(٣٠)٠ بالاضافة الى ذلك فانه يرى ان الدولة نفسها تتأثر بالظروف الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والدينية المحيطة بالمجتمعات التى تضمها ، ومن ذلك طور البداوة الذى يمد به المجتمع ، وهذا الطور كما نعلم قوامه العصبية ، وهى قوة مادية واخلاقية ، تعمل على تكاتف وتعاضد الافراد ٠ والتى تبتدىء بالقربى والنسب الخاص ، ثم تنتهي بالشعور العام المشترك الذى تنجم عنه روح الجماعة التى هى اساس قوة العصبية(٣١)٠

وفي ذلك يقرر بن اخلدون « ان القبيل الواحد ، وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة٠فلا بد من عصبية اقوىمن جميعها،تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبة واحدة واحدة كبرى(٣٢)٠ ويؤكد ابن خلدون رأيه الاصلي في هذا المجال بقوله « ان الامر منذ اول الدولة لايتم الا لاهل العصبية،فتفطن انت له،وافهم سر الله فيه »(٣٣) ٠

---

(٢٩) ــ د٠ محمد عابد الجابرى ــ نفس المصدر ــ ص٢١٧ ٠
(٣٠) ــ د٠ فاضل زكي محمد ــ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ط ٢ ــ دار الحرية للطباعة ــ بغداد ــ ١٩٧٦ ــ ص٢٩٩ ٠
(٣١) ــ نفس المصدر ــ ص٣٠٠ ٠
(٣٢) ــ المقدمة ــ ص٢٥٣ ــ جـ١ ٠
(٣٣) ــ المقدمة ــ ص٢٨٢ ــ جـ١ ٠

وهذا كله يعني ان العنصر الاساس الذى يمنح الدولة قوة التأثير في المجتمع هو العصبية ، فقوة الدولة تصبح من قوة العصبية • وبكل ماتحمله هذه الكلمة من معاني الالتحام والكثرة في العدد •

هذا وان مدى نفوذ الدولة واتساع حدودها يتوقف على وضع عصبيتها من جهة ، ووضع العصبية في المناطق التي تحت سيطرتها ، او التى تريد بسط نفوذها عليها من جهة ثانية ، فعندما تكون عصبية الدولة ملتحمة وتقوم على كثرة عددية ، ستكون سلطة هذه الدولة ذات نفوذ قوى ويقابل ذلك ان العصبيات المناوئة لها تكون ضعيفة في جميع مستوياتها ، اما اذا حصل العكس فأن نفوذ مثل هذه الدولة سيكون ضعيفا •

ولذلك كان « عظمة الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة فما كان من الدولة العامة قبيلها واهل عصبيتها اكثر ، كانت اقوى واكثر ممالك واوطانا ، وكان ملكها اوسع »(٣٤) •

وعندما يقرر ابن خلدون بأن « كل دولة لها حصة من الممالك والاوطان لاتزيد عليها »(٣٥)• فأن ذلك يرجع الى أن العصبية الغازية لابد وان تجد نفسها في وقت ما ومهما توسع غزوها ومهما وصلت من قوة واقتدار في مستقر لايسمح لها بمتابعة غزواتها ، ذلك لان حيز الدولة كلما اتسع ، تصبح حدود الدولة بحاجة الى حاميات اكثر وبطبيعة الحال فأن مثل هذه الحاميات لايمكن ان تكون الا من رجال الدولة وعصابتها :

ويقول بصدد ذلك : ( أن عصابة الدولة وقومها القائمين بها الممهدين

---

(٣٤) ـ المقدمة ـ ص٢٩٣ ـ جـ١ •
(٣٥) ـ المقدمة ـ ص٢٩١ ـ جـ١ •

لها ، لابد من توزيعهم حصصا على الممالك والثغور فلا بد من نفاذ عددهم ) وتكون الممالك قد بلغت « حينئذ الى حد يكون ثغرا للدولة ، وتخما لوطنها ، ونطاقا لمركز ملكها . فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على مابيدها ، بقى بدون حامية . وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور »(٣٦) .

يتضح من كل ماتقدم ان كل شيء في الدولة يرتبط بالعصبية وحالها والدولة مثل الشخص تمر بنفس الاطوار التى يمر بها « ان الدولة لها اعمار طبيعية كالاشخاص »(٣٧) . اذن والحالة هذه نجد هناك استمرار في الدولة وهذا يعني استمرار في الحضارة والعمران داخل حكم العصبية العامة وان انتقال الحكم من عصبية خاصة الى اخرى مماثلة لايؤثر لافي الحضارة ولا في العمران جملة(٣٨) .

يقول ابن خلدون : « واما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان هرقل أو عبدالملك بن مروان او الرشيد ، فأشخاصها متعاقبة على العمران حافظة لوجوده وبقائه وقريبة الشبه بعضها من بعض . فلا تؤثر كثير اختلال – في العمران – لان الدولة بالحقيقة الفاعلة في مادة العمران انما هى العصبية والشوكة ، وهى مستمرة على اشخاص الدولة »(٣٩) .

وكما يقرر ابن خلدون – من جهة – ان العصبية ضرورية لتأسيس

---

(٣٦) – المقدمة – ص٢٩١ – جـ١ .
(٣٧) – المقدمة – ص٣٠٥ – جـ١ .
(٣٨) – د. محمد عابد الجابرى – نفس المصدر – ص٣٢٥ .
(٣٩) – د. محمد عابد الجابرى – اخذت من مقدمة ابن خلدون – ص ٨٨٤ – جـ١ .

الدولة فانه يقرر ـ من جهة اخرى ـ ان هذه العصبية قد تعرقل تأسيس الدولة ، حيث يقول في عنوان احد فصول مقدمته « ان الاوطان الكثيره القبائل والعصائب ، قل ان تستحكم فيها دولة »(٤٠)٠

ويستشهد ابن خلدون في ذلك بما حدث في « افريقيا والمغرب منذ او الاسلام » « فأن ساكن هذه الاوطان من البربر ، أهل قبائل وعصبيات، فلم يغن فيهم الغلب الاول ٠٠٠ شيئا وعادوا بعد ذلك الى الثورة والردة مرة بعد أخرى ، وعظم الاثخان من المسلمين فيهم٠ولما استقر الدين عندهم، عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين الخوارج مرات عديدة »(١٤)٠٠٠ لان قبائلهم في المغرب كانت « اكثر من ان تحصى ، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكتقبيلة عادت الاخرى الى مكانها والى دينها من الخلاف والردة ، فطال امر العرب في تمهيد الدولة بوطن افريقية والمغرب »(٤٢)٠

ويعكس ذلك ، فأن « الاوطان الخالية من العصبيات ، يسهل تمهيد الدولة فيها لان سلطانها يكون « وادعا لقلة الهرج والانتفاض ، ولاتحتاج الدولة فيها الى كثير من العصبية »(٣)٠

وقد استشهد ابن خلدون في ذلك بما حدث في الشام والعراق آبان الفتوحات الاسلامية ٠

ويتضح من ذلك كله : ان العصبية ضرورية لتأسيس الملك والدولة بعد أن اصبح كل شيء في الدولة مرتبط بالعصبية فنجد اتساع نطاق الدولة ، واستتاب سلطانها ، ومن ثم مساهمتها المستمرة في التشييد

---

(٤٠) ـ المقدمة ـ ص٢٩٥ ـ جـ١ ٠
(٤١) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠
(٤٢) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠
(٤٣) ـ المقدمة ـ ص٢٩٩ ـ جـ١ ٠

والعمران . كل ذلك يرجع اساسا الى حال عصبيتها وحال عصبية الاقوام التابعة لها .

## ٢ ـ ٢ ـ علاقة العصبية بالدين :

لقد فهم ابن خلدون العلاقة القائمة بين العصبية والامور الدينية على اساس ان هذه العلاقة تعمل على جمع القلوب وتآلفها وتوحيد الصفوف وهذا مما يؤدى الى التخفيف من مظاهر التعصب داخل المجتمع البدوى او القبلي ( والسبب في ذلك ... أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى في اهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق ... »(٤٤).

فالعامل الديني أو الدعوة الدينية سواء اكانت نبوة أو رسالة او دعوة اصلاحية انما تستمد قوتها بلا شك من المبادىء التى تحملها والاساس التى تقوم عليها حيث انها تعتمد في نشاطها على مبدأ « الامر بالمعروف والنهي عن المنكر »(٤٥).

وبهذا نجد ابن خلدون لاحظ بعض العلاقات المهمة التى تربط بين قوة العصبية ، وبين الامور الدينية او الدعوة الدينية اذ يقول « ان الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم »(٤٦). لان مثل هذه الدعوة تضمنت حمل البشر على السير وفق ماتقتضيه الاوامر الدينية . فهى بذلك لاتخرج عن نطاق الامور التى تحتاج الى عصبية »(٤٧). فالعلاقات القائمة على النسب بمعناه الضيق أو ماتسمى بالعلاقات العصبية داخل المجتمع البدوى ،

---

(٤٤) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ ج١ .
(٤٥) ـ د. محمد عابد الجابرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ .
(٤٦) ـ المقدمة ـ ص٢٨٦ ـ ج١ .
(٤٧) ـ ابو خلدون ساطع الحصرى ـ نفس المصدر ـ ص٢٤٧ .

لايمكنها ان تتطور الى عصبية جامعة تبغى الحضارة والاستقرار وسلطة الملك وثمراته ، دون حصول متغيرات في مستوى ، هذه العلاقات وهذا لايكون الا بعامل فعال ذو تأثير خاص ، وهذا العامل ماهو الا العامل الديني ، الذى يذهب عنهم الغلظه والتنافس والتحاسد ٠

وبهذا يقول ابن خلدون « فاذا كان فيهم النبي أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله تعالى ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار القق ثم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك »(٤٨)٠ ويضيف ابن خلدون الى ذلك تعليلا آخر اذ يقول « وفي الحديث ٠٠٠ مابعث الله نبيا : الا في منعه من قومه ٠ واذا كان هذا في الانبياء وهم اولى الناس بخرق العوائد فما ظنك بغيرهم ان لاتخرق لهم العادة في الغلب بغير العصبية » (٤٩)٠

فالدعوة الدينية كما يتضح قد زادت من قوة العصبية ، فأصبحت بذلك قادرة على احداث تحولات وتغييرات جذرية في جميع المستويات والاوضاع داخل المجتمع البدوى ٠ وبهذا يقول ابن خلدون « ان الاجتماع الديني يضاعف قوة العصبية »(٥٠) ٠ وعندما يحصل « الاجتماع الديني » في قوم من الاقوام . بلا شك سوف يضمن لهم التغلب على من هم اوفر عددا واقوى عصبية منهم ، وعندما يفقد هؤلاء القوم بعدئذ هذا « الاجتماع الديني » أي « اذا حالت صبغة الدين وشدت »(٥١)٠ نجد بأن التغلب

---

(٤٨) ـ المقدمة ـ ص٢٧٣ ـ جـ١ ٠
(٤٩) ـ المقدمة ـ ص٢٨٦ ـ جـ١ ٠
(٥٠) ـ المقدمة ـ ص٢٨٥ ـ جـ١ ٠
(٥١) ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٥ ـ جـ١ ٠

الذى كان قد حصل بفضل ذلك الاجتماع ، وبتأثير تلك الصبغة « ينتقص الامر فيصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة في الدين فتغلب على الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها » بعد ان كانت الدولة المذكورة قد « غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها وكانوا اكثر عصبية منها أو أشد بداوة »(٥٢)٠

وهنا يستشهد ابن خلدون بوقائع تاريخية عديدة على ذلك وهى مستنبطة من التاريخ الاسلامي ٠ وانه يذكر بشكل خاص « ماوقع للعرب في صدر الاسلام في الفتوحات فكانت جيوش المسلمين في القادسية واليرموك » قد غلبت « جموع فارس وجموع هرقل » مع ان عددهم كان بضعة وثلاثين الفا ، في حين أن جموع فارس كانت نحو مائة وعشرون الفا بالقادسية وجموع هرقل كانت على ماقاله الواقدى ـ اربعمائة الف باليرموك »(٥٣) ٠

كما انه يذكر ماحدث بين المصادمة وزناته في دولة الموحدين « كما كانت زناته ابدى من المصامدة واشد توحشا ، وكان للمصامدة الدعوة الدينية بأتباع المهدى ، فلبسوا صبغتها ٠ وتضاعفت عصبيتهم ٠ فغلبوا على زناته اولا فاستتبعوهم ، وان كانوا من حيث العصبية والبداوة اشد منهم ٠ فلما حالوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناته من كل جانب وغلبوهم على الامر وانتزعوه والله غالب على امره »(٥٤) ٠

وبهذا الاتجاه نجد بأن ابن خلدون كان قد توسع بوجه خاص ،

---

(٥٢) ـ المقدمة ـ ص٢٨٥ ـ ج١ ٠
(٥٣) ـ المقدمة ـ ص٢٨٥ ـ ج١ ٠
(٥٤) ـ المقدمة ـ ص٢٨٦ ـ ج١

في توضيح تاثير الامور الدينية على القبائل البدوية العربية فيقول في فصل « أن العرب لايحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو اثر عظيم من الدين على الجملة » « والسبب في ذلك » ان هذه القبائل العربية « اصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع اهواؤهم ، فاذا كان الدين بالنبوات أو الولاية كان الوازع لهم من انفسهم،وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس »(٥٥)٠

يتبين لنا مما تقدم بأن العصبية في المجتمع البدوى الذى يتألف عادة من قبائل البدو الرحل ، لايمكن لها ان تتطور الى عصبية موحدة متآلفة الا بوجود عامل آخر مضاف،الا وهو الدعوة الدينية الذى تتبناها عصبية معينة تعمل على نشرها ونصرتها مما ينتج عن ذلك ظهور تكتل أو تجمع عصبي يعمل على تأسيس الدولة والملك حيث « ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها قوة على العصبية التى كانت لها من عددها »(٥٦)٠

فالدولة القائمة اذا كانت تعتمد على العصبية بشكل مباشر لايمكن لها البقاء طويلا دون ان يكون استقرارها واستمرارها معززا بدعوة دينية٠ فأبن خلدون هنا يقول رأيه بصراحة من « أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين أما من نبوة أو دعوة حق »(٥٧)٠

فالقوة المعنوية التى تتجلى في العصبية حينما تتحد أو تلتحم أما مع

(٥٥) ـ المقدمة ـ ص٢٧٣ ـ جـ١ ٠
(٥٦) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ جـ١ ٠
(٥٧) ـ المقدمة ـ ص٢٨٤ ـ جـ١ ٠

الدين أو مع دعوة من دعوات الحق تكتسب بذلك طابعا مذهبيا · وهــذه بلا شك تضفي على العصبية صفة خلقية ومعنوية ايضا(٥٨)· بحيث تصبح من القوة والمنعة لايقف امامها أى شىء يتحداهــا ·

**الخلاصـــــة :-**

بعد أن تعرضنا في هذا البحث الى مفهوم العصبية عند ابن خلــدون وجدنا بأنه قد استطاع في مقدمته المعروفة ان يتوسع في استعمال مصطلح العصبية ولم يتصرف بها في حدود معناها اللغوى البحــث المتعارف عليها وانما تمكن من ادخال الكثير من انواع الروابط والعــلاقات الاجتماعية ، وجميع الظواهر التى تتعلق بالتعاضد والتآزر والتكاتف في مفهومها ·

وهذا كله جاء من خلال تجربة ابن خلدون داخل بيئتــه الاجتماعية والسياسية التى عاش فيها واطلاعه الواسع على تفاصيل التجارب الاخرى التي سبقته والتى حاول شرحها وتعليلها في هذا المجــال حيث وجــد بأن فكرة العصبية متأتيه من كون المجتمع البدوى وهو الذى يشكل الجماعــة الاولية قائم على علاقات شخصية مباشــرة ، ومن هــذه العــلائق ينبثــق التضامن والتعاضد والتكاتف الجماعي المتين والراسخ وهذا كله ناجم عن رابطة صلة الدم بالدرجة الاولى ومن ثم تتبلور نحو وحدة المصير الواحد بينهم · اما بالنسبة الى العلاقات الاجتماعية القائمــة في المجتمع الشــامل فتقوم على اساس المصالح المتبادلة بين افراده ، فمن الناحية التاريخية ، يرى ابن خلدون ان الجماعة الاولية سابقة بوجودها لظهور المجتمع الشامل، وبذلك اصبحت مثل هذه المجتمعات داخله في نطاق تأثير القبائل والعشائر

---

(٥٨) ـ د· فاضل زكي محمد ـ نفس المصدر ـ ص٢٠١·

البدوية فمثل هذه البيئة تمت بصلات وثيقة الى الحياة البدوية من جهة والحياة الحضرية من جهة اخرى ، فكلما تقدم المجتمع انتقلت الجماعات البدوية الى الجماعات المتحضرة وتكوين المجتمع الشامل ، وبذلك كانت الدول القائمة في مثل هذه المجتمعات تتأثر تأثرا كبيرا من القبائل والعشائر ، حتى انها كثيرا ماكانت تتكون وتنحل وتتوسع وتتقلص وتقوم وتنهار من جراء تآلف وتوحد العشائر أو تفرقها وتشتتها ٠ لذلك فأن نظرية ابن خلدون في العصبية كانت من النظريات التي لامست واقع المجتمع الى حد كبير ، حيث اظهرت طبيعة الروابط والعلائق الاجتماعية المختلفة باجلى تلاحمها واشكالها في العهود التاريخية المختلفة ، وهي بذلك تدلل على تفكير فاحص ونافذ ، شامل ومتعمق في دراسة ومتابعة جميع الحالات الاجتماعية وتعليل وقائعها التاريخية ٠

**الهوامش :**

١ ـ ابو خلدون ساطع الحصري ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ ط٣ ـ ١٩٦٧ـص٣٣٤ ٠

٢ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ـ دار الشؤون الثقافية ( آفاق عربية ) ـ بغداد ـ ص٢٥٣ ٠

٣ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٣ ٠

٤ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٤ ٠

٥ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٥١ ٠

٦ ـ د٠ سفيتلانا باتسيينا ـ العمران البشري في مقدمة ابن خلدون ـ

ترجمة عن الروسية رضوان أبراهيم ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ، تونس ـ ١٩٧٨ـص٢٤٤ـص٢٤٥ ٠

٧ ـ د٠ سفيتلانا باتسييدا ـ نفس المصدر ـ ص٢٤٨ـص٢٤٩ ٠

٨ ـ مقدمة ابن خلدون ـ بتحقيق المستشرق الفرنسي أ٠م٠ كاترمير ـ لبنان ـ بيروت ١٩٧٠ـص٢٣٥ ٠

٩ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٤٢٨ ٠

١٠ـ ابو خلدون ساطع الحصري ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١١ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

١٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٥ ٠

١٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٥ ٠

١٤ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٩ ٠

١٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

١٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٦ ٠

١٨ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ـ٢٣٩ ٠

١٩ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٦٠ ٠

٢٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٣٨ ٠

٢١ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ٢٧١ ٠

٢٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ ٠

٢٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٣٨ ٠

٢٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٦٤ ٠

٢٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٦٤ ٠

٢٦ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٧٢ .
٢٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٢ـ٢٥٣ .
٢٨ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٤ .
٢٩ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ٢١٧ .
٣٠ـ د. فاضل زكي محمد ـ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ـ ط٢ ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ـ ص٢٩٩ .
٣١ـ د. فاضل زكي محمد ـ نفس المصدر ـ ص٣٠٠ .
٣٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٥٣ .
٣٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٢ .
٣٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٣ .
٣٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩١ .
٣٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩١ .
٣٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٣٠٥ .
٣٨ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٣٢٥ .
٣٩ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٨٨٤ .
٤٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٥ .
٤١ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ .
٤٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ .
٤٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٩٩ .
٤٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ .
٤٥ـ د. محمد عابد الجابري ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ .
٤٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ .

٤٧ـ ابو خلدون ساطع الحصرى ـ نفس المصدر ـ ص٣٤٧ ٠

٤٨ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٧٢ ٠

٤٩ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٦ ٠

٥٠ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٥ ٠

٥١ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٥ ٠

٥٢ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٥ ٠

٥٣ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٥ ٠

٥٤ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ ٠

٥٥ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٧٢ ٠

٥٦ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ٢٨٤ ٠

٥٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ نفس المصدر ـ ص٢٨٤ ٠

٥٨ـ د٠ فاضل زكي محمد ـ نفس المصدر ـ ص٣٠١ ٠

## المصادر :


١ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق المستشرق الفرنسي أ٠م كاترمير عن طبعة باريس سنة ١٨٥٨ ـ الجزء الاول ـ المجلد الاول ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٧٠ ٠

٢ ـ ابو خلدون ساطع الحصرى ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون ـ طبعة ثالثة موسعة ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ القاهرة ، دار الكتاب العربي بيروت ـ ١٩٦٧ ٠

٣ ـ د٠ سفيتلانا باتسييفا ـ العمران البشرى في مقدمة ابن خلدون ـ

ترجمة عن اللغة الروسية رضوان ابراهيم ـ الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ـ تونس ، ١٩٧٨ ٠
٤ ـ د٠ فاضل زكي محمد ـ الفكر السياسي العربي الاسلامي بين ماضيه وحاضره ـ ط٢ ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ـ ١٩٧٦ ٠
٥ ـ د٠ محمد عابد الجابري ـ فكر ابن خلدون ـ العصبية والدولة / معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ٠

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٤٣٦ لسنة ١٩٩٠

سعادة سفير الجمهورية العربية اليمنية المحترم

## م تهنئـــة

المؤرخـون والاثاريون العراقيـون يهنئـن شـعب اليمن وقيادتـه الثورية المؤمنـة بحـق الامة العـربية في الوجود ، ان قيام الدولة اليمنية الموحـدة لهو دليـل صادق على ارادة تصـفية الاثـار الحقيقية للمرحـلة الاستعمارية .

وفقكم اللـه ووفقـنا لخير امـة العرب ....

الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي
رئيس جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق

الاخ الدكتور نزار عبداللطيف الحديثي المحترم
رئيس جمعية المؤرخين والاثاريين في العراق الشقيق

تحية طيبة وبعد

تسلمت تهنئتكم الرقيقة بمناسبة اعادة توحيـد اليمـن ارجـو ان تنقلوا والأخوة المؤرخين والاثاريين في العـراق الشـقيق خالص شـكرى وتقديرى على مشاعركم الكريـمة ، كما ارجـو من الله ان يحـقق لأمتنـا العربية العزة والنصـر .

وتقبلوا فائق تقديرى واحترامي .

السفير
محمد عبدالله الشامي